

في رحاب
دعاء مكارم الأخلاق

للإمام زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام

تأليف

السيد صدر الدين القبانجي

تقديم وتحقيق



مؤسسة بحوث القرآن الكريم

رقم الإصدار: ٣٦



مؤسسة إحياء التراث الشيعي

شارع السور - قرب جبل الحويش

هاتف: ٠٧٨١٦٧٧٢٢٦ و ٠٧٨١٢١٤١١١١

في رحاب دعاء مكارم الأخلاق
للإمام زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام

تأليف

السيد صدر الدين القبانجي

تقديم وتحقيق

مؤسسة إحياء التراث الشيعي

الطبعة الأولى: ١٤٣٧ هـ

رقم الإصدار: ٣٦

العدد: ٢٠٠٠ نسخة

جميع الحقوق محفوظة للمؤسسة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤسسة:

الأخلاق بين مدرستين:

لَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ هُوَ ذَلِكَ الْمَوْجُودُ الْمَدْرِكُ الْمَخْتَارَ، لَذَا لَمْ تَكُنْ تَصْرَفَاتِهِ وَجَمِيعَ سَكَنَاتِهِ وَحَرَكَاتِهِ نَابِعَةً مِنْ تَصْرَفَاتٍ عَشْوَائِيَّةٍ لَا أُدْرِيَّةٍ فِي حَالِ اخْتِيَارِهِ، وَخَاصَّةً التَّصْرَفَاتِ الْأَخْلَاقِيَّةِ، بَلْ هِيَ صَادِرَةٌ مِنْهُ بِدَوَافِعٍ مَحْدَدَةٍ وَنَوَازِعٍ مَعِيْنَةٍ لَهَا أَهْدَافُهَا وَلَهَا غَايَاتُهَا، يُمْكِنُ أَنْ نُعَبِّرَ عَنْهَا بِ (المرجعية الأخلاقية).

فَمِنْ هُنَا تَكَثَّرَ الْبَحْثُ وَتَشَعَّبَ الْكَلَامُ فِي أُسُسِ هَذِهِ الْمَرْجِعِيَّةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ لِلْإِنْسَانِ، وَاخْتَلَفُوا إِلَى مَدْرَسَتَيْنِ:

الأولى: مدرسة أهل البيت عليه السلام.

والثانية: المدرسة الوضعية.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الثَّانِيَةَ مَتَكَبِّرَةٌ وَمَخْتَلِفَةٌ بِاخْتِلَافِ الْآرَاءِ الْفَلَسَفِيَّةِ وَالْمَدَارِسِ الْوَضْعِيَّةِ _ وَإِنْ كُنَّا نَجِدُ بَصِمَاتِ الْمَدْرَسَةِ أَوْ الْمَدَارِسِ الْقَدِيمَةِ ضَافِيَةً عَلَى الْمَدَارِسِ الْوَضْعِيَّةِ الْحَدِيثَةِ _.

فوارق المدرستين:

ويمكن تلمس بعض الفوارق بين المدرستين:

١ _ إِنَّ الْمَدَارِسَ الْوَضْعِيَّةَ الْأَخْلَاقِيَّةَ تَعْتَمِدُ الْفِكْرَ الْبَشْرِيَّ الشَّخْصِيَّ وَتَطَوَّرُ الْعُلُومَ الْإِنْسَانِيَّةَ، لَذَا فَهِيَ قَابِلَةٌ لِلخَطَأِ وَالصَّوَابِ وَالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ، مَّا يُسَبِّبُ التَّضَادَّ وَالتَّعَارُضَ بَيْنَهَا فِي أَقْصَى

٤ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

درجاته. بينما الأخلاق في مدرسة أهل البيت عليه السلام تعتمد العلم الإلهي، وهو علم أزلي أبدي لا يتغير ولا يتبدل لأنه عين ذاته تعالى.

٢ _ إنَّ المدارس الأخلاقية الوضعية مجرد نظريات قد لا يُطبَّقها بشكل كامل حتَّى أصحابها، ولذلك فهي أبعد ما تكون عن تشكيل قواعد عملية للمسيرة البشرية، بخلاف مدرسة أهل البيت عليه السلام فهي نابعة من التطبيق العملي لكلِّ مفرداتها.

وبعبارة أخرى إنَّ المدارس الوضعية لم تستطع، بل هي غير قادرة على صناعة النموذج الأمثل الذي يُمثِّل نظرياتها الأخلاقية، أمَّا مدرسة أهل البيت عليه السلام فقد استطاعت إيجاد تلك النماذج ليس فقط في أشخاص الأئمة المعصومين عليه السلام، بل توسَّعت لتجد لها نماذج من أتباعهم وأشياعهم ينتهلون من تعاليم أهل البيت عليه السلام ويسيروا على خطاهم.

٣ _ ويمكن أن نُسجِّل فارقاً ثالثاً مهمًّا وهو أنَّ الأخلاق عند أهل البيت عليه السلام متنوِّعة العلاقات، فتارةً هي علاقة أخلاقية مع الخالق تعالى وكيف يتأدَّب الإنسان بين يدي ربِّه سبحانه. وأخرى مع الآخر سواء الفرد أو المجتمع، فقد جعل أهل البيت عليه السلام لذلك قواعد ومناهج يسير عليها الإنسان. وثالثة مع الإنسان نفسه، كيف يترقَّى هو في مدارج الكمال والصلاح. بينما لا نجد في المدارس الأخلاقية الوضعية الحالة الأولى ولا الحالة الثالثة بشكل مستقلِّ إلا بما يمكن أن يكون مساهمًا في تفعيل الحالة الثانية وهي الأخلاق مع المجتمع.

فالأخلاق عند أهل البيت عليه السلام هي الهدف من بعثة الأنبياء والرسول «إنَّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»^(١)، والأخلاق عند أهل البيت عليه السلام هي المحرِّك الأوَّل في الإنسان حيث تُحرِّكه نحو الكمال

(١) مكارم الأخلاق: ٨؛ سنن البيهقي ١٠: ١٩٢.

المطلق: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا﴾ (الانشقاق: ٦)، لذا كان أهل البيت عليهم السلام عبارة عن أخلاق تمشي على الأرض، ونوراً تشقُّ البشرية من خلاله طريقها نحو الصلاح والإصلاح والكمال والتكامل.

الإمام زين العابدين عليه السلام ودعاء مكارم الأخلاق:

حينما نتأمل في مسيرة زين العباد الإمام علي بن الحسين عليهما السلام نجدها _ كأبائه الكرام وأبنائه الميامين عليهم السلام _ مدرسة أخلاقية بكل ما للكلمة من معنى، فهذه كتب السير والتاريخ رغم قصورها وتقصيرها في تخليد وإثبات تفاصيل حياتهم وسيرتهم الأخلاقية إلا أن ما وصل إلينا منها كفيلاً لإعطاء صورة واضحة ومشرفة في تجسّد الأخلاق الإلهية في أشخاص أهل البيت عليهم السلام عموماً والإمام زين العابدين عليه السلام بشكل خاص، فما كان في الصحيفة السجّادية من معاني أخلاقية راقية تجد الإمام عليه السلام قد جسّد ذلك من خلال سيرته وسلوكه، سواء في علاقته بين يدي الله تعالى أو مع الآخر فرداً كان أو مجتمعاً.

وما دعاء مكارم الأخلاق إلا نفحة عطرة من نفحاته القدسية عليه السلام، فهو ليس دعاءً فحسب، بل منهاجاً ودروساً وقواعد أساسية لرقّي الإنسان وبلوغه إلى أقصى غايات الكمال.

ومما يؤسف له أن هذا الكنز من دُرر أدعية الإمام السجّاد عليه السلام لم تُسلط الأضواء عليه بما يستحقّه إلا ما وجدناه من شرح للشيخ محمّد جواد التستري المتوفّي سنة (١٣٣٥هـ) تحت عنوان (شرافة الأعمال في شرح دعاء مكارم الأخلاق)، وشرح آخر للشيخ بهاء الدين محمّد بن الحسين الحائري العاملي المتوفّي سنة (١٠٣١هـ) في ضمن شرحه للصحيفة السجّادية المسمّى بـ (حدايق الصالحين) تحت عنوان (الحديقة الأخلاقية).

٦ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

ومؤسسة إحياء التراث الشيعي إذ تتقدم بالشكر الجزيل والثناء الجميل
لساحة حجة الإسلام والمسلمين السيّد صدر الدين القبانجي (دام عزّه)، لما
خطت يراعه شرحاً وتعليقاً وإيضاحاً لدعاء مكارم الأخلاق، فإنّها تودُّ أن تنوّه
للإخوة القراء أنّ هذا الكتاب يأتي ضمن سلسلة للمؤلّف ركّز فيها على تراث
أهل البيت عليهم السلام، صدر منها لحدّ الآن:

١ _ في رحاب دعاء أبي حمزة الثمالي، (ثلاثة أجزاء).

٢ _ في رحاب الزيارة الجامعة الكبيرة، (أربعة أجزاء).

٣ _ في رحاب زيارة عاشوراء.

٤ _ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق، وهو هذا الكتاب الذي بين

يديك عزيزي القارئ.

نسأله تعالى أن يزيد في عطاء المؤلّف العلمي والفكري، وأن يجعله

في ميزان حسناته، إنّه سميع مجيب.

مدير المؤسسة

السيّد محمّد القبانجي

بسم الله الرحمن الرحيم

إيضاح:

الحمد لله ربّ العالمين، وصلىّ الله على سيّد رسله محمّد وآله الطاهرين.
وبعد..

هذه البحوث هي خطوط عريضة وتأمّلات سريعة حول مقاطع دعاء (مكارم الأخلاق) لسيّد الساجدين وزين العابدين الإمام علي بن الحسين ؑ.

لقد كنت كتبت هذه الخطوط والتأمّلات وأنا في جوار المرقد النبوي الشريف وقبور الأئمّة الأطهار في البقيع، استجابةً لطلب قدّمته لي أخي وشقيقتي العلوية الصالحة (عصمة الشريعة) أمّ هاشم، وحيث كنّا نتشرّف سنوياً بزيارة المدينة المنوّرة ومكّة المكرّمة في موسم الحجّ، ولدينا متسع من الوقت يسمح لنا أن ننجز بعض المتابعات العلمية.

وهناك في المدينة المنوّرة بفضل الله تعالى وبركات صاحب القبّة الخضراء، وابنته المظلومة فاطمة الزهراء، وأبناءه الأطهار النجباء، أنجزت كتابة هذه البحوث وأنا في المسجد النبوي أو ذاهباً وآبياً إليه متأمّلاً في فصول هذا الدعاء ومعانيه ومداليه ومراميه.

كان ذلك في شهر ذي القعدة من عام (١٤٢٢) للهجرة النبوية

الشريفة.

٨ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

وبقيت عندي هذه البحوث محفوظة طوال خمسة عشر عاماً إلى أن شاءت يد القدر الإلهي وبتريغيب وتشجيع من أخي العزيز المحقق سماحة السيّد محمّد القبانجي دام محفوظاً ومباركاً أن أبادر لتقديمها للطباعة والنشر.

ولا بدّ أن أُسجّل ملاحظتين:

الأولى: لدى مراجعة هذه المجموعة من البحوث لاحظت أنّ خمسة مقاطع من الدعاء لم يتمّ الوقوف عندها وشرحها، وهي المقطع الرابع عشر، ثمّ الثامن عشر، ثمّ التاسع عشر، والعشرون، والحادي والعشرون، ولذا فقد عمدت إلى شرحها والوقوف عندها لتكون البحوث متكاملة بإذن الله تعالى.

الثانية: وقد كانت جهود مؤسّسة إحياء التراث الشيعي كبيرة في متابعة نصوص هذه البحوث واستخراج مصادرها، واختيار الأحاديث الشريفة التي لم يتسنّ لي في ظروف كتابة هذه البحوث أن أستخرجها وإنّما كنت أشرت إلى عناوينها فقط.

فلهم شكري وتقديري ودعائي.

النجف الأشرف

صدر الدين القبانجي

١٧ / محرّم الحرام / ١٤٣٧ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف:

أختي العلوية الكريمة، والمبلّغة الواعظة، والمرشدة الفاضلة أمّ

هاشم..

لا أدري ما إذا كنت سأوفق لكتابة هذه البحوث الموجزة في شرح
دعاء مكارم الأخلاق لإمامنا زين العابدين عليه السلام استجابةً لطلبك
ورغبتك في ذلك.

ولكنني عقدت العزم متوكلاً على الله تعالى منذ العام الماضي على
أن أباشر الكتابة في ذلك، متوسلاً إليه بنبيّه وأشرف رسله محمد صلى الله عليه وآله،
حيث أنا في جواره وأمام قُبَّتِه، ملتمساً شفاعته لي في التوفيق لهذا العمل.

وإنّ ما يدفعني لهذا الشرح هو اعتقادي بحاجتنا وحاجة مجتمعنا
إلى معاني هذا الدعاء العظيم، ويوطّد أمني في التوفيق له هو بركات
صاحب هذه القُبّة الخضراء التي عمّ نورها الأرض والسماء، ولكن ما
يقلقني في الأمر هو عدم لياقتي لخوض هذا البحر، وافتقاري
الشخصي إلى أقلّ الأخلاق وأبسطها، فكيف أتجاسر على شرح
مكارمها وأفاضلها؟

ومهما يكن فإنّ المائدة هي مائدتهم عليهم السلام، وأنا لائذ بهم مستشفع
إلى الله تعالى بحبّهم، عائذ بقبورهم، فكيف أُنمّن من الورود على هذه
المائدة (وسجيتهم الكرم)؟!..!

١٠ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

لقد كتبت في العام الماضي خطوطاً عريضة لشرح هذا الدعاء،
وها أنا مقدم على شرح ما كتبت، آملاً أن تكون عناية الله معي بتوفير
الصحة، والبركة في الوقت، والموهبة في العلم، ودفع المشاكل التي
تشغلني عن هذا العمل.

وإن كان فيما سأكتبه من أمر مفيد نافع فهو من فضل ربي وعطائه،
وشفاعة نبيه ودعائه، وإن كان فيه من نقص أو خطأ فهو مني، وأستغفر
الله تعالى منه.

إنني استلهم في هذا الشرح المعاني الصحيحة، وأستنير في طريق
كتابتها بأنوار سيدي ومولاي سيّد الساجدين وزين العابدين صاحب
هذا الدعاء، وأنا أقف إلى جانب قبره الشريف، وأستظلُّ بظلّه الوارف
المنيف، وقد سألت الله تعالى بحقه أن يُوفّقني فيما نويت عليه، إنّه وليُّ
التوفيق.

أخوك السيّد صدر الدين القبانجي

ليلة الخميس (١٧/ ذو القعدة / ١٤٢٢ هـ)

عند مسجد النبي ﷺ وجوار قبره

دعاء مكارم الأخلاق

(١) اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَبَلِّغْ بِإِيْمَانِي أَكْمَلَ الْإِيْمَانِ،
وَاجْعَلْ يَقِيْنِي أَفْضَلَ الْيَقِيْنِ، وَأَنْتَهُ بِنِيَّتِي إِلَى أَحْسَنِ النَّيَّاتِ، وَبِعَمَلِي إِلَى
أَحْسَنِ الْأَعْمَالِ. اللَّهُمَّ وَفِّرْ بِلُطْفِكَ نِيَّتِي، وَصَحِّحْ بِمَا عِنْدَكَ يَقِيْنِي،
وَاسْتَصْلِحْ بِقُدْرَتِكَ مَا فَسَدَ مِنِّي.

(٢) اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاكْفِنِي مَا يَشْغَلُنِي الْإِهْتِمَامُ بِهِ،
وَاسْتَعْمِلْنِي بِمَا تَسْأَلُنِي غَدًا عَنْهُ، وَاسْتَفْرِغْ أَيَّامِي فِيْمَا خَلَقْتَنِي لَهُ، وَأَغْنِنِي
وَأَوْسِعْ عَلَيَّ فِي رِزْقِكَ، وَلَا تَفْتِنِّي بِالنَّظَرِ، وَأَعِزَّنِي وَلَا تَبْتَلِيْنِي بِالْكِبْرِ،
وَاعْبُدْنِي لَكَ وَلَا تُفْسِدْ عِبَادَتِي بِالْعُجْبِ، وَأَجْرِ لِلنَّاسِ عَلَى يَدِي الْخَيْرَ وَلَا
تَمَحِّقْهُ بِالْمَنْ، وَهَبْ لِي مَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ، وَاعْصِمْنِي مِنَ الْفَخْرِ.

(٣) اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَلَا تَرْفَعْنِي فِي النَّاسِ دَرَجَةً إِلَّا
حَطَطْتَنِي عِنْدَ نَفْسِي مِثْلَهَا، وَلَا تُحْدِثْ لِي عِزًّا ظَاهِرًا إِلَّا أَحْدَثْتَ لِي ذِلَّةً
بَاطِنَةً عِنْدَ نَفْسِي بِقُدْرَتِهَا.

(٤) اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَمَتَّعْنِي بِهُدَى صَالِحٍ لَا
أَسْتَبْدِلُ بِهِ، وَطَرِيقَةٍ حَقٌّ لَا أَزِيغُ عَنْهَا، وَنِيَّةٍ رُشِدٍ لَا أَشْكُ فِيهَا، وَعَمْرٍ
مَا كَانَ عُمْرِي بِذِلَّةٍ فِي طَاعَتِكَ، فَإِذَا كَانَ عُمْرِي مُرْتَعًا لِلشَّيْطَانِ فَاقْبِضْنِي
إِلَيْكَ قَبْلَ أَنْ يَسْبِقَ مَقْتُكَ إِلَيَّ، أَوْ يَسْتَحْكِمَ غَضَبُكَ عَلَيَّ. اللَّهُمَّ لَا تَدْعُ
خَصْلَةَ تُعَابٍ مِنِّي إِلَّا أَصْلَحْتَهَا، وَلَا عَائِبَةً أُؤَنَّبُ بِهَا إِلَّا حَسَّنْتَهَا، وَلَا
أَكْرُومَةً فِي نَاقِصَةٍ إِلَّا أَمَّمْتَهَا.

(٥) اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَأَبْدِلْنِي مِنْ بَغْضَةِ أَهْلِ الشَّنَانِ الْمَحَبَّةَ، وَمِنْ حَسَدِ أَهْلِ الْبَغْيِ الْمَوَدَّةَ، وَمِنْ ظَنَّةِ أَهْلِ الصَّالِحِ الثَّقَةَ، وَمِنْ عَدَاوَةِ الْأَذْنَيْنِ الْوَلَايَةَ، وَمِنْ عُقُوقِ ذَوِي الْأَرْحَامِ الْمَبْرَّةَ، وَمِنْ خِذْلَانِ الْأَقْرَبِينَ النُّصْرَةَ، وَمِنْ حُبِّ الْمُدَارِينَ تَصْحِيحِ الْمُقَّةِ، وَمِنْ رَدِّ الْمَلَابِسِينَ كَرَمِ الْعِشْرَةِ، وَمِنْ مَرَارَةِ خَوْفِ الظَّالِمِينَ حَلَاوَةِ الْأَمْنَةِ.

(٦) اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاجْعَلْ لِي يَدًا عَلَى مَنْ ظَلَمَنِي، وَلِسَانًا عَلَى مَنْ خَاصَمَنِي، وَظَفْرًا بِمَنْ عَانَدَنِي، وَهَبْ لِي مَكْرًا عَلَى مَنْ كَايَدَنِي، وَقُدْرَةً عَلَى مَنْ اضْطَهَدَنِي، وَتَكْذِيبًا لِمَنْ قَصَبَنِي، وَسَلَامَةً مِمَّنْ تَوَعَدَنِي، وَوَفْقًا لِمَنْ لَطَاعَةَ مَنْ سَدَدَنِي، وَمُتَابَعَةً مِمَّنْ أَرَشَدَنِي.

(٧) اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَسَدِّدْنِي لِأَنَّ أَعَارِضَ مَنْ غَشَّيَنِي بِالنُّصْحِ، وَأَجْزِي مَنْ هَجَرَنِي بِالْبُرِّ، وَأُثِيبَ مَنْ حَرَمَنِي بِالْبَدْلِ، وَأَكْفِي مَنْ قَطَعَنِي بِالصَّلَةِ، وَأُخَالِفَ مَنْ اغْتَابَنِي إِلَى حُسْنِ الذِّكْرِ، وَأَنْ أَشْكُرَ الْحَسَنَةَ، وَأُغْضِي عَنِ السَّيِّئَةِ.

(٨) اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَحَلِّئِي بِحِلْيَةِ الصَّالِحِينَ، وَأَلْبِسْنِي زِينَةَ الْمُتَّقِينَ، فِي بَسْطِ الْعَدْلِ، وَكَظْمِ الْغَيْظِ، وَإِطْفَاءِ النَّائِرَةِ، وَضَمِّ أَهْلِ الْفُرْقَةِ، وَإِضْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَإِفْشَاءِ الْعَارِفَةِ، وَسِتْرِ الْعَائِبَةِ، وَلِينِ الْعَرِيكَةِ، وَخَفْضِ الْجَنَاحِ، وَحُسْنِ السَّيْرِ، وَسُكُونِ الرِّيْحِ، وَطِيبِ الْمُخَالَقَةِ، وَالسَّبْقِ إِلَى الْفَضِيلَةِ، وَإِثَارِ التَّفْضُلِ، وَتَرْكِ التَّعْيِيرِ، وَالْإِفْضَالِ عَلَى غَيْرِ الْمُسْتَحِقِّ، وَالْقَوْلِ بِالْحَقِّ وَإِنْ عَزَّ، [وَالصَّمْتِ عَنِ الْبَاطِلِ وَإِنْ نَفَعَ] ^(١)، وَاسْتِقْلَالِ الْخَيْرِ وَإِنْ كَثَرَ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي، وَاسْتِكْثَارِ الشَّرِّ وَإِنْ

(١) ما بين المعقوفتين أضفناه من النسخة التي حققها السيّد محمد جواد الحسيني الجلالی/

قَلَّ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي، وَأَكْمَلَ ذَلِكَ لِي بِدَوَامِ الطَّاعَةِ، وَلُزُومِ الْجُمَاعَةِ،
وَرَفْضِ أَهْلِ الْبِدْعِ، وَمُسْتَعْمِلِ الرَّأْيِ الْمُخْتَرَعِ.

(٩) اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاجْعَلْ أَوْسَعَ رِزْقِكَ عَلَيَّ إِذَا
كَبُرْتُ، وَأَقْوَى قُوَّتِكَ فِيَّ إِذَا نَصَبْتُ، وَلَا تَبْتَلِينِي بِالْكَسَلِ عَنْ عِبَادَتِكَ،
وَلَا الْعَمَى عَنْ سَبِيلِكَ، وَلَا بِالتَّعَرُّضِ لِخِلَافِ مَحَبَّتِكَ، وَلَا مُجَامَعَةِ مَنْ
تَفَرَّقَ عَنْكَ، وَلَا مُفَارَقَةَ مَنْ اجْتَمَعَ إِلَيْكَ. اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي أَصُولَ بَكَ عِنْدَ
الضَّرُورَةِ، وَأَسْأَلَكَ عِنْدَ الْحَاجَةِ، وَأَتَضَرَّعُ إِلَيْكَ عِنْدَ الْمَسْكِنَةِ، وَلَا
تَفْتِنِّي بِالِاسْتِعَانَةِ بِغَيْرِكَ إِذَا اضْطُرَرْتُ، وَلَا بِالْخُضُوعِ لِسُؤَالِ غَيْرِكَ إِذَا
افْتَقَرْتُ، وَلَا بِالتَّضَرُّعِ إِلَى مَنْ دُونِكَ إِذَا رَهَبْتُ، فَاسْتَحِقَّ بِذَلِكَ
خِذْلَانِكَ وَمَنْعَكَ وَإِعْرَاضَكَ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

(١٠) اللَّهُمَّ اجْعَلْ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِي رُوعِي مِنَ التَّمَنِّيِّ وَالتَّظَنِّيِّ
وَالْحَسَدِ ذِكْرًا لِعَظَمَتِكَ، وَتَفَكُّرًا فِي قُدْرَتِكَ، وَتَدْبِيرًا عَلَى عَدُوِّكَ، وَمَا أَجْرَى عَلَى
لِسَانِي مِنْ لَفْظَةٍ فُحْشٍ أَوْ هُجْرٍ أَوْ شْتَمٍ عَرَضٍ أَوْ شَهَادَةٍ بَاطِلٍ أَوْ اغْتِيَابٍ مُؤْمِنٍ
غَائِبٍ أَوْ سَبِّ حَاضِرٍ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ نُطْقًا بِالْحَمْدِ لَكَ، وَإِعْرَاقًا فِي الثَّنَاءِ عَلَيْكَ،
وَذَهَابًا فِي تَمْجِيدِكَ، وَشُكْرًا لِنِعْمَتِكَ، وَاعْتِرَافًا بِإِحْسَانِكَ، وَإِحْصَاءً لِمَنِّكَ.

(١١) اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَلَا أَظْلَمَنَّ وَأَنْتَ مُطِيقٌ لِلدَّفْعِ
عَنِّي، وَلَا أَظْلَمَنَّ وَأَنْتَ الْقَادِرُ عَلَى الْقَبْضِ مِنِّي، وَلَا أَضِلَّنَّ وَقَدْ أَمَكَّتَكَ
هِدَايَتِي، وَلَا أَفْتَقِرَنَّ وَمِنْ عِنْدِكَ وَسْعِي، وَلَا أَطْغَيْنَنَّ وَمِنْ عِنْدِكَ وَجُدِي.

(١٢) اللَّهُمَّ إِلَى مَغْفِرَتِكَ وَفَدْتُ، وَإِلَى عَفْوِكَ قَصَدْتُ، وَإِلَى
تَجَاوُزِكَ اشْتَقْتُ، وَبِفَضْلِكَ وَثِقْتُ، وَلَيْسَ عِنْدِي مَا يُوجِبُ لِي مَغْفِرَتَكَ،
وَلَا فِي عَمَلِي مَا اسْتَحِقُّ بِهِ عَفْوَكَ، وَمَا لِي بَعْدَ أَنْ حَكَمْتُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا
فَضْلُكَ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَتَفَضَّلْ عَلَيَّ. اللَّهُمَّ وَأَنْطِقْنِي بِالْهُدَى،

١٤ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

وَأَهْمِنِي التَّقْوَى، وَوَفِّقْنِي لِلَّتِي هِيَ أَزْكَى، وَاسْتَعْمَلْنِي بِمَا هُوَ أَرْضَى.
اللَّهُمَّ اسْلُكْ بِي الطَّرِيقَةَ الْمُثَلَّى، وَاجْعَلْنِي عَلَى مِلَّتِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا.

(١٣) اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَمَتَّعْنِي بِالْاِقْتِصَادِ، وَاجْعَلْنِي مِنْ أَهْلِ
السَّدَادِ، وَمِنْ أَدِلَّةِ الرَّشَادِ، وَمِنْ صَالِحِي الْعِبَادِ، وَارْزُقْنِي فَوْزَ الْمَعَادِ، وَسَلَامَةَ
الْمُرْصَادِ. اللَّهُمَّ خُذْ لِنَفْسِكَ مِنْ نَفْسِي مَا يُحْلِصُهَا، وَأَبْقِ لِنَفْسِي مِنْ نَفْسِي مَا
يُضْلِحُهَا، فَإِنْ نَفْسِي هَالِكَةٌ أَوْ تَعْصِمُهَا. اللَّهُمَّ أَنْتَ عُدَّتِي إِنْ حَزَنْتُ، وَأَنْتَ
مُنْتَجِعِي إِنْ حُرِمْتُ، وَبِكَ اسْتِغَاثَتِي إِنْ كَرِهْتُ، وَعِنْدَكَ مِمَّا فَاتَ خَلْفُ، وَلِمَا فَسَدَ
صَلَاحٌ، وَفِيمَا أَنْكَرْتَ تَغْيِيرٌ، فَاْمُنْ عَلَيَّ قَبْلَ الْبَلَاءِ بِالْعَافِيَةِ، وَقَبْلَ الطَّلَبِ بِالْجِدَّةِ،
وَقَبْلَ الضَّلَالِ بِالرَّشَادِ، وَاكْفِنِي مَوْوَنَةَ مَعْرَةَ الْعِبَادِ، وَهَبْ لِي أَمْنًا يَوْمَ الْمَعَادِ،
وَامْنَحْنِي حُسْنَ الْإِرْشَادِ.

(١٤) اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَادْرَأْ عَنِّي بِلُطْفِكَ، وَاغْذِنِي
بِنِعْمَتِكَ، وَأَصْلِحْ لِي بِكَرَمِكَ، وَدَاوِنِي بِصُنْعِكَ، وَأَظِلَّنِي فِي ذَرَاكَ،
وَجَلِّلْنِي رِضَاكَ، وَوَفِّقْنِي إِذَا اشْتَكَلَتْ عَلَيَّ الْأُمُورُ لِأَهْدَاهَا، وَإِذَا
تَشَابَهَتْ الْأَعْمَالُ لِأَزْكَاهَا، وَإِذَا تَنَاقَصَتْ الْمِلَلُ لِأَرْضَاهَا.

(١٥) اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَتَوَجَّجْنِي بِالْكِفَايَةِ، وَسَمِّنِي
حُسْنَ الْوِلَايَةِ، وَهَبْ لِي صِدْقَ الْهُدَايَةِ، وَلَا تَفْتِنِّي بِالسَّعَةِ، وَامْنَحْنِي
حُسْنَ الدَّعَةِ، وَلَا تَجْعَلْ عَيْشِي كَدًّا كَدًّا، وَلَا تَرُدْ دُعَائِي عَلَيَّ رَدًّا، فَإِنِّي لَا
أَجْعَلُ لَكَ ضِدًّا، وَلَا أَدْعُو مَعَكَ نِدًّا.

(١٦) اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَامْنَعْنِي مِنَ السَّرَفِ، وَحَصِّنْ
رِزْقِي مِنَ التَّلَفِ، وَوَفِّرْ لِي مِلْكِي^(١) بِالْبَرَكَاتِ فِيهِ، وَأَصِْبْ بِي سَبِيلَ الْهُدَايَةِ
لِلْبِرِّ فِيمَا أَنْفَقْتُ مِنْهُ.

(١) في النسخ المتداولة: (مِلْكِي)، وما أثبتناه من النسخة المحققة.

دعاء مكارم الأخلاق ١٥

(١٧) اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاكْفِنِي مَوْوَنَةَ الْاِكْتِسَابِ،
وَارْزُقْنِي مِنْ غَيْرِ اِحْتِسَابٍ، فَلَا اَسْتَعْلَ عَنِ عِبَادَتِكَ بِالطَّلَبِ، وَلَا
اَحْتِمَلْ اِضْرَ تَبَعَاتِ الْمَكْسَبِ. اللَّهُمَّ فَاطِّبْنِي بِقُدْرَتِكَ مَا اَطْلُبُ، وَاجْرِنِي
بِعِزَّتِكَ بِمَا اَرْهَبُ.

(١٨) اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَصُنْ وَجْهِي بِالْيَسَارِ، وَلَا
تَبْنِدْ جَاهِي بِالْاِقْتَارِ فَاسْتَرْزُقْ اَهْلَ رِزْقِكَ، وَاسْتَعْطِي شِرَارَ خَلْقِكَ،
فَأَقْتِنَ بِحَمْدِ مَنْ اَعْطَانِي، وَأُبْتَلِ بِذَمِّ مَنْ مَنَعَنِي، وَأَنْتَ مِنْ دُونِهِمْ وَلِيُّ
الْاِعْطَاءِ وَالْمَنْعِ.

(١٩) اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَارْزُقْنِي صِحَّةً فِي عِبَادَةٍ،
وَفَرَاغًا فِي زَهَادَةٍ، وَعِلْمًا فِي اسْتِعْمَالٍ، وَوَرَعًا فِي اِجْمَالٍ. اللَّهُمَّ اِخْتِمِ بَعْفُوكَ
اَجَلِي، وَحَقِّقْ فِي رَجَاءِ رَحْمَتِكَ اَمَلِي، وَسَهِّلْ اِلَى بُلُوغِ رِضَاكَ سُبُلِي،
وَحَسِّنْ فِي جَمِيعِ اَحْوَالِي عَمَلِي.

(٢٠) اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَبَبِّهْنِي لِذِكْرِكَ فِي اَوْقَاتِ
الْغَفْلَةِ، وَاسْتَعْمِلْنِي بِطَاعَتِكَ فِي اَيَّامِ الْمُهْلَةِ، وَانْجِ لِي اِلَى مَحَبَّتِكَ سَبِيلًا
سَهْلَةً، اَكْمَلْ لِي بِهَا خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

(٢١) اللَّهُمَّ وَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، كَأَفْضَلِ مَا صَلَّيْتَ عَلَى اَحَدٍ
مِنْ خَلْقِكَ قَبْلَهُ، وَأَنْتَ مُصَلِّ عَلَى اَحَدٍ بَعْدَهُ، وَاتَنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي
الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنِي بِرَحْمَتِكَ عَذَابَ النَّارِ^(١).

* * *

(١) الصحيفة السجادية: ٩٢ - ١٠٢.

فاتحة الدعاء

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ».

لماذا تبدأ الأدعية _ أكثرها أو كلها _ بالصلاة على محمد وآله؟
وربما خُتِمتَ بذلك أيضاً.

فضيلة الصلاة عليهم:

لقد جاء في النصوص الصحيحة والمتواترة الشريفة فضلاً عظيماً
للصلوات عليهم حتى ورد:
عن أبي أيوب، عن محمد بن مسلم، عن أحدهما _ الإمام الباقر
والصادق عليهما السلام _، قال: «ما في الميزان شيء أثقل من الصلاة على محمد
وآل محمد»^(١).

وعن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: «لا
يزال الدعاء محبوباً حتى يُصَلَّى على محمد وآل محمد»^(٢).

وعن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: قال
رسول الله ﷺ: «الصلاة عليّ وعلى أهل بيتي تُذهب بالنفاق»^(٣).
وجاء في الزيارة الجامعة الكبيرة: «وَجَعَلَ صَلَاتِنَا عَلَيْكُمْ وَمَا

(١) الكافي ٢: ٤٩٤ / باب الصلاة على النبي محمد وأهل بيته عليهم السلام / ح ١٥.

(٢) الكافي ٢: ٤٩١ / باب الصلاة على النبي محمد وأهل بيته عليهم السلام / ح ١.

(٣) الكافي ٢: ٤٩٢ / باب الصلاة على النبي محمد وأهل بيته عليهم السلام / ح ٨.

١٨ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

خَصَّنَا بِهِ مِنْ وِلَايَتِكُمْ طَيِّباً خَلَقْنَا، وَطَهَارَةً لَأَنْفُسِنَا، وَتَزَكِيَةً لَنَا، وَكُفَّارَةً لِدُنُوبِنَا»^(١).

فلسفة ذلك:

قد نستطيع أن نكتشف فلسفة ذلك الفضل والشأن للصلاة عليهم ونذكر بعض أسبابه:

الصلاة عليهم تعبير عن المودة لله تعالى، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ (الفتح: ١٠).

الصلاة عليهم تدعو للتقرب منهم، والعمل على طاعتهم، وفي ذلك رضا الله ﷻ، ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ (آل عمران: ٣١).

الصلاة عليهم هي ذكر ودعاء لله ﷻ، وذكر الله تعالى أفضل الأعمال، ﴿اذْكُرُونِي أَذْكَرْكُمْ﴾ (البقرة: ١٥٢).

الصلاة عليهم علامة طهارة القلب من النفاق.

الصلاة عليهم هي أخلاق حسنة مع رسول الله ﷺ وآله الطاهرين عليهم السلام، وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «ما يوضع في ميزان امرئ يوم القيامة أفضل من حسن الخلق»^(٢).

الصلاة عليهم ذكر لهم ودعاء لهم وتحية لهم، فلا بد أن يذكرنا أيضاً بمثل ما نذكرهم ويدعون لنا ويستغفرون لنا، فإذا كان دعاؤنا بحق أنفسنا غير مقبول فإن دعاءهم لنا مقبول.

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٣٠٧.

(٢) الكافي ٢: ٩٩ / باب حسن الخلق / ح ٢.

الصلاة عليهم هي ابتغاء الوسيلة إلى الله تعالى، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ (المائدة: ٣٥).

الصلاة الصحيحة:

ولا شك أن الصلاة الصحيحة والمقبولة هي الصلاة على محمد وآله، كما قال ﷺ: «لا تُصَلُّوا عَلَيَّ الصلاة البتراء»، قالوا: وما الصلاة البتراء يا رسول الله؟ قال: «لا تقولوا: اللهم صل على محمد وتمسكوا، بل قولوا: صل على محمد وآل محمد»^(١).

لماذا دعاء مكارم الأخلاق؟

مكارم الأخلاق في مقابل مساوئ الأخلاق.
ولأن مكارم الأخلاق هي أفضل ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى كما ورد في الحديث: «إن أحسن الحسن الخلق الحسن»^(٢).
وقد جاء في الحديث: «إن علياً عليه السلام إنما بلغ ما بلغ به عند رسول الله ﷺ بصدق الحديث وأداء الأمانة»^(٣).
ولأن الأخلاق هي موهبة من الله تعالى استحق أن ندعو الله تعالى ونسأله مكارم الأخلاق، «وَهَبْ لِي مَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ، وَأَعْصِمْنِي مِنَ الْفَخْرِ».

والحقيقة أن الدين هو الأخلاق، أخلاق مع الله، وأخلاق مع رسول الله، وأخلاق مع عباد الله، وأخلاق مع سائر خلق الله تعالى،

(١) كتاب الأربعين لمحمد طاهر القمي الشيرازي: ٤٨٢؛ الصواعق المحرقة: ١٤٦.

(٢) روضة الواعظين: ٣٧٦؛ مشكاة الأنوار: ٣٩٣/ ح ١٢٩٥.

(٣) الكافي ٢: ١٠٤/ باب الصدق وأداء الأمانة/ ح ٥.

٢٠ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

فكلُّ الأعمال العبادية هي أعمال أخلاقية مع الله تعالى أو مع عباده، ولذا فإنَّ الأخلاق هي توأم الإيمان، وقد جاء في الحديث الشريف: «من لا حياء له لا دين له»^(١).

وجاء في الحديث الشريف عن الإمام الصادق، عن أبيه عليه السلام: «لا يؤمن رجل فيه الشُّحُّ والحسد والجبن، ولا يكون المؤمن جباناً ولا حريصاً ولا شحيحاً»^(٢).

وهذا الحديث واضح في الترابط بين الإيمان والأخلاق. وجاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: «إنَّ الله يُحِبُّ معالي الأمور ويكره سفاسفها»^(٣).

القرآن والأخلاق:

والقرآن الكريم يُؤكِّد البُعد الأخلاقي دائماً فيقول: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا...﴾ إلى آخر السورة (الفرقان: ٦٣ - ٧٤)، فقد ذكرت هذه الآيات اثنتي عشرة صفة أخلاقية لعباد الرحمن:

- ١ _ ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾.
- ٢ _ ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾.
- ٣ _ ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾.
- ٤ _ ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾.

(١) الاستذكار لابن عبد البر ٨: ٢٨١.

(٢) الخصال: ٨٢ و٨٣ / ح ٨.

(٣) عوالي اللئالي ١: ٦٧ / ح ١١٧.

- ٥ _ ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ .
 ٦ _ ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ .
 ٧ _ ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ .
 ٨ _ ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ .
 ٩ _ ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ .
 ١٠ _ ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ .
 ١١ _ ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ .
 ١٢ _ ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ
 وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ .

ومثل ذلك ما جاء في سورة (المؤمنون)، حيث قال تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾
 وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾
 وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ ...﴾ (المؤمنون: ١ - ٥)، فهذه جميعاً
 حالات أخلاقية لدى الإنسان.

وقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»^(١)،
 فهذا يعني أن التوحيد هو بالأصل مسألة أخلاقية.

الفرق بين الإنسان والحيوان:

والحقيقة أن الأخلاق _ وليس الفكر والعلم والقدرة والمال والجمال _
 هي الفارق المائز بين الإنسان والحيوان، ولهذا فقد اعتبر القرآن الكريم غير
 المؤمنين بمستوى الأنعام قائلاً: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ

(١) مكارم الأخلاق: ٨؛ سنن البيهقي ١٠: ١٩٢.

٢٢ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

وَكَيْلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ (الفرقان: ٤٣ و ٤٤).

أخلاق في كل عمل:

والإسلام حينما دعا إلى الأخلاق دعا إليها في كل شيء، وشرع لها أحكاماً، فهناك أخلاق في العبادات، وهناك أخلاق في المعاملات، وهناك أخلاق في العمل الفردي للإنسان مثل الأكل والشرب والمشي والنوم والكلام وغيرها.

عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «إذا جلس أحدكم على الطعام فليجلس جلسة العبد، وليأكل على الأرض، ولا يضع إحدى رجليه على الأخرى ولا يتربّع، فإنها جلسة يبغضها الله تعالى ويمقت صاحبها»^(١).

وعن الصادق عليه السلام أنه قال: «لا ينبغي الشرب في آنية الذهب والفضة ولا الأكل فيهما»، وعنه عليه السلام أنه كره الشرب في الفضة والقدرح المفصّض، وعنه عليه السلام أنه قال: «ثلاثة أنفاس في الشرب أفضل من الشرب بنفس واحد»^(٢).

وعن الصادق عليه السلام أنه قال: «سيروا وانسلوا فإنه أخف عليكم»، وعنه عليه السلام: «سرعة المشي تُذهب ببهاء المؤمن»، وعنه عليه السلام: «سرعة المشي نكس»^(٣).

وعن الصادق عليه السلام أنه قال: «كثرة النوم مذهبة للدين والدنيا»،

(١) مكارم الأخلاق: ١٤١.

(٢) مكارم الأخلاق: ١٥٠ و ١٥١.

(٣) مكارم الأخلاق: ٢٥٧.

وقال ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «النوم من أول النهار خرق، ونوم القائلة نعمة، والنوم العصر حمق، وبين العشاءين يُحرم الرزق»^(١).
وعن النبي الأكرم ﷺ أنه قال لأبي ذر رضى الله عنه: «يا أبا ذر، إن الله عيبك عند لسان كل قائل، فليتنق الله امرؤ وليعلم ما يقول. يا أبا ذر، أترك فضول الكلام وحسبك من الكلام ما تبلغ به حاجتك. يا أبا ذر، كفى بالمرء كذباً أن يُحدث بكل ما يسمع. يا أبا ذر، ما من شيء أحق بطول السجن من اللسان»^(٢).

أصول الكفر:

وكما أن الإيمان هو موقف أخلاقي مع الله تعالى فكذلك الكفر فإنه يرجع إلى أصول وجذور أخلاقية سلبية.
جاء في الحديث الشريف عن الإمام الصادق ﷺ: «أصول الكفر ثلاثة: الحرص، والاستكبار، والحسد»، ثم يشرح الحديث أن كفر إبليس كان ناشئاً من الكبر، وهبوط آدم إلى الدنيا وعصيانه _ بالمعنى الذي يشير إليه القرآن الكريم _ كان أصله الحرص حينما قال له الشيطان: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ (طه: ١٢٠)، وكان طغيان قابيل وعدوانه على أخيه هو بسبب الحسد حينما قربا قرباناً ﴿فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ (المائدة: ٢٧)^(٣).

(١) مكارم الأخلاق: ٢٨٧.

(٢) مكارم الأخلاق: ٤٦٧.

(٣) عن أبي بصير، قال: قال أبو عبد الله ﷺ: «أصول الكفر ثلاثة: الحرص، والاستكبار، والحسد. فأما الحرص فإن آدم ﷺ حين نُهي عن الشجرة حمله الحرص على أن أكل منها، وأما الاستكبار فإبليس حيث أُمَرَ بالسجود لآدم فأبى، وأما الحسد فابن آدم حيث قتل أحدهما صاحبه». (الكافي ٢: ٢٨٩ / باب أصول الكفر وأركانها / ح ١).

٢٤ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

ملاحظة:

ومن الملاحظ في هذا الدعاء الشريف أن الإمام عليه السلام كرر الصلوات بين مقطع وآخر، الأمر الذي يجعلنا ننتبه إلى أن كل مقطع يتضمن مطالب غير ما يتضمنها الآخر.

* * *

المقطع الأول

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَبَلِّغْ بِيَايَني أَكْمَلَ
الإِيمَانِ، وَاجْعَلْ يَقِينِي أَفْضَلَ اليَقِينِ، وَأَنْتَه بِنَيْتِي إِلَى
أَحْسَنِ النِّيَّاتِ، وَبِعَمَلِي إِلَى أَحْسَنِ الأَعْمَالِ. اللَّهُمَّ وَفِّرْ
بِلُطْفِكَ نَيْتِي، وَصَحِّحْ بِمَا عِنْدَكَ يَقِينِي، وَاسْتَصْلِحْ
بِقُدْرَتِكَ مَا فَسَدَ مِنِّي».

الموجز:

ويتضمَّن هذا المقطع الطلب من الله تعالى منح الأصول الكبرى
لكلِّ مكارم الأخلاق، أو مكارم الأخلاق بصورة جمعية وإجمالية متمثلة
في أربعة أمور:

- ١ _ الإيمان الكامل.
 - ٢ _ واليقين الصحيح الفاضل.
 - ٣ _ والنية الحسنة.
 - ٤ _ والعمل الصالح الحسن.
- وهي أمور تجمع في داخلها كلِّ مكارم الأخلاق ومحاسنها.

أقسام الإيمان:

«وَبَلِّغْ بِيَايَني أَكْمَلَ الإِيمَانِ»:

الإيمان أقسام ومراتب، فهناك إيمان مستقرّ في القلب وهناك إيمان

٢٦ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

مستودع ومؤقت سرعان ما يزول، فعن الحميري رضي الله عنه، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام أنه قال: «إن الله تعالى قد هداكم ونور لكم، وقد كان أبو عبد الله عليه السلام يقول: إنما هو مستقرّ ومستودع، فالمستقرّ الإيمان الثابت، والمستودع المعار، تستطيع أن تهدي من أضلّ الله؟!»^(١).

مراتب الإيمان:

والإيمان له عشر مراتب كما جاء في الحديث الشريف، والمرتبة العاشرة هي أعظم تلك المراتب، وهي أن لا ترى أحداً إلا تقول: هو خير منّي وأتقى، فعن سليمان بن خالد، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يُعبَد الله تعالى بشيء أفضل من العقل، ولا يكون المؤمن عاقلاً حتّى يجتمع فيه عشر خصال: الخير منه مأمول، والشر منه مأمون، يستكثر قليل الخير ممّن غيره ويستقل كثير الخير من نفسه، ولا يسأم من طلب العلم طول عمره، ولا يتبرّم بطلاب الحوائج قبله، الذلُّ أحبُّ إليه من العزّ، والفقر أحبُّ إليه من الغنى، نصيبه من الدنيا القوت، والعاشرة وما العاشرة لا يرى أحداً إلا قال: هو خير منّي وأتقى، إنّما الناس رجلان: فرجل هو خير منه وأتقى، وآخر هو شرُّ منه وأدنى، فإذا رأى من هو خير منه وأتقى تواضع له ليلحق به، وإذا لقي الذي هو شرُّ منه وأدنى قال: عسى خير هذا باطن وشره ظاهر، وعسى أن يُختم له بخير، فإذا فعل ذلك فقد علا مجده، وساد أهل زمانه»^(٢).

عن الإمام الصادق عليه السلام: «يا عبد العزيز، إنّ الإيمان عشر

(١) قرب الإسناد: ٣٨٢ / ح ١٣٤٥.

(٢) الخصال: ٤٣٣ / ح ١٧.

المقطع الأوّل..... ٢٧

درجات بمنزلة السُّلَم يصعد منه مرقاة بعد المرقاة، فلا تقولنَّ صاحب الواحد لصاحب الاثنين: لست على شيء حتّى ينتهي إلى العاشرة، ولا تُسقط من هو دونك فيسقطك الذي هو فوقك، فإذا رأيت من هو أسفل منك فارفعه إليك برفق، ولا تحملنَّ عليه ما لا يطيق فتكسره، فإنّه من كسر مؤمناً فعليه جبره، وكان المقداد في الثامنة، وأبو ذر في التاسعة، وسلمان في العاشرة^(١)»^(٢).

(١) المقداد بن الأسود الكندي: من خلّص أصحاب رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليّاً، ثاني الأركان الأربعة، عظيم القدر، شريف المنزلة، جليل، وبالجملة جلاله قدره وعلوّ شأنه وقوّة إيمانه ووثاقته بين الخاصّة والعامة أشهر وأظهر من الشمس، والروايات في ذلك أكثر من أن يُحصى. (مستدركات علم رجال الحديث ٧: ٤٨٧ و٤٨٨ / الرقم ١٥١٥٧).

جندب بن جنادة، وقيل: جندب بن السكن: هو أبو ذر الغفاري، من أكابر الصحابة، جليل القدر، عظيم الشأن، أحد الأركان الأربعة من الذين تجب ولايتهم بعد النبيّ ﷺ ولم يرتدوا، وأمر الله بحبّهم، وهو من أصفياء أصحاب أمير المؤمنين عليّاً، مات بالربذة في زمن عثمان. (مستدركات علم رجال الحديث ٢: ٢٤٠ / الرقم ٢٩٣٧).

سلمان الفارسي بل المحمّدي: من عظام أصحاب رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين صلوات الله عليه، حاله في علوّ الشأن وجلالة القدر ووفور العلم والتقوى والزهد أشهر من الشمس وأبين من الأمس، وهو أوّل الأركان الأربعة، وعدّه الإمامان الصادق والرضا صلوات الله عليهما من المؤمنين الذين تجب ولايتهم والبراءة من أعدائهم ولم يُغيروا بعد نبيّهم، وهو من الحواريين، ومن السبعة الذين فوال رسول الله ﷺ، ومن الذين خلقت الأرض لهم، وبهم يُنصرون ويُمطرون، وشهدوا الصلاة على فاطمة الزهراء صلوات الله عليها، وذكر الكشيّ أزيد من ثلاثين رواية في مدحه وجلالته، وأنّه من المتوسّمين، وعلم اسم الأعظم، وما نشأ في الإسلام أفضقه منه، وبلغ أعلى درجات الإيمان، وعلم البلايا والمنايا والأنساب. (مستدركات علم رجال الحديث ٤: ١٠٤ / الرقم ٦٤١١).

(٢) الخصال: ٤٤٧ و٤٤٨ / ح ٤٨.

لمحتك من ديوان النبوة:

روي أن الله سبحانه أوحى إلى موسى عليه السلام: «إذا جئت للمناجاة فاصحب معك من تكون خيراً منه»، فجعل موسى لا يعترض أحداً إلا وهو لا يجسر أن يقول: إنني خير منه، فنزل عن الناس وشرع في أصناف الحيوانات حتى مرَّ بكلب أجرب فقال: أصحب هذا، فجعل في عنقه حبلاً، ثم جرَّ به، فلما كان في بعض الطريق شمَّر الكلب من الجبل وأرسله، فلما جاء إلى مناجاة الرب سبحانه قال: «يا موسى، أين ما أمرتك به؟»، قال: «يا رب، لم أجده»، فقال الله تعالى: «وعزتي وجلالي لو أتيتني بأحد لمحتك من ديوان النبوة»^(١).

حقيقة الإيمان:

القرآن الكريم يؤكد أن الإيمان هو رتبة أعلى من الإسلام، فقد يكون الإنسان مسلماً ولكنه ليس بمؤمن، قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات: ١٤).

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (النساء: ٦٥).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «الإيمان معرفة بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان»^(٢).

(١) عده الداعي: ٢٠٤.

(٢) نهج البلاغة: ٥٠٨ / ح ٢٢٧.

علامة الإيمان:

روى الكليني رحمته الله بسنده عن سليمان الجعفري، عن أبي الحسن الرضا، عن أبيه عليهما السلام، قال: «رفع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله قوم في بعض غزواته، فقال: من القوم؟ فقالوا: مؤمنون يا رسول الله، قال: وما بلغ من إيمانكم؟ قالوا: الصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضا بالقضاء، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: حلما علماء كادوا من الفقه أن يكونوا أنبياء، إن كنتم كما تصفون، فلا تبوا ما لا تسكنون، ولا تجمعوا ما لا تأكلون، واتقوا الله الذي إليه ترجعون»^(١).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «أفضل العدة الصبر عند الشدة»، وعنه عليه السلام أنه قال: «كن حلو الصبر عند مرّ الأمر»^(٢).
وعن عبيد الله بن الوليد، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «ثلاث لا يضُرُّ معهنَّ شيء: الدعاء عند الكرب، والاستغفار عند الذنب، والشكر عند النعمة»^(٣).

يا بار يا واصل:

وفي الحديث: أن موسى قال: أرني أحبَّ خلقك إليك وأكثرهم لك عبادةً، فأمره الله تعالى أن ينتهي إلى قرية على ساحل البحر، وأخبره أنه ليجده في مكان، فوقع على رجل مجذوم مقعد أبرص يُسبِّح الله تعالى، فقال موسى: يا جبرائيل، أين الرجل الذي سألت ربي أن يريني إياه؟ فقال جبرئيل: هو يا كليم الله هذا، فقال: يا جبرئيل، إني كنت أحبُّ أن

(١) الكافي ٢: ٤٨ / باب خصال المؤمن / ح ٤.

(٢) عيون الحكم والمواعظ: ١١٢ و ٣٩٣.

(٣) الكافي ٢: ٩٥ / باب الشكر / ح ٧.

٣٠ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

أراه صَوَّاماً قَوَّاماً، فقال جبرئيل: هذا أحبُّ إلى الله تعالى وأعبد له من الصوَّام والقوَّام، وقد أمرت بإذهاب كريمتيه، فاسمع ما يقول، فأشار جبرئيل إلى عينيه فسالتا على خدييه، فقال: متَّعتني بهما حيث شئت، وسلبتني إيَّهما حيث شئت، وأبقيت لي فيك طول الأمل، يا بارِّ يا وصول. فقال له موسى: يا عبد الله، إنِّي رجل مجاب الدعوة، فإن أحببت أن أدعوك تعالى يرد عليك ما ذهب من جوارحك ويُبريك من العلة ففعلت، فقال: لا أريد شيئاً من ذلك، اختياره لي أحبُّ إليَّ من اختياري لنفسِي. فقال له موسى: سمعتك تقول: يا بارِّ يا وصول، ما هذا البرِّ والصلة الواصلان إليك من ربِّك؟ فقال: ما أحد في هذا البلد يعرفه غيري _ أو قال: يعبدُه _، فراح متعجباً وقال: هذا أعبد أهل الدنيا^(١).

وهناك حديث عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَام ينقله الإمام الخميني رَحِمَهُ اللهُ في كتابه (أربعون حديثاً) يقول فيه: «إنَّ الرجل يشرب الشربة من الماء فيُدخله اللهُ سَجِّكَ بها الجنة»، قلت: وكيف ذلك يا ابن رسول الله؟ قال: «إنَّ الرجل يشرب الماء فيقطعه ثمَّ ينحي الإناء وهو يشتهيهِ فيحمد اللهُ سَجِّكَ ثمَّ يعود فيه ويشرب، ثمَّ ينحيه وهو يشتهيهِ فيحمد اللهُ سَجِّكَ، ثمَّ يعود فيشرب، فيوجب اللهُ سَجِّكَ له بذلك الجنة»^(٢).

لا بدَّ من الجدِّ والاجتهاد:

إنَّ علينا أن لا نكتفي بمحض الإيمان، بل لا بدَّ أن نجد ونجتهد قبل فوات الفرص وانقضاء العمر، ونتقدَّم بإيماننا خطوة خطوة. نقرأ في أدعية الأيام: «بِكَ أَسْتَجِيرُ يَا ذَا الْعَفْوِ وَالرِّضْوَانِ مِنْ

(١) مستدرک سفینه البحار ٤: ١٥١.

(٢) الأربعون حديثاً: ٣٢٣؛ الكافي ٦: ٣٨٤/ باب القول على شرب الماء/ ح ١.

المقطع الأول..... ٣١

الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَمَنْ غَيَّرَ الزَّمَانَ، وَتَوَاتَرُ الْأَحْزَانِ، وَطَوَارِقِ الْحَدَثَانِ،
وَمَنْ انْقِضَاءِ الْمُدَّةِ قَبْلَ التَّأَهُبِ وَالْعُدَّةِ»^(١).

إن مراتب الجنة يوم القيامة هي على مراتب الإيمان، ﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ
دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ٢١)، ومشكلة أكثر الناس _ ونحن منهم _
أننا لا نُفَكِّرُ بتكامل إيماننا والبلوغ إلى الدرجات العليا، بل لا نُفَكِّرُ بدرجات
الآخرة ولا نهتمُّ بها كثيراً، بل قد شغلتنا هموم الدنيا وزخارفها.

الإيمان منحة إلهية:

ورغم أن علينا السعي والاجتهاد إلا أن الحقيقة التي يجب أن
نعرفها هي أن الإيمان منحة إلهية، وعطيّة ربّانية، فيجب أن نسأل الله
تعالى أن يتفضل بها علينا كما هو الشأن بالنسبة للعافية والرزق وغيرهما،
فإنّها جميعاً من صنع الله تعالى.

يقول تعالى: ﴿اللَّهُ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ
وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ (الحجرات: ٧).

ويقول تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا
أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ (الأعراف: ٤٣).

«وَاجْعَلْ يَاقِينِي أَفْضَلَ الْيَقِينِ»:

اليقين هو مرتبة عالية من مراتب الإيمان، وقد جاء في بعض
الروايات الشريفة: أن أقل ما قُسم بين العباد اليقين^(٢).

(١) الصحيفة السجّادية: ٥٤١ / دعاؤه ﷺ في يوم الأحد.

(٢) عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، عن الرضا ﷺ، قال: «الإيمان فوق الإسلام بدرجة،
والتقوى فوق الإيمان بدرجة، واليقين فوق التقوى بدرجة، ولم يُقسّم بين العباد شيء
أقل من اليقين». (الكافي ٢: ٥٢ / باب فضل الإيمان على الإسلام... / ح ٦).

٣٢ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

وقد جاء في الدعاء: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ إِيمَانًا تَبَاشَرُ بِهِ قَلْبِي، وَبِقِينًا حَتَّى أَعْلَمَ أَنَّهُ لَنْ يُصِيبَنِي إِلَّا مَا كَتَبْتَ لِي، وَرَضْنِي مِنَ الْعَيْشِ بِمَا قَسَمْتَ لِي، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ»^(١).

كما جاء في تعقيبات الصلاة: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ النُّورَ فِي بَصَرِي، وَالْبَصِيرَةَ فِي دِينِي، وَالْيَقِينَ فِي قَلْبِي، وَالْإِخْلَاصَ فِي عَمَلِي»^(٢).

اليقين له مراتب:

كلُّ الناس لديهم يقين بالموت، وانقضاء العمر، وزوال الشباب، ومضي الليالي والأيام، ولكن قليلاً منهم الذي يعمل حسب مقتضى هذا اليقين، فهم غافلون رغم أنهم موقنون!

ولذا فقد جاء في الحديث عن علي بن أسباط، قال: سمعت أبا الحسن الرضا عليه السلام يقول: «كان في الكنز الذي قال الله عز وجل: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢]، كان فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن أيقن بالقدر كيف يحزن، وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلّبها بأهلها كيف يركن إليها...»^(٣).

إننا نسأل الله تعالى أن يجعل يقيننا أفضل اليقين، يقيناً مصحوباً بالعمل، يقيناً نعالج به أمراض قلوبنا، يقيناً تهون به علينا مصيبات الدنيا، يقيناً لا نطلب العزّة والغنى والنجاح والنجاة إلا من الله تعالى.

(١) الصحيفة السجّادية: ٢٣٤ / دعاؤه عليه السلام في سحر كلّ ليلة من شهر رمضان.

(٢) مصباح التهجد: ١٠٥ / ح (١٤٦/١٧٣).

(٣) الكافي ٢: ٥٩ / باب فضل اليقين / ح ٩.

إنَّ أكثر معاصينا ناشئة من عدم يقيننا بالله واليوم الآخر والثواب والعقاب، رغم أننا نزعم أننا مؤمنون!
اليقين هو الذي يجعلنا نضطرب من خشية الله، «فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَد رَأَاهَا فَهُمْ فِيهَا مُنْعَمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَد رَأَاهَا فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ...» كما جاء في وصف الإمام علي عليه السلام للمتقين^(١).

يقين الإمام علي عليه السلام:

عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «كان قنبر غلام علي يُحِبُّ عَلِيًّا عليه السلام حبًّا شديدًا، فإذا خرج علي صلوات الله عليه خرج على أثره بالسيف، فرآه ذات ليلة فقال: يا قنبر، ما لك؟ فقال: جئت لأمشي خلفك يا أمير المؤمنين، قال: ويحك أمن أهل السماء تحرسني أو من أهل الأرض؟! فقال: لا، بل من أهل الأرض، فقال: إنَّ أهل الأرض لا يستطيعون لي شيئاً إلا بإذن الله من السماء فارجع، فرجع»^(٢).

يقول الإمام علي عليه السلام: «لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً»^(٣)، نعم هذا اليقين هو الذي يجعلنا لا نخاف أحداً إلا الله، ولا نطلب إلا رضى الله، ولا نثق بسوى الله، «خَابَ مَنْ كَانَ جَارُهُ سِوَاكَ، وَمُعِيثُهُ سِوَاكَ، وَمَفْزَعُهُ إِلَى سِوَاكَ، وَمَهْرَبُهُ إِلَى سِوَاكَ، وَمَلْجَأُهُ إِلَى غَيْرِكَ، وَمَنْجَاهُ مِنْ مَخْلُوقٍ غَيْرِكَ»^(٤).

عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «ليس شيء إلا وله

(١) نهج البلاغة: ٣٠٣ / الخطبة ١٩٣.

(٢) الكافي ٢: ٥٩ / باب فضل اليقين / ح ١٠.

(٣) عيون الحكم والمواعظ: ٤١٥.

(٤) مصباح المتهجد: ٧٧٩ / ح (٧ / ١٥٢)، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام.

٣٤ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

حدُّ، قال: قلت: جُعِلت فداك، فما حدُّ التوكُّل؟ قال: «اليقين»، قلت: فما حدُّ اليقين؟ قال: «ألا تخاف مع الله شيئاً»^(١).

بطولات أمير المؤمنين عليه السلام:

وبطولات أمير المؤمنين عليه السلام خير شاهد على يقينه بالله تعالى، ففي واقعة خيبر دفع رسول الله ﷺ الراية إلى رجل من أصحابه فرجع منهزماً، فدفعها إلى آخر فرجع يُجِبُّ أصحابه ويُجِنُّونه، قد ردَّ الراية منهزماً، فقال رسول الله ﷺ: «لأُعطينَ الرايةَ غداً رجلاً يُحِبُّ اللهَ ورسولَهُ ويُحِبُّهُ اللهُ ورسولُهُ، لا يرجع حتَّى يفتح اللهُ على يديه»، فلمَّا أصبح قال: «أدعوا لي علياً»، فقيل له: يا رسول الله، هو أرمد. فقال: «أدعوه»، فلمَّا جاء تفل رسول الله ﷺ في عينيه وقال: «اللهم ادفع عنه الحرَّ والبرد»، ثمَّ دفع الراية إليه ومضى، فما رجع إلى رسول الله ﷺ إلا بفتح خيبر^(٢).

وفي واقعة الخندق حيث نادى عمرو بن عبد ودّ: هل من مبارز؟ فقال علي: «أنا»، فقال له النبي ﷺ: «إنَّه عمرو»، فسكت، ونادى عمرو: هل من مبارز؟ فقال علي: «أنا له يا رسول الله»، فقال: «إنَّه عمرو»، فسكت، ونادى عمرو ثالثاً، فقال علي: «أنا له يا رسول الله»، فقال: «إنَّه عمرو»، وكلُّ ذلك يقوم علي فيأمره النبي ﷺ بالثبات انتظاراً لحركة غيره من المسلمين وكأنَّ على رؤوسهم الطير لخوفهم من عمرو. وطال نداء عمرو وهو يطلب المبارزة وتتابع قيام أمير المؤمنين عليه السلام، فلمَّا

(١) الكافي ٢: ٥٧ / باب فضل اليقين / ح ١.

(٢) راجع: أمالي الصدوق: ٦٠٣ و ٦٠٤ / ح (١٠ / ٨٣٩).

المقطع الأوّل..... ٣٥

لم يقدم أحد من الصحابة قال النبي ﷺ لعلي: «أذن منّي يا علي»، فدنا منه، فنزع عمامته عن رأسه وعممه بها وأعطاه سيفه وقال: «امض لشأنك»، ودعا له ثم قال: «برز الإيمان كلّه إلى الشرك كلّه»^(١).

عبادة الإمام علي عليه السلام:

وكذلك عبادته عليه السلام وتهجده مما يدل على يقينه بالله سبحانه وتعالى، فعن أبي الدرداء أنه قال: شهدت علي بن أبي طالب عليه السلام بشويحطات النجّار، وقد اعتزل عن مواليه، واختفى ممن يليه، واستتر بمغيلات النخل، فافتقدته وبعد علي مكانه، فقلت: لحق بمنزله، فإذا أنا بصوت حزين ونعمة شجي وهو يقول: «إلهي، كم من موبقة حملت عني فقابلتها بنعمتك، وكم من جريرة تكرّمت عن كشفها بكرمك، إلهي إن طال في عصيانك عمري، وعظم في الصحف ذنبي، فما أنا مؤمل غير غفرانك، ولا أنا براج غير رضوانك»، فشغلني الصوت واقتفيت الأثر، فإذا هو علي بن أبي طالب عليه السلام بعينه، فاستترت له، وأخملت الحركة، فركع ركعات في جوف الليل الغابر، ثم فزع إلى الدعاء والبكاء والبثّ والشكوى، فكان مما ناجى به الله أن قال: «إلهي، أفكّر في عفوك، فتهون عليّ خطيئتي، ثم أذكر العظيم من أخذك فتعظم عليّ بليّتي»، ثم قال: «آه إن أنا قرأت في الصحف سيئة أنا ناسيها وأنت محصيها، فتقول: خذوه، فيا له من مأخوذ لا تنجيه عشيرته، ولا تنفعه قبيلته، يرحمه الملا إذا أذن فيه بالنداء»، ثم قال: «آه من نار تنضج الأكباد والكلى، آه من نار نزاعة للشوى، آه من غمرة من ملهبات لظى»، قال: ثم أنعم في البكاء، فلم

(١) راجع: إرشاد القلوب ٢: ٢٤٣ و ٢٤٤.

٣٦ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

أسمع له حساً ولا حركةً، فقلت: غلب عليه النوم لطول السهر، أوقظه لصلاة الفجر. قال أبو الدرداء: فأتيته فإذا هو كالخشب الملقاة، فحرّكته فلم يتحرّك، وزويته فلم ينزو، فقلت: إنّ الله وإنّا إليه راجعون، مات والله علي ابن أبي طالب، قال: فأتيت منزله مبادراً أنعاه إليهم، فقالت فاطمة عليها السلام: «يا أبا الدرداء، ما كان من شأنه ومن قصّته؟ فأخبرتها الخبر، فقالت: «هي والله _ يا أبا الدرداء _ الغشية التي تأخذه من خشية الله»^(١).

«وَأَنْتَ بِنَيْتِي إِلَى أَحْسَنِ النَّيَاتِ»:

عن السكوني، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قال رسول الله ﷺ: «نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ، وَنِيَّةُ الْكَافِرِ شَرٌّ مِنْ عَمَلِهِ، وَكُلُّ عَامِلٍ يَعْمَلُ عَلَى نِيَّتِهِ»^(٢).

وعن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ الْفَقِيرَ لِيَقُولَ: يَا رَبِّ ارزُقْنِي حَتَّى أَفْعَلَ كَذَا وَكَذَا مِنَ الْبِرِّ وَوَجَّهَهُ الْخَيْرَ، فَإِذَا عَلِمَ اللَّهُ ﻋَﻠَﻤَ ذَلِكَ مِنْهُ بِصِدْقِ نِيَّةٍ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلَ مَا يَكْتُبُ لَهُ لَوْ عَمِلَهُ، إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ كَرِيمٌ»^(٣).

الخلود بالنية:

عن أبي هاشم، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «إِنَّمَا خُلِدَ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ لِأَنَّ نِيَّاتِهِمْ كَانَتْ فِي الدُّنْيَا أَنْ لَوْ خُلِدُوا فِيهَا أَنْ يَعْصُوا اللَّهَ أَبَدًا، وَإِنَّمَا خُلِدَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ لِأَنَّ نِيَّاتِهِمْ كَانَتْ فِي الدُّنْيَا أَنْ لَوْ بَقُوا فِيهَا أَنْ

(١) راجع: أمالي الصدوق: ١٣٧ و ١٣٨ / ح (٩/١٣٦).

(٢) الكافي ٢: ٨٤ / باب النية / ح ٢.

(٣) الكافي ٢: ٨٥ / باب النية / ح ٣.

المقطع الأوّل..... ٣٧

يطيعوا الله أبداً، فبالنِّيَّاتِ خُلِدَ هُوَ لَاءٌ وَهُوَ لَاءٌ»، ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤]، قَالَ: «عَلَى نِيَّتِهِ»^(١).
إِذَا كَمَلَ الْإِيمَانَ تَحَقَّقَ الْيَقِينُ، وَإِذَا تَحَقَّقَ الْيَقِينُ حَسُنَتِ النِّيَّةُ، وَإِذَا حَسُنَتِ النِّيَّةُ صَلَحَ الْعَمَلُ.

هذه أربعة أمور مترابطة: الإيمان، اليقين، النية، العمل، وهي الأصل والأساس لكل التفاصيل والفروع التي سيذكرها الدعاء، ولهذا يمكن القول: إنَّ هذه المقاطع الأربعة في بداية الدعاء قد جمعت الدعاء كله.

مراقبة النية:

لأنَّ «الأعمال بالنِّيَّاتِ»^(٢)، ولأنَّ «النِّيَّةُ هي العمل»^(٣) كما جاء في الأحاديث الشريفة، لذا كان لا بدَّ من مراقبة النية في كل أعمالنا، على أنَّ حيل الشيطان ومكائده وخدعه كثيرة، والنفس الأمارة بالسوء لا تكاد تسمح للعبد أن تصفو نيته وتطهر، فلا بدَّ من الحذر الشديد من تلك المكائد والحيل، فربَّما كان مظهر العمل جيِّداً ولكن باطنه ملوَّث، وقد تكون بداية العمل بنية حسنة ولكن سرعان ما يُخدَع الإنسان فتتغيَّر النية من حيث لا يشعر.

(١) الكافي ٢: ٨٥ / باب النِّيَّة / ح ٥.

(٢) راجع: تهذيب الأحكام ١: ٨٣ / ح (٢١٨/٦٧).

(٣) عن سفيان بن عيينة، عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، قال: «ليس يعني أكثر عملاً، ولكن أصوبكم عملاً، وإنما الإصابة خشية الله والنية الصادقة والحسنة»، ثم قال: «الإبقاء على العمل حتَّى يخلص أشدُّ من العمل، والعمل الخالص الذي لا تريد أن يحمذك عليه أحد إلا الله تعالى، والنية أفضل من العمل، ألا وإنَّ النية هي العمل»، ثم تلا قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤] يعني على نيته». (الكافي ٢: ١٦ / باب الإخلاص / ح ٤).

٣٨ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

لماذا نُصلي، ولماذا نصوم، ولماذا نحجّ، ولماذا نجاهد، ولماذا نزور؟
قد نقول: إنّ ذلك لله تعالى، ولكن هل راقبنا عمق نيّاتنا لنكتشف
الحقيقة؟ إنّ كثيراً من أعمالنا ليست لله وإنّما هي لأنفسنا ودياننا،
والعرفاء يشكّون حتّى في نيّة الثواب والخوف من العقاب، حيث يرون
ذلك ليس لله وإنّما لمصلحة النفس!

النيّة الخالصة هي ما كانت لله ابتداءً وانتهاءً، ابتداءً: ﴿وَيُطْعَمُونَ
الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾، وانتهاءً: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ
جَزَاءً وَلَا شُكُوراً﴾ (الإنسان: ٨ و ٩).

ولذا جاء في مناجاة الإمام زين العابدين عليه السلام: «أَسْتَغْفِرُكَ لِكُلِّ
خَيْرٍ أَرَدْتُ بِهِ وَجْهَكَ فَخَالَطَنِي فِيهِ مَا لَيْسَ لَكَ»^(١).

يُنْقَلُ عن العلامة نجم الدين العسكري عليه السلام مؤلّف كتاب (علي
والشيعة) وكتب أخرى قيّمة أنّه كان ربّما ألف كتاباً حتّى إذا بلغ آخره
تركه، فيُسأل عن ذلك فيقول: شككت في صحّة نيّتي.

ويُنْقَلُ عن الشهيد الصدر أنّه كان يقول _ حينما اشتهر كتاب
(فلسفتنا) وأصبح له سمعة وشأن _ : كانت تأخذني حالة البكاء حيث
أتساءل: هل كنت مستعدّاً أن أكتب هذا الكتاب باسم جماعة العلماء لو
كنت أعلم ما سيكون له من شأن؟

في معركة الخندق:

حينما برز الإمام علي عليه السلام إلى عمرو بن عبد ودّ في معركة الخندق
(الأحزاب) وأسقطه صريعاً على الأرض وجاء ليحتزّ رأسه ويقضي عليه بصق

(١) مصباح المتهدّد: ٥٩٨ / ح (٦٨/٦٩٢).

المقطع الأوّل..... ٣٩

عمرو بن عبد ودّ في وجه الإمام عليّ عليه السلام، فتركه الإمام عليّ عليه السلام وانصرف عنه، وهكذا مرّتين، وفي الثالثة قطع رأسه، فلما سألوه عن سبب إعراضه في المرّة الأولى والثانية قال: «إنّه بصق في وجهي، فخفت أن يكون قتلي له إغاضة منّي، وما كنت أقتل إلا خالصاً لوجه الله تعالى»^(١).

«وَبِعَمَلِي إِلَى أَحْسَنِ الْأَعْمَالِ»:

حسن العمل ليس بكثيرته، ولا بشكله ومظهره، ولا بعنوانه واسمه، بل حسن العمل بأن يكون لله، وفي مرضاة الله، وطاعة لأمر الله تعالى، ثم لا يهّم بعد ذلك أن يكون صغيراً أو كبيراً، له عنوان مهمّ أو ليس له عنوان مهمّ، كثيراً أو قليلاً.

جاء في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ: «دخل عبدُ الجنّة بغصنٍ من شوك كان في طريق المسلمين فأماطه عنه»^(٢).

وفي حديث آخر عن جابر قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: إنّي رجل شاب نشيط وأحبُّ الجهاد، ولي والدة تكره ذلك، فقال له النبيّ ﷺ: «ارجع فكن مع والدتك، فوالذي بعثني بالحقّ [نبيّاً] لأنسها بك ليلة خير من جهادك في سبيل الله سنة»^(٣).

أخفى أربعة في أربعة:

وقد جاء في الحديث الشريف عن محمّد بن مسلم، عن أبي جعفر محمّد

(١) شرح إحقاق الحقّ ١٨: ١٤٧، عن التحفة المرضية: ١٣٠ / ط القاهرة؛ مستدرک نهج البلاغة: ١٧٦ بتفاوت؛ موسوعة الإمام علي بن أبي طالب ٩: ١٥٤ و ١٥٥، عن الفخري: ٤٤؛ وليس في شيء منها أن المقتول هو عمرو بن عبد ودّ.

(٢) الخصال: ٣٢ / ح ١١١.

(٣) الكافي ٢: ١٦٣ / باب البرّ بالوالدين / ح ٢٠.

٤٠ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

بن علي الباقر، عن أبيه علي بن الحسين، عن أبيه الحسين بن علي، عن أبيه أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «إنَّ الله تبارك وتعالى أخفى أربعة في أربعة: أخفى رضاه في طاعته، فلا تستصغرن شيئاً من طاعته، فربِّها وافق رضاه وأنت لا تعلم. وأخفى سخطه في معصيته، فلا تستصغرن شيئاً من معصيته، فربِّها وافق سخطه معصيته وأنت لا تعلم. وأخفى إجابته في دعوته، فلا تستصغرن شيئاً من دعائه، فربِّها وافق إجابته وأنت لا تعلم. وأخفى وليه في عبادته، فلا تستصغرن عبداً من عبيد الله، فربِّها يكون وليه وأنت لا تعلم»^(١).

المسألة هي مسألة ما هو التكليف الذي وضعه الله تعالى علينا، والمسألة مسألة مدى الإخلاص في ذلك العمل لله تعالى، حتَّى إذا كان قليلاً أو صغيراً أو غير ذي شأن.

تصدق علي عليه السلام بالخاتم:

لم يكن الخاتم الذي تصدَّق به الإمام علي عليه السلام على السائل _ حينما دخل المسجد وكان الإمام يُصلي _ خاتماً مهماً من حيث قيمته ونوعه، لكن الله تعالى أنزل في ذلك قرآناً فقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (المائدة: ٥٥)^(٢)، لماذا؟ لأن المقياس هو نوعية العمل ونيتته،

(١) الخصال: ٢٠٩ و ٢١٠ / ح ٣١.

(٢) قد ذكر المفسرون من الخاصَّة والعامة أنَّ هذه الآية نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام، راجع: تفسير العياشي ١: ٣٢٧ و ٣٢٨ / ح ١٣٧ - ١٣٩؛ تفسير القمي ١: ١٧٠؛ تفسير فرات الكوفي: ١٢٣ - ١٢٩ / ح (٣ / ١٣٤) - (٨ / ١٤٧)؛ تفسير الطبري ٦: ٣٨٩؛ تفسير ابن أبي حاتم: ٤ / ١١٦٢ / ح ٦٥٤٩؛ تفسير الثعلبي ٤: ٨٠؛ تفسير الرازي ١٢: ٢٠؛ وغيرها من المصادر.

المقطع الأوّل..... ٤١

ولذا فقد تصدّق بعده عمر بن الخطّاب بأربعين خاتماً بغيّة أن تنزل فيه آية واحدة فما نزلت^(١).

نفع الإخوان:

جاء في الحديث عن الإمام العسكري عليه السلام: «خصلتان ليس فوقهما شيء: الإيمان بالله، ونفع الإخوان»^(٢).
«اللَّهُمَّ وَفِّرْ بِلُطْفِكَ نَيْتِي»:

الوفرة بمعنى الكثرة في الوجود، واليسر في تناول، فالرزق الوفور بمعنى الرزق الكثير الذي يسهل الوصول إليه وتناوله.
والمعنى في قوله: «اللَّهُمَّ وَفِّرْ بِلُطْفِكَ نَيْتِي»: اجعل نيتي الصالحة موفورة ميسورة لديّ، وهذا أمر يحتاج إلى لطف إلهي، لأنّ بعض الناس بسبب تراكم أيدي الشياطين على قلوبهم وكثرة تلاعبهم في نياتهم لا تتوفّر لهم النيّة الحسنة الصالحة بسهولة، فهم لا يجدون إليها سبيلاً مهما حاولوا واجتهدوا.

«وَصَحِّحْ بِمَا عِنْدَكَ يَقِينِي»:

المطلوب أن يكون لدينا يقين صحيح، يقين بالله ورسوله والدار الآخرة، في مقابل اليقين بالأوهام والأموال الباطلة التي يُزيّنّها الشيطان للإنسان حتّى يصل أحياناً إلى درجة (الأمن من مكر الله تعالى) بحجّة حسن الظنّ بالله.
«وَاسْتَصْلِحْ بِقُدْرَتِكَ مَا فَسَدَ مِنِّي»:

الاستصلاح غير الإصلاح، حيث إنّ الإصلاح بمعنى جعل

(١) أمالي الصدوق: ١٨٦ / ذيل الحديث (٤ / ١٩٣).

(٢) تحف العقول: ٤٨٩.

٤٢ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

الشيء الفاسد صالحاً بتعديله وإزالة الفساد عنه كالمرريض يصير معافاً،
أمّا الاستصلاح الوارد في العبارة هنا فربّما كان المقصود منه _ كما يناسب
اشتقاق الكلمة _ اعتبار الأعمال الفاسدة سالحة وقبولها على هذا
الأساس من اللطف والتسامح رغم أنّها في ذاتها فاسدة، وهو كما تقول:
(استحسن الشيء) بمعنى: رآه حَسَنًا بقطع النظر عمّا هو الواقع.
وربّما كان المقصود هو (إصلاح الشيء الفاسد)، وكلمة
(استصلح) بمعنى: اعمل على أن تجعل ما فسد منّي صالحاً، وهذا أمر
يقبله اشتقاق الكلمة أيضاً.

* * *

المقطع الثاني

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاكْفِنِي مَا
يَشْغَلُنِي الْإِهْتِمَامُ بِهِ، وَاسْتَعْمَلْنِي بِمَا تَسْأَلُنِي غَدًا عَنْهُ،
وَاسْتَفْرِغْ أَيَّامِي فِيهَا خَلَقْتَنِي لَهُ. وَأَغْنِنِي وَأَوْسِعْ عَلَيَّ
فِي رِزْقِكَ، وَلَا تَفْتِنِّي بِالنَّظَرِ، وَأَعِزَّنِي وَلَا تَبْتَلِيَنِّي
بِالْكِبَرِ، وَعَبِّدْنِي لَكَ وَلَا تُفْسِدْ عِبَادَتِي بِالْعُجْبِ، وَأَجِرْ
لِلنَّاسِ عَلَى يَدَيِ الْخَيْرِ وَلَا تَمَحِّقْهُ بِالْمَنِّ، وَهَبْ لِي مَعَآلِيَ
الْأَخْلَاقِ، وَأَعْصِمْنِي مِنَ الْفَخْرِ».

الموجز:

ويتضمَّن هذا المقطع الإشارة إلى أنَّ هدفنا من مكارم الأخلاق هو الإعداد والاستعداد للدار الآخرة، وأنَّ كلَّ ما سنسأله في هذا الدعاء إنَّها هو مقدِّمة لتحقيق النجاح في تلك الدار، وهذا الإعداد والاستعداد يحتاج إلى معونة من الله تعالى أن يكفيننا الأمور التي تشغلنا عن تلك الاهتمامات، وأن يعيننا على صرف العمر والقدرات فيما خلقنا من أجله، وفيما سوف يسألنا عنه.

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاكْفِنِي مَا يَشْغَلُنِي الْإِهْتِمَامُ بِهِ»:

اهتمامات الدنيا الحقَّة منها والباطلة قد تتراكم على المؤمن فتشغله عن الاستعداد للآخرة، والتزوُّد من العمل الصالح، والله تعالى وحده

٤٤ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

هو القادر على أن يكفيننا تلك الهموم والاهتمامات، «يَا مَنْ يَكْفِي مَنْ كُلُّ شَيْءٍ وَلَا يَكْفِي مِنْهُ شَيْءٌ أَكْفِينِي مَا أَهَمَّنِي»^(١).

الهم الأكبر لنا والاهتمامات الأعظم لنا يجب أن تكون هي الدار الآخرة. الخلاص من أهوالها والنجاة من عذابها، والفوز بثوابها والتنعم بجنّتها، ولذا جاء في الدعاء: «وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا»^(٢)، فإن كثيراً من الناس منتهى علمهم واهتمامهم ومعرفتهم وسعيهم هو الدنيا حتى لا يُفكروا بشيء وراءها، لذا جاء في مناجاة الإمام زين العابدين عليه السلام: «وَأَسْتَغْفِرُكَ مِنْ كُلِّ لَذَّةٍ بَغَيْرِ ذِكْرِكَ، وَمِنْ كُلِّ رَاحَةٍ بَغَيْرِ أَنْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ سُرُورٍ بَغَيْرِ قُرْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ شُغْلٍ بَغَيْرِ طَاعَتِكَ»^(٣).

«وَأَسْتَغْفِرُكَ بِمَا تَسْأَلُنِي بِهَا غَدًا عَنْهُ»:

جاء في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ لَمْ تَزَلْ قَدَمَا عَبْدٍ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عَمَلِهِ فِي يَوْمِ أَمْنِهِ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِي يَوْمِ أَبْلَاهِ، وَعَمَّا كَتَبَهُ مِنْ أَيْنَ كَتَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ حُبِّ أَهْلِ الْبَيْتِ»^(٤).

إنّ هناك سؤالاً وحساباً يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ (الصافات: ٢٤)، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَنُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر: ٨)، وحينما نأخذ العبارة على إطلاقها فإنّها تعني أنّ

(١) الكافي ٢: ٥٦٠ / باب الدعاء للكرب والهم والحزن والخوف / ح ١٤، عن أبي جعفر الجواد عليه السلام.

(٢) إقبال الأعمال ٣: ٣٢١، عن رسول الله ﷺ.

(٣) الصحيفة السجّادية: ٤١٩ / في مناجاة الذاكرين.

(٤) تحف العقول: ٥٦.

المقطع الثاني ٤٥

الإنسان يوم القيامة سوف يُسأل عن كلِّ نعمة منحها الله إياه كيف استعملها واستفاد منها؟

وهناك تتحدّث الأيدي والأرجل عمّا تصرّف بها الإنسان، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (يس: ٦٥)، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (فصلت: ٢١).

نعمة الولاية:

وإذا مضينا مع الروايات الشريفة في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾، فإنّها تذكر أنّ النعمة التي يُسأل عنها الإنسان يوم القيامة هي نعمة الولاية، وأهل البيت عليهم السلام باعتبارها أعظم نعمة أنعم الله بها على الإنسان^(١).

عن أبي حمزة، قال: كنّا عند أبي عبد الله عليه السلام جماعة، فدعا بطعام مالنا عهد بمثله لذاذة وطيباً، وأوتينا بتمر ننظر فيه إلى وجوهنا من صفائه وحسنه، فقال رجل: لتُسألنّ عن هذا النعيم الذي نعمتم به عند ابن رسول الله ﷺ؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَكْرَمُ وَأَجَلُّ مَنْ أَنْ يُطْعِمَكُمْ طَعَاماً فَيَسْأَلُكُمْ عَنْهُ، وَلَكِنْ يَسْأَلُكُمْ عَمَّا أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ»^(٢).

(١) عن جميل، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: قلت: قول الله: ﴿لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾؟ قال: قال: «تُسأل هذه الأمة عمّا أنعم الله عليهم برسول الله ﷺ ثم بأهل بيته المعصومين عليهم السلام». (تفسير القمي ٢: ٤٤٠).

(٢) الكافي ٦: ٢٨٠ / باب آخر في التقدير وأنّ الطعام لا حساب له / ح ٣.

٤٦ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

وعن أبي حفص الصائغ، عن الإمام جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال: «**ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ**» والله ما هو الطعام والشراب، ولكن ولايتنا أهل البيت^(١).

وفي روايات أهل السنة هو التمر والماء البارد^(٢).

العبادة شغل:

عن سلام بن المستنير، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: قال رسول الله ﷺ: «كفى بالموت موعظة، وكفى باليقين غنى، وكفى بالعبادة شغلاً»^(٣).
«**وَاسْتَفْرَغْ أَيَّامِي فِيَمَا خَلَقْتَنِي لَهُ**»:

بمعنى اجعل أيامي وعمري مفرغة نحو الهدف الذي خلقتني من أجله. ما هو الهدف؟ يقول الله تعالى: «**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**» (الذاريات: ٥٦).

ولكن المقصود بالعبادة في الإسلام ليس هي مجرد الصلاة والصيام، وإنما العمل الذي يرضي الله تعالى في كل المجالات، ومنها الأسرة، والأولاد، والأقرباء، والإخوان المؤمنين، وخدمة العباد، وغير ذلك، فقد يكون الكسب عبادة أيضاً، فعن الحلبي، عن أبي عبد الله عليه السلام: «الكاد على عياله كالمجاهد في سبيل الله»^(٤).

وقد يكون الأُنس مع الأهل والأولاد عبادة أيضاً.

(١) تأويل الآيات الظاهرة ٢: ٨٥٠ / ح ٢.

(٢) قد اختلفوا في تفسير هذه الآية، فقال بعضهم: المراد التمر والماء، وقال الآخر: المراد الأُنس والصحة، وقال ثالث: المراد صحة الأبدان والأسباع، وقال رابع: المراد السمع والبصر وصحة البدن، إلى آخره من الأقوال، (راجع: تفسير الطبري ٣٠: ٣٦٤ - ٣٧٠).

(٣) الكافي ٢: ٨٥ / باب بدون عنوان / ح ١.

(٤) الكافي ٥: ٨٨ / باب من كد على عياله / ح ١.

التطرف مرفوض:

وقد جاء في الأحاديث أن ثلاثة نفر على عهد رسول الله ﷺ اتفقوا، فقال أحدهم: أمّا أنا فأقوم الليل لأنام، وقال أحدهم: أمّا أنا فأصوم النهار فلا أفطر، وقال الآخر: أمّا أنا فلا آتي النساء. فبعث رسول الله ﷺ إليهم، فقال: «ألم أنبأ أنكم اتفقتم على كذا؟»، قالوا: بلى يا رسول الله، وما أردنا إلا الخير. قال: «لكنني أقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وآتي النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(١). وفي رواية أخرى أنه قال: «أمّا إنّي أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأضحك وأبكي، فمن رغب عن منهاجي وسنتي فليس مني»^(٢).

خطر التعلق بالدنيا:

عن ابن أبي يعفور، قال: سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: «من تعلق قلبه بالدنيا تعلق قلبه بثلاث خصال: همٌّ لا يُفنى، وأمل لا يُدرَك، ورجاء لا يُنال»^(٣).

وهذا هو الفرق بين التشيع والتصوف، وهذا هو الفرق بين الإسلام والرهبانية التي قال تعالى فيها: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ (الحديد: ٢٧).

مراقبة الأعمال:

لا بدّ أن نراقب أعمالنا الصغيرة والكبيرة، لأننا سوف نُسأل عنها

(١) تفسير الطبري ٧: ١٤ / ح ٩٦٣٢.

(٢) الكافي ٢: ٨٥ / باب بدون العنوان / ح ١.

(٣) الكافي ٢: ٣٢٠ / باب حبّ الدنيا والحرص عليها / ح ١٧.

٤٨ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

يوم القيامة، وسوف نراها بعينها، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٧﴾ (الزلزلة: ٧ و٨)، وكان رسول الله ﷺ يُسَمِّي هذه الآية بالآية (الجامعة)^(١)، لأنها تجمع الرؤية الدينية كاملة عن الدنيا وعن الآخرة.

أيام العمر:

وأيام العمر تمضي سريعة، فلا يرى المرء إلا وقد مضى شبابه، وذهبت قدرته، واقترب أجله، ودنت منيته، ويومئذ ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ (الأنعام: ١٥٨).

ويُنسَب إلى الإمام علي ؑ أنه قال:

إذا عاش امرؤ ستين حولاً فنصف العمر تمحقه الليالي
ونصف النصف يمضي ليس يدري لغفلته يمينا عن شمال
وثلاث النصف آمال وحرص وشغل بالمكاسب والعيال
وباقى العمر أسقام وشيب وهمُّ بارتحال وانتقال
فحبُّ المرء طول العمر جهل وقسمته على هذا المثال
ويُنسَب إليه ؑ أيضاً:

يامن بدنياه اشتغل قد غرّه طول الأمل
الموت يأتي بغتة والقبر صندوق العمل
ولم تزل في غفلة حتّى دنا منك الأجل^(٢)

(١) راجع: صحيح البخاري ٣: ٧٩؛ صحيح مسلم ٣: ٧٢.

(٢) ديوان الإمام علي ؑ: ١٢٥ و١٢٦.

التجهز للآخرة:

وإذا كان الأمر على هذا الحال فلا بد من التجهز للآخرة، والإعداد للرحيل، والتزوّد بما ينفعنا في هذا السفر الطويل. يقول الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ (البقرة: ١٩٧). ويقول الإمام علي عليه السلام: «تَجَهَّزُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ فَقَدْ نُودِيَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ»^(١).

خمسة أمور كبرى:

في هذا المقطع من الدعاء يجمع الإمام عليه السلام كبريات المقاصد الإنسانية التي تتفرّع عليها سائر المطالب والأمنيات. فهذا المقطع هو سؤال لجوامع الأخلاق وكماليات مقاصد الإنسان الصحيحة في الدنيا، وهي: (الغنى، والعزّة، وعمل الخير للناس، والعبادة، ومعالي الأخلاق الاجتماعية).
منبهاً على الخطر الذي يتعرّض له كلّ واحد من هذه الكبريات.
«وَأَغْنِنِي وَأَوْسِعْ عَلَيَّ فِي رِزْقِكَ، وَلَا تَفْتِنِّي بِالنَّظَرِ»:
العبارة المشهورة هكذا: «بِالنَّظَرِ»، ولعلّ الأقرب للصحة هو (بالْبَطَر)^(٢)، وجاء الاشتباه من تصحيف النَّسَاخ.

ما هو المطلوب الصحيح في الإسلام الغنى أم الفقر؟
الصحيح هو الغنى، ولذا فقد جاء ذلك مؤكّداً في عدد كبير من الأدعية الشريفة، منها: «فَأَغْنِنَا بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ»^(٣)، و«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ

(١) نهج البلاغة: ٣٢١/ ح ٢٠٤.

(٢) كما جاء في نسخة رواية أبي علي محمد بن همام بن سهيل الإسكافي المتوفى (٣٣٢هـ).

(٣) الصحيفة السجّادية/ أبطحي: ٤٩٦.

٥٠ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ
تَجْعَلَ النُّورَ فِي بَصَرِي، وَالْبَصِيرَةَ فِي دِينِي، وَالْيَقِينَ فِي قَلْبِي، وَالْإِخْلَاصَ فِي
عَمَلِي، وَالسَّلَامَةَ فِي نَفْسِي، وَالسَّعَةَ فِي رِزْقِي، وَالشُّكْرَ لَكَ أَبَدًا مَا أَبْقَيْتَنِي»^(١)،
و«اللَّهُمَّ أَعْتِقْ رَقَبَتِي مِنَ النَّارِ، وَأَوْسِعْ عَلَيَّ مِنْ رِزْقِكَ الْحَلَالِ»^(٢).

لكن المشكلة هي أن الغنى يواجه خطر البطر والغفلة عن الآخرة
وهومها، والإعراض عن الفقراء، والتعالي على الناس، ولذا جاء في
الدعاء: «وَأَغْنِنِي وَأَوْسِعْ عَلَيَّ فِي رِزْقِكَ، وَلَا تَفْتِنِّي بِالْبَطْرِ».

وعلى تقدير القراءة الأولى للعبارة أي «بِالنَّظَرِ»، فلعل المقصود
هو: اغنني ولا تفتني بالتأجيل والتأخير والإمهال، لأن كلمة النظر في
اللغة تأتي بمعنى الإمهال والتأخير، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى
يَوْمٍ يُبْعَثُونَ﴾^(١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ (الأعراف: ١٤ و ١٥).

متى يكون الغنى أمراً حسناً؟

قد لا يكون الغنى أمراً حسناً مفيداً، بل ربما كان مضرراً، ولذا فقد
جاء في الحديث القدسي الشريف: «إِنَّ مَنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا
يُصْلِحُهُ إِلَّا الْفَقْرُ، وَلَوْ صَرَفْتَهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ لَهْلَكَ»^(٣).

قصة ثعلبة:

ومثال ذلك ما كان من قصة ثعلبة بن حاطب وكان من الأنصار،

(١) مصباح التهجد: ١٠٥ / ح (١٤٦/١٧٣)؛ الدعوات: ١٩٦ / ح ٥٣٨، عن أبي عبد
الله الصادق عليه السلام.

(٢) الكافي ٤: ٤٠٧ / باب الطواف واستلام الركن / ح ٢، عن الإمام الكاظم عليه السلام.

(٣) الكافي ٢: ٣٥٢ / باب من آذى المسلمين واحتقرهم / ح ٨.

المقطع الثاني ٥١

فقال للنبي ﷺ: أَدْعُ اللهَ أَنْ يَرْزُقَنِي مَالاً. فقال: «يا ثعلبة، قليل تؤدِّي شكره خير من كثير لا تطيقه، أمال لك في رسول الله أسوة حسنة؟ والذي نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضة لسارت».

ثم أتاه بعد ذلك فقال: يا رسول الله، أَدْعُ اللهَ أَنْ يَرْزُقَنِي مَالاً، والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقه، فقال ﷺ: «اللهم ارزق ثعلبة مالاً».

قال: فاتخذ غنياً، فتمت كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة، فتنحى عنها، فنزل وادياً من أوديتها، ثم كثرت نمواً حتى تباعد عن المدينة، فاشتغل بذلك عن الجمعة والجماعة، وبعث رسول الله ﷺ إليه المصدق ليأخذ الصدقة، فأبى وبخل وقال: ما هذه إلا أخت الجزية، فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة»، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ (التوبة: ٧٥ - ٧٨) (١).

شروط الغنى المطلوب:

إذن متى يكون الغنى أمراً حسناً؟

هناك عدة شروط لذلك:

أولاً: أن يكون بالحلال لا بالحرام، «فأغننا بحلالك عن حرامك» (٢).

(١) تفسير مجمع البيان ٥: ٩٣ و ٩٤.

(٢) الصحيفة السجادية/ أبطحي: ٤٩٦.

٥٢ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

ثانياً: أداء الحقوق الشرعية، ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾
لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ (المعارج: ٢٤ و ٢٥).

ثالثاً: الإنفاق في سبيل الله، ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ
وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا
فِي نَارٍ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ
لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (التوبة: ٣٤ و ٣٥).

رابعاً: الابتعاد عن الإسراف، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ
يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان: ٦٧).

خامساً: عدم البطر والاختيال، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ
فَخُورٍ﴾ (لقمان: ١٨)، وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «الدَّهْرُ يَوْمَانِ: يَوْمٌ لَكَ
وَيَوْمٌ عَلَيْكَ، فَإِذَا كَانَ لَكَ فَلَا تَبْطُرْ، وَإِذَا كَانَ عَلَيْكَ فَاصْبِرْ»^(١).

سادساً: شكر الله تعالى على النعمة، ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ
لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (النمل: ٤٠)، حيث جعلت
هذه الآية ترك الشكر كفراً.

سابعاً: ذكر الله تعالى والانتباه إلى أنه هو المعطي والمغني، وقد
أشار إلى ذلك تعالى في حكايته عن صاحب الجنة: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ
ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً
وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ
يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا
﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْ لَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ
قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنِّ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾

(١) نهج البلاغة: ٥٤٦ / ح ٣٩٦.

فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٣﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤٤﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٥﴾ (الكهف: ٣٥ _ ٤٢) (١).

قصة من نهج البلاغة:

مرض العلاء بن زياد الحارثي، فجاء أمير المؤمنين عليه السلام إليه يعوده، فلما رأى سعة داره قال له:

«مَا كُنْتَ تَصْنَعُ بِسَعَةِ هَذِهِ الدَّارِ فِي الدُّنْيَا وَأَنْتَ إِيَّهَا فِي الْآخِرَةِ كُنْتَ أَحْوَجَ، وَبَلَىٰ إِنْ شِئْتَ بَلَغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ تَقْرِي فِيهَا الضَّيْفَ وَتَصِلُ فِيهَا الرَّحِمَ وَتُطْلَعُ مِنْهَا الْحُقُوقُ مَطَالِعَهَا، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ بَلَغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ».

فَقَالَ لَهُ الْعَلَاءُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَشْكُو إِلَيْكَ أَخِي عَاصِمَ بْنَ زِيَادٍ.

قَالَ: «وَمَا لَهُ؟».

قَالَ: لَيْسَ الْعِبَاءَةُ وَتَحَلَّىٰ عَنِ الدُّنْيَا.

قَالَ: «عَلَيَّ بِهِ».

فَلَمَّا جَاءَ قَالَ: «يَا عُدَيَّ نَفْسِهِ، لَقَدْ اسْتَهَامَ بِكَ الْحَبِيثُ، أَمَا رَجِمْتَ

(١) قال العلامة الطباطبائي رحمته الله: (قد ذكر بعض المفسرين أن الذي يتضمَّنُه المثل قصة مقدَّرة مفروضة، فليس من الواجب أن يتحقَّق مضمون المثل خارجاً. وذكر آخرون أنه قصة واقعة، وقد رووا في ذلك قصصاً كثيرة مختلفة لا معول عليها. غير أن التدبُّر في سياق القصة بما فيها من كونها جنتين اثنتين، وانحصار أشجارهما في الكرم والنخل، ووقوع الزرع بينهما، وغير ذلك يؤيِّد كونها قصة واقعة). (تفسير الميزان ١٣: ٣٠٨).

٥٤ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

أَهْلَكَ وَوَلَدَكَ؟ أَتَرَى اللهُ أَحَلَ لَكَ الطَّيِّبَاتِ وَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ تَأْخُذَهَا؟ أَنْتَ أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ ذَلِكَ».

قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، هَذَا أَنْتَ فِي خُشُونَةٍ مَلْبَسِكَ وَجُشُوبَةٍ مَأْكَلِكَ.

قَالَ: «وَيَحْكُ إِنِّي لَسْتُ كَأَنْتَ، إِنَّ اللهَ تَعَالَى فَرَضَ عَلَى أُمَّةِ الْعَدْلِ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعْفَةِ النَّاسِ كَيْلًا يَتَّبِعَ بِالْفَقِيرِ فَقْرُهُ»^(١).
«وَأَعِزَّنِي وَلَا تَبْتَلِيَنِّي بِالْكِبْرِ»:

أن يكون المؤمن عزيزاً في قومه وجيهاً في أصحابه، فذاك أمر مطلوب، ولذا نقرأ في زيارة الإمام الحسين عليه السلام: «اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي عِنْدَكَ وَجِيهاً بِالْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(٢).

ونقرأ في أدعية الأيام: «وَأَعِزَّنِي فِي عَشِيرَتِي وَقَوْمِي، وَاحْفَظْنِي فِي يَقِظَتِي وَنَوْمِي»^(٣).

وقال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (المنافقون: ٨).
وقد رفض الإمام الحسين عليه السلام الذلّة قائلاً: «هِيَ هَاتِ مَنَا الذَّلَّةُ، يَا بِي اللهُ ذَلِكَ لَنَا وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ، وَحُجُورٌ طَابَتْ وَطَهَّرَتْ، وَأَنْوْفٌ حَمِيَّةٌ وَنُفُوسٌ أَبِيَّةٌ، مِنْ أَنْ نُؤْتِرَ طَاعَةَ اللُّثَامِ عَلَى مَصَارِعِ الْكِرَامِ»^(٤).

أذلة على المؤمنين:

ولكن المقصود بالعرزة هنا هو معنى غير الكبر والترفع والتعالي

(١) نهج البلاغة: ٣٢٤ و٣٢٥ / ح ٢٠٩.

(٢) مصباح المتهجد: ٧٧٤ / ح (٢/٨٤٧)، زيارة عاشوراء.

(٣) الصحيفة السجادية: ٥٤١ / دعاؤه عليه السلام في يوم الأحد.

(٤) المهوف على قتلى الطفوف: ٥٩.

المقطع الثاني ٥٥

على الناس، ولذا فقد جاء في وصف المؤمنين: ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة: ٥٤).

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (المائدة: ٥٤)، فهذه خمس صفات للمؤمنين:

- ١ _ ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾.
- ٢ _ ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.
- ٣ _ ﴿أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.
- ٤ _ ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.
- ٥ _ ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾.

والمقصود بالذل هنا ليس هو المعنى السلبي المرفوض، بل المقصود التواضع لهم والاستماع إليهم والتعايش البسيط معهم. ومثل ذلك ما جاء عن رسول الله ﷺ في شأن الزوجة المؤمنة الصالحة أنّها «العزيزة في أهلها، الذليلة مع بعلمها»^(١)، فليس المقصود بالذل هنا هو الحقارة والهوان عند زوجها، بل المقصود التواضع له والحضور الدائم عنده والاستماع إلى أمره.

الحذر من الكبر:

ولكن العز الذي نطلبه ونسأله من الله تعالى كما جاء في الدعاء:

(١) الكافي ٥: ٣٢٤ / باب خير النساء / ح ١.

٥٦ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

«وَأَعَزَّنِي» قد يفتح باباً نحو الكبر، كما كان الغنى يفتح باباً نحو البطر، ولذا كان لا بدَّ من الحذر من الإصابة بهذا المرض الخطير وهو الكبر، ولأجل ذلك قال في الدعاء: «وَأَعَزَّنِي وَلَا تَبْتَلِيَنِي بِالْكِبْرِ».

العز غير الكبر:

لكن لا بدَّ من التمييز بين العز والكبر، فالعز مطلوب والكبر مرفوض، فعن محمد بن عمر بن يزيد، عن أبيه، قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: إنني أكل الطعام الطيب، وأشم الريح الطيبة، وأركب الدابة الفارحة، ويتبعني الغلام، فترى في هذا شيئاً من التجبر فلا أفعله؟ فأطرق أبو عبد الله عليه السلام ثم قال: «إنما الجبار الملعون من غمص الناس وجهل الحق»، قال عمر: فقلت: أمّا الحق فلا أجهله، والغمص لا أدري ما هو، قال: «من حقر الناس وتجرَّ عليهم فذلك الجبار»^(١).

ولذا جاء في دعاء مكارم الأخلاق _ كما سيأتي _ : «وَلَا تَرْفَعْنِي فِي النَّاسِ دَرَجَةً إِلَّا حَطَّطْتَنِي عِنْدَ نَفْسِي مِثْلَهَا».

الله هو مصدر كل عز:

وحينما نطلب العز يجب أن نعرف أن الله تعالى وحده هو مصدر العز والشرف والكرامة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (النساء: ١٣٩).

وفي هذا يقول الإمام الحسن الزكي عليه السلام: «إِذَا أَرَدْتَ عِزًّا بِلَا عَشِيرَةٍ، وَهَيْبَةً بِلَا سُلْطَانٍ، فَأَخْرُجْ مِنْ ذُلِّ مَعْصِيَةِ اللَّهِ إِلَى عِزِّ طَاعَةِ اللَّهِ عزَّك»^(٢).

(١) الكافي ٢: ٣١١ / باب الكبر / ح ١٣.

(٢) كفاية الأثر: ٢٢٨؛ بحار الأنوار ٤٤: ١٣٩ / ح ٦.

وجاء في الدعاء أيضاً: «اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، اللهم أنت الحلِيم فلا تجهل، وأنت الجواد فلا تبخل، وأنت العزيز فلا تستذل، وأنت المنيع فلا ترام»^(١).

ويقول الإمام علي عليه السلام: «إلهي كفى لي عزاً أن أكون لك عبداً، وكفى لي فخراً أن تكون لي رباً، أنت كما أحبُّ فأجعلني كما تُحبُّ»^(٢).
«وَأَجْرٍ لِلنَّاسِ عَلَى يَدَيِ الْخَيْرِ»:

وإذا أصبح الإنسان غنياً عزيزاً فإنَّ المطلوب منه أن يجود على الناس بالخير والعطاء ويؤثرهم على نفسه.

القرآن الكريم يؤكد على هذه الصفة في الأنبياء وورثة الأنبياء فيقول: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رِعَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ (الأنبياء: ٨٩ و ٩٠)، فهم يسارعون في الخيرات، ولأجل ذلك اختارهم الله تعالى واصطفاهم.

وقد جاء في الحديث الشريف عن أبي حمزة، قال: سمعت أبا جعفر الباقر عليه السلام يقول: «الخلق عيال الله، فأحبُّهم إليه أحسنهم صنيعاً إلى عياله»^(٣).

(١) عن حمزة بن حمران، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: «بيننا رسول الله صلى الله عليه وآله يمشي ذات يوم مع أصحابه إذ قال لهم: على رسلكم حتى أثنى علي ربِّي، ثم قال: اللهم لا مانع...». (أمالي الطوسي: ٢١٤ / ح ٣٧١ / ٢١).

(٢) الخصال: ٤٢٠ / ح ١٤.

(٣) الأصول الستة عشر: ٣٠٧ / ح (٢ / ٤٦١).

معنى المحق والإحباط:

«وَلَا تَمَحِّقْهُ بِالْمَنِّ»:

قد يقع العمل باطلاً منذ البداية لفقده بعض شروط الصحة كالصلاة من دون وضوء مثلاً، وقد يقع العمل صحيحاً في البداية متوفراً على كل الشروط لكن يعقبه أمر آخر يوجب زوال ثوابه ومحق أثره، وهذا المعنى هو الإحباط، وربّما أُطلق عليه (الإبطال) أيضاً، لأنّه يُبطل أثر العمل ومفعوله وأجره، كما قال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ (البقرة: ٢٦٤).

خطر الإحباط:

وكما كان الغنى يواجه خطر البطر، وكان العزّ يواجه خطر الكبر، كذلك الإنفاق وتقديم الخير للناس يواجه خطر المنّ في نفس الإنسان فيذهب ثوابه ويحبط عمله، ولذا قال الإمام زين العابدين في دعائه: «وَلَا تَمَحِّقْهُ بِالْمَنِّ».

إنّ من روائع المعاني في دعاء مكارم الأخلاق هو ذكر المكرمة الأخلاقية مع الإشارة إلى الخطر الذي تواجهه، وكما سنلاحظ ذلك بصورة أوضح فيما سيأتي من فقرات الدعاء. كل ذلك جعله الإمام على صيغة الدعاء والحقيقة أنّه مفاهيم أخلاقية وتربوية عظيمة وكاملة.

«وَعَبَّدَنِي لَكَ وَلَا تُفْسِدْ عِبَادَتِي بِالْعُجْبِ»:

الغنى، والعزّ، وتقديم الخير للناس، والعبادة ومعالي الأخلاق هي المقاصد العليا للإنسان وأُمّياته الكبرى التي يجتمع له بها خير الدنيا والآخرة.

المقطع الثاني ٥٩

ويبدو أن الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الدعاء يريد أن يُسجّل هذه المقاصد ويُجذّر من مخاطرهما.

وإذا كان الهدف من خلق الإنسان والجنّ هو العبادة فإنّ الإمام يسأل الله التوفيق لذلك ويسأله النجاة من خطر العُجب الذي يُفسد العبادة.

إنّ خطر العُجب على العبادة هو أشدّ من خطر الرياء، والمؤمنون الصالحون قد يتجاوزون خطر الرياء بسهولة ولكنهم قد يقعون في خطر العُجب.

على أنّ العجب لا يُفسد العبادة وحدها بل (يمحق الإيمان) ويمسحه من القلب، فالعجب من الأمراض التي تُهدّد أهل الإيمان وتقتلع جذوره من القلب، فهناك بعض الأمراض تُبطل العمل وبعضها تُذهب بالإيمان كالحسد والعُجب^(١).

قصة مشي عيسى عليه السلام على الماء:

عن داود الرقي، قال: سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: «اتّقوا الله ولا يحسد بعضكم بعضاً، إنّ عيسى بن مريم كان من شرايعه

(١) عن جرّاح المدائني، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: «إنّ الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب». (الكافي ٢: ٣٠٦ / باب الحسد / ح ٢).

وعن معاوية بن وهب، قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «آفة الدين الحسد والعجب والفخر». (الكافي ٢: ٣٠٧ / باب الحسد / ح ٥).

وعن السكوني، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: قال رسول الله ﷺ: «الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الخلّ العسل». (الكافي ٢: ٣٠٢ / باب الغضب / ح ١). بينما لاحظنا القرآن الكريم يقول: «لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى» (البقرة: ٢٦٤)، فهنا بطلان العمل وهناك بطلان الإيمان والدين. (المؤلّف).

٦٠ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

السيح في البلاد، فخرج في بعض سيحه ومعه رجل من أصحابه قصير وكان كثير اللزوم لعيسى عليه السلام، فلما انتهى عيسى إلى البحر قال: بسم الله، بصحة يقين منه فمشى على ظهر الماء، فقال الرجل القصير حين نظر إلى عيسى عليه السلام جازه: بسم الله، بصحة يقين منه فمشى على الماء ولحق بعيسى عليه السلام، فدخله العجب بنفسه، فقال: هذا عيسى روح الله يمشي على الماء وأنا أمشي على الماء فما فضله عليّ؟».

قال: «فرمس في الماء فاستغاث بعيسى فتناوله من الماء فأخرجه، ثم قال له: ما قلت يا قصير؟ قال: قلت: هذا روح الله يمشي على الماء وأنا أمشي على الماء فدخلني من ذلك عجب، فقال له عيسى: لقد وضعت نفسك في غير الموضع الذي وضعك الله فيه فمقتك الله على ما قلت فتب إلى الله تعالى مما قلت».

قال: «فتاب الرجل وعاد إلى مرتبته التي وضعه الله فيها، فاتقوا الله ولا يحسدن بعضكم بعضاً»^(١).

قصة موسى عليه السلام وإبليس:

عن يونس، عن بعض أصحابه، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «قال رسول الله ﷺ: بينما موسى عليه السلام جالساً إذ أقبل إبليس وعليه برنس ذو ألوان، فلما دنى من موسى عليه السلام خلع البرنس وقام إلى موسى فسلم عليه، فقال له موسى: من أنت؟ فقال: أنا إبليس، قال: أنت، فلا قرب الله دارك، قال: إني إنما جئت لأسلم عليك لمكانك من الله، قال: فقال له موسى عليه السلام: فما هذا البرنس؟ قال: به أختطف قلوب بني آدم، فقال

(١) الكافي ٢: ٣٠٦ و٣٠٧/ باب الحسد/ ح ٣.

المقطع الثاني ٦١

موسى: فأخبرني بالذنب الذي إذا أذنبه ابن آدم استحوذت عليه، قال: إذا أعجبتة نفسه، واستكثر عمله، وصغر في عينه ذنبه»^(١).

العبد والعبادة والعبودية:

ولا بد أن نعرف أن العبادة تأخذ قيمتها وقدسيتها بمقدار ما تتضمن من معاني العبودية لله تعالى، وهي لأجل ذلك سُميت عبادة، وفي ذلك أيضاً يكون الإنسان عبداً مقبولاً عند الله تعالى أو مرفوضاً.

ومن هنا كان رسول الله ﷺ عبداً لله تعالى، ارتضاه الله للعبودية أولاً ثم ارتضاه للرسالة ثانياً، «وأشهد أن محمداً عبده ورسوله»^(٢).

ولعل هذا المعنى هو الذي أشار إليه الدعاء بالقول: «وَعَبْدِي لَكَ»، ليس بمعنى كثرة الممارسة العبادية، بل بمعنى الاستغراق في العبودية.

عن شاذان بن خليل، قال: قال عيسى بن عبد الله لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: جُعِلت فداك، ما العبادة؟ قال: «حسن النية بالطاعة»^(٣).

وبمقدار ما يسير الإنسان في مدارج العبودية تشرق عليه أنوار الربوبية، ويحاط بكرامة الألوهية، ويقترّب نحو الله تعالى حتى ﴿كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (النجم: ٩)، ومن هنا جاء في الأثر: «العبودية جوهرة كنهها الربوبية»^(٤)، بمعنى أن الإنسان من خلال الانغماس في العبودية يصل إلى القرب من مقام الربوبية فيقول للشيء: كن فيكون.

(١) الكافي ٢: ٣١٤ / باب العجب / ح ٨.

(٢) وهكذا قال عيسى عليه السلام: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ (مريم: ٣٠)، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: ١)، ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ (النجم: ١٠). (المؤلف).

(٣) الكافي ٢: ٨٣ / باب العبادة / ح ٤.

(٤) مصباح الشريعة المنسوب للإمام الصادق عليه السلام: ٥٩٧.

٦٢ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

إنَّ (العُجْب) يقتل هذا الحسَّ بالعبودية لدى الإنسان، وذلك حينما يعجب المرء بعبادته وبنفسه ويظنُّ أنه قد أدَّى حقَّ الله تعالى، فإنَّه بذلك يخرج عن طور العبد الذليل الخائف المستوحش الخاضع المسكين المستكين الذي أقرَّ على نفسه بالعصيان واستحقاق العقاب.

لماذا العُجْب؟

إنَّ الإنسان إذا تأمَّل في وجوده وحجمه، ثمَّ نظر إلى نِعَم الله تعالى عليه، ثمَّ راقب عبادته وضآلتها واختلاطها بألوان الغفلة والسهو والرياء والشرك، فإنَّه سوف يكتشف أن ليس من حقِّه أن يُصاب بذرة من العُجْب، بل كلِّما ازداد الإنسان معرفةً بأُموره ازداد خوفاً واضطراباً وشكاً بجميع أعماله التي لا تساوي شيئاً أمام الله تعالى، كيف وهذه العبادات مهما بلغت من الحُسْن فإنَّها من فعل الله وصنعه وتلطفه على هذا العبد وليس لنا فيها أيُّ فضل؟ بل إنَّ معرفتنا أكثر بفضل الله تعالى وحقَّ العبودية له يجعلنا نعتقد بجهالتنا وغفلتنا وغلبة شهواتنا ثمَّ نضطرب أشدَّ الاضطراب، قال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ (السجدة: ١٦)، وقال تعالى: ﴿تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ (المائدة: ٨٣).

إنَّ العجب وهو من أخطر مكائد الشيطان يدلُّ على أنَّ الإنسان غارق في الجهل، بعيد عن الحقيقة، مغرور بنفسه، مستخفَّ بحقِّ ربِّه، مستهين بما فرَّط من أيام عمره.

العابد والفاسق:

عن يونس، عن بعض أصحابه، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام،

المقطع الثاني ٦٣

قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله ﷻ لداود ﷺ: يا داود، بشر المذنبين وأنذر الصديقين، قال: كيف أُبشّر المذنبين وأنذر الصديقين؟ قال: يا داود، بشر المذنبين أني أقبل التوبة وأعفو عن الذنب، وأنذر الصديقين ألا يعجبوا بأعمالهم فإنه ليس عبد أنصبه للحساب إلا هلك»^(١).

وعن أحمد بن أبي داود، عن بعض أصحابنا، عن أحدهما _ الإمام الباقر والإمام الصادق ﷺ _، قال: «دخل رجلان المسجد أحدهما عابد والآخر فاسق، فخرجا من المسجد والفاسق صديق والعابد فاسق، وذلك أنه يدخل العابد المسجد مدلاً بعبادته يدلُّ بها فتكون فكرته في ذلك، وتكون فكرة الفاسق في التندّم على فسقه ويستغفر الله ﷻ ممّا صنع من الذنوب»^(٢).

« وَهَبْ لِي مَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ، وَاعْصِمْنِي مِنَ الْفَخْرِ »:

وقبل أن يبدأ الإمام ﷺ بالدخول في تفاصيل المسائل الأخلاقية ويطلبها من الله تعالى بشكل تفصيلي، يطرح الإمام ﷺ طلبه على الله تعالى في مجمل (معالي الأخلاق)، ثم يسأل الله تعالى أن يعصمه من الخطر الذي تواجهه الحالة الأخلاقية عموماً لدى الإنسان، وهو خطر (الفخر)، فإنَّ هذا الخطر والذي هو أحد أمراض القلوب يحبط الأخلاق الحسنة ويمحقها كما كان العجب يمحق العبادة.

إنَّ الذين نالوا معالي الأخلاق سوف يدخلون في مواجهة أكبر وأشدّ مع الشيطان الذي لا يتركهم وهم في هذه المرحلة، حيث يحاول

(١) الكافي ٢: ٣١٤ / باب العجب / ح ٨.

(٢) الكافي ٢: ٣١٤ / باب العجب / ح ٦.

٦٤ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

الشیطان أن یصیبهم بمرض الفخر والغرور بهذه الأخلاق ویُصور لهم
أنهم قد بلغوا الكمال!

ولذا جاء في وصیة لقمان لابنه وهو یعظه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ
لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾
(لقمان: ١٨).

حديث عن لقمان:

لقمان كان عبداً صالحاً في زمان داود عليه السلام، فعن حماد قال: سألت
أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن لقمان وحكمته التي ذكرها الله تعالى، فقال:
«... إن الله تبارك وتعالى، أمر طوائف من الملائكة حين انتصف النهار
وهدأت العيون بالقائلة، فنادوا لقمان حيث يسمع ولا يراهم، فقالوا: يا
لقمان، هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض تحكم بين الناس؟ فقال
لقمان: «إن أمرني ربي بذلك فالسمع والطاعة، لأنه إن فعل بي ذلك
أعاني عليه وعلمني وعصمني، وإن هو خيرني قبلت العافية، فقالت
الملائكة: يا لقمان، لم قلت ذلك؟ قال: لأن الحكم بين الناس من أشد
المنازل من الدين، وأكثرها فتناً وبلاءً، ما يخذل ولا يعان، ويغشاه الظلم
من كل مكان، وصاحبه فيه بين أمرين: إن أصاب فيه الحق فبالحري أن
يسلم، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة، ومن يكن في الدنيا ذليلاً وضعيفاً
كان أهون عليه في المعاد من أن يكون فيه حكماً سرياً شريفاً، ومن اختار
الدين على الآخرة يخسرهما كليهما، تزول هذه ولا تُدرَك تلك»، قال:
«فتعجبت الملائكة من حكمته، واستحسن الرحمن منطقه...»^(١).

(١) تفسير القمي ٢: ١٦٢ و ١٦٣.

وكان يدخل على داود عليه السلام ويعظه، فيقول له داود عليه السلام: «طوبى لك يا لقمان، أوتيت الحكمة وصرفت عنك البليّة»^(١).
وفي هذا الحديث دلالات وبحوث عديدة لا يسعها المقام.

وصايا لقمان:

وقد خلد الله تعالى ذكر لقمان في القرآن وذكر مواعظه فقال:
﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ (لقمان: ١٢ _ ١٩).

هذه وصايا لقمان التسع:

١ _ ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾.

- ٢ _ «أَقِمِ الصَّلَاةَ».
- ٣ _ «وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ».
- ٤ _ «وَأَنه عَنِ الْمُنْكَرِ».
- ٥ _ «وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ».
- ٦ _ «وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ».
- ٧ _ «وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا».
- ٨ _ «وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ».
- ٩ _ «وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ».

الفخر الصحيح والفخر الباطل:

ولكن ما هو المقصود بالفخر الذي يستعد الإمام عليه السلام منه ويخاف على نفسه من تأثيره حينها قال: «وَاعْصِمْنِي مِنَ الْفَخْرِ»؟

ألسنا نفخر بالإيمان، والإسلام، ومحبتنا وولائنا لأهل البيت عليهم السلام؟
ألسنا نفخر بأئمتنا وتاريخهم وتاريخ شيعتهم وتاريخ علمائنا وبطولاتهم؟

الجواب: أن الفخر حينما يكون تعبيراً عن الأنا فهو أمر باطل نعوذ بالله منه، لأن هذه (الأنا) و(نحن) دائماً هي مصدر الشرور والسيئات:

«أَنَا يَا إلهي الْمُعْتَرِفُ بِذُنُوبِي، أَنَا الَّذِي غَفَلْتُ، أَنَا الَّذِي أَسَأْتُ فَأَغْفِرْهَا لِي، أَنَا الَّذِي أَخْطَأْتُ، أَنَا الَّذِي هَمَمْتُ، أَنَا الَّذِي جَهَلْتُ، أَنَا الَّذِي سَهَوْتُ، أَنَا الَّذِي اعْتَمَدْتُ، أَنَا الَّذِي تَعَمَّدْتُ، أَنَا الَّذِي وَعَدْتُ، أَنَا الَّذِي أَخْلَفْتُ، أَنَا الَّذِي نَكَّثْتُ، أَنَا الَّذِي أَمَرْتَنِي فَعَصَيْتُكَ، وَمَهَيْتَنِي فَارْتَكَبْتُ مَهْيَكَ»^(١).

(١) المصباح للكفعمي: ٧٦٧ و٧٦٨، دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة.

و«أنا الفقير الذي أغنيته، وأنا الضعيف الذي قوّيته، وأنا الذليل الذي أعزّزته...»^(١).

إذن لا يوجد أيّ مبرّر يسمح لنا بالافتخار بأنفسنا. أمّا إذا كان الافتخار بالانتساب إلى الله، والانتساب إلى رسوله وأوليائه، والانتساب إلى دينه وما شاكل ذلك، فهذا افتخار بالغير وليس بالأنا. وهكذا حينما يكون الافتخار بنعمة من نعم الله تعالى أجراها على أيدينا فإنه ليس أمراً باطلاً، لأنّه لم يكن غروراً بالأنا وتعظيماً لها وإنّما كان ذكراً لفضل الله تعالى، ولطفه بهذا العبد.

وبهذا نفَسّر ما جاء في دعاء الإمام علي عليه السلام: «إِلهي كَفَى لِي عِزًّا أَنْ أَكُونَ لَكَ عَبْدًا، وَكَفَى لِي فَخْرًا أَنْ تَكُونَ لِي رَبًّا، أَنْتَ كَمَا أَحَبُّ فَاجْعَلْنِي كَمَا تُحِبُّ»^(٢).

وبهذا أيضاً نفهم ما جاء عن الأئمّة الأطهار عليهم السلام أحياناً، مثل افتخار الإمام زين العابدين عليه السلام بالقول: «أنا ابن مَكّة ومنى، أنا ابن مروة والصفاء، أنا ابن محمّد المصطفى، أنا ابن من لا يخفى، أنا ابن من علا فاستعلا فجاز سدرة المنتهى فكان من ربّه قاب قوسين أو أدنى»^(٣)، فإنّ ذلك لم يكن حديثاً عن الأنا وإنّما كان دفاعاً عن الحقّ والإمامة والإسلام أمام الظالمين والطغاة الذين ضيّعوا الحقيقة على الناس وخدعوهم بأنّ هؤلاء خوارج خرجوا على الأمير ومرقوا من الدين.

* * *

(١) الصحيفة السجّادية: ٢٢٣ / دعاؤه عليه السلام في سحر كلّ ليلة من شهر رمضان.

(٢) الخصال: ٤٢٠ / ح ١٤.

(٣) الاحتجاج ٢: ٣٩.

المقطع الثالث

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَلَا تَرْفَعْنِي فِي
النَّاسِ دَرَجَةً إِلَّا حَطَّطْتَنِي عِنْدَ نَفْسِي مِثْلَهَا، وَلَا
تُحَدِّثْ لِي عِزًّا ظَاهِرًا إِلَّا أَحَدَّثْتَ لِي ذِلَّةً بَاطِنَةً عِنْدَ
نَفْسِي بِقَدَرِهَا».

الموجز:

الإنسان بينه وبين الله تعالى، وبينه وبين نفسه، وليس عند الناس
وفي المجتمع، كيف يجب أن يكون؟ وما هي مشاعره؟ هذا هو ما يتناوله
هذا المقطع من الدعاء.

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَلَا تَرْفَعْنِي فِي النَّاسِ دَرَجَةً إِلَّا
حَطَّطْتَنِي عِنْدَ نَفْسِي مِثْلَهَا».

الناس والنفس موقعان لتقييم الأنا.

أنا عند الناس يجب أن أكون عزيزاً، وأنا عند نفسي يجب أن
أكون ذليلاً.

وسرعان ما عاد الإمام عليه السلام في هذا الدعاء للجانب الثاني في
المسألة وهو أنا عند نفسي، فإذا كانت المعزّة عند الناس مطلوبة، فما هو
المطلوب بين الإنسان وبين نفسه؟ نفسه التي تقف وحدها أمام الله تعالى
بعيداً عن كلّ الاعتبارات الاجتماعية البشرية الظاهرية، «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ

٧٠ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

مَالٌ وَلَا بُنُونٌ» (الشعراء: ٨٨)، ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ (المدثر: ١١)، ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾﴾ (الطارق: ٥ و ٦).

هذا الانتقال السريع لدى الإمام عليه السلام من الظاهر إلى الباطن، من المظاهر الاجتماعية إلى الحقائق النفسية، وهذه المعالجة الأخلاقية العظيمة في كلا الموقعين ودون أية غفلة وأي تجاوز لأحد الموقعين على الآخر هي من روائع هذا الدعاء، ومن معجزات الإمام السجّاد عليه السلام. إنَّ (مكارم الأخلاق) يجب أن لا تقتصر على الأبعاد الاجتماعية، بل لا بدَّ أن تأخذ بعين الاعتبار الأخلاق الباطنية والملاكات الذاتية، وهذا ما ينفرد به الإسلام وثقافة أهل البيت عليهم السلام خاصّة بينما لم يعرفه فلاسفة الأخلاق.

وإذا كان شأن الإنسان في هذه الدنيا وموقعه في المجتمع وعند الناس أمراً مهماً يستحقُّ أن يدعوا له قائلاً: «وَأَعِزَّنِي...»، فإنَّ الأهمَّ من ذلك هو شأن الإنسان بين يدي الله تعالى ومع نفسه، لأنَّ آخرة الإنسان قائمة على هذا البعد الثاني وليس البعد الأوَّل.

مشكلة الناس في الدنيا أنَّ الظواهر والمظاهر تجعلهم ينسون الواقع الحقيقي والبُعد الأعمق والباطن للقضايا، فحينما يكون الإنسان غنياً يطغى وينسى أنَّه الفقير المطلق أمام الله، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ (فاطر: ١٥)، وحينما يكون قوياً ينسى أنَّه أضعف مخلوق أمام الله، وينسى أنَّه سيعود يوماً ما ضعيفاً، ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ (البلد: ٨ _ ١٠).

عن أبي حمزة الثمالي، قال: قال علي بن الحسين عليهما السلام: «عجباً للمتكبر الفخور الذي كان بالأمس نطفة ثم هو غداً جيفة»^(١).
وعن محمد بن مسلم، عن أحدهما _ الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام، قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من الكبر»، قال: فاسترجعت، فقال: «مالك تسترجع؟»، قلت: لما سمعت منك، فقال: «ليس حيث تذهب، إنما أعني الجحود، إنما هو الجحود»^(٢).

يوسف عليه السلام وعز الملك:

عن مروك بن عبيد، عمّن حدّثه، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: «إن يوسف عليه السلام لما قدم عليه الشيخ يعقوب عليه السلام دخله عز الملك فلم ينزل إليه، فهبط جبرئيل عليه السلام فقال: يا يوسف أبسط راحتك، فخرج منها نور ساطع فصار في جو السماء، فقال يوسف: يا جبرئيل، ما هذا النور الذي خرج من راحتي؟ فقال: نُزعت النبوة من عقبك عقوبةً لما لم تنزل إلى الشيخ يعقوب، فلا يكون من عقبك نبي»^(٣).

الدّلة الباطنة لماذا؟

هذا المفهوم من أعظم المفاهيم التي طرحها الأنبياء عليهم السلام، وأكّدها سيّد الرسل ﷺ والأئمة الأطهار عليهم السلام، لماذا؟
لماذا يجب أن يكون الإنسان ذليلاً مع نفسه حتّى إذا كان نبياً معصوماً؟ وما فائدة هذا الذلّ الباطني؟

(١) الكافي ٢: ٣٢٨ / باب الفخر والكبر / ح ١.

(٢) الكافي ٢: ٣١٠ / باب الكبر / ح ٧.

(٣) الكافي ٢: ٣١١ و٣١٢ / باب الكبر / ح ١٥.

٧٢ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

لقد نزل جبرئيل على رسول الله ﷺ ومعه مفاتيح كنوز الأرض وقال: «يا محمد، السلام يقرؤك السلام ويقول لك: إن شئت صيرت معك جبال تهامة ذهباً وفضةً، وخذ هذه مفاتيح كنوز الأرض ولا ينقص ذلك من حظك يوم القيامة، قال: يا جبرئيل، وما يكون بعد ذلك؟ قال: الموت، فقال: إذاً لا حاجة لي في الدنيا، دعني أجوع يوماً وأشبع يوماً، فالיום الذي أجوع فيه أتضرع إلى ربي وأسأله، واليوم الذي أشبع فيه أشكر ربي وأحمده، فقال له جبرئيل: وُفقت لكل خير يا محمد»^(١)، لماذا؟

لماذا كان ﷺ يأكل أكل العبيد، ويجلس جلسة العبيد^(٢)؟ هل كان ذلك لصغر في نفسه، وضعف في إرادته؟! حاشا، ولكنه ﷺ أراد أن يُقدّر واقع عبوديته لله تعالى من خلال كل هذه المظاهر والممارسات.

ونرجع إلى السؤال، لماذا الذلّة في النفس؟

١ _ الذلّة الباطنية هي انعكاس للإحساس بالعبودية المطلقة لله تعالى، وبمقدار مستوى التذلل يكون مقدار التقرب من الله تعالى، وعلى عكس ذلك يكون الشعور بالاستقلال والقدرة الذاتية الوهمية تعبيراً عن الخروج عن ربة العبودية وتجاسراً على حريم الربوبية المطلقة.

قصة بشر الحافي:

ويمكن أن تنفعنا هنا قصة بشر الحافي حينما اجتاز الإمام الكاظم عليه السلام داره ببغداد، فسمع الملاهي وأصوات الغناء والقصب تخرج

(١) بحار الأنوار ٤٢: ٢٧٦.

(٢) قال ﷺ: «إنما أنا عبد أكل أكل العبيد، وأجلس جلسة العبيد». (شرح نهج البلاغة

لابن ميثم ٣: ٢٨٦).

المقطع الثالث..... ٧٣

من تلك الدار، فخرجت جارية ويدها قمامة البقل، فرمت بها في الدرب، فقال لها: «يا جارية، صاحب هذه الدار حرُّ أم عبد؟»، فقالت: بل حرُّ، فقال: «صدقت، لو كان عبداً خاف من مولاه»، فلما دخلت قال مولاهما وهو على مائدة السكر: ما أبطأك علينا؟ فقالت: حدّثني رجل بكذا وكذا، فخرج حافياً حتّى لقي مولانا الكاظم عليه السلام فتاب على يده^(١).

نعم.. إنّ الشعور بالعبودية والذلّة الباطنية بين يدي الله تعالى يدعونا للطاعة وطلب القرب، بخلاف الشعور بالحرية والغرور بالإرادة والغفلة عن إحاطة الله تعالى المطلقة بنا وقيمومته علينا، فإنّ هذا الشعور الكاذب يدعو للخروج عن إرادة الله وأوامره والوقوع في فخّ الشيطان الرجيم الذي يُزيّن للإنسان حبّ الدنيا وينسيه ذكر الآخرة.

٢ _ وعلى ذلك فإنّ الشعور الكامل بذلّ العبودية وحقارة النفس بين يدي مولاهما وخالقها وما ينبثق عن ذلك من تقرب وتوسّل وطاعة هو طريق تكامل الإنسان وبلوغه مدارج الكمال، ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ (المُدَّثِّر: ٣٧)، فالتقدّم عبر سلوك طريق العبودية والانغمار بالذلّ الباطني والتأخّر عبر الغرور بالقدرة والشعور بالعزّة، ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿٢٥﴾﴾ (المُدَّثِّر: ٢٣ و ٢٤).

تذلل الرسول الأكرم ﷺ:

رسول الله ﷺ كان أشرف الخلق وأكرمهم على الله تعالى، ولكنّه كان أذلّهم بين يدي الله تعالى وأكثرهم عبودية له وخشية منه، وقد جاء

(١) منهاج الكرامة للعلامة الخلي: ٥٩.

٧٤ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

في دعائه ﷺ: «إِلَهِي تَعَرَّضْ لَكَ فِي هَذَا اللَّيْلِ الْمُتَعَرِّضُونَ، وَقَصَدَكَ فِيهِ الْقَاصِدُونَ، وَأَمَّلَ فَضْلَكَ وَمَعْرُوفَكَ الطَّالِبُونَ، وَلَكَ فِي هَذَا اللَّيْلِ نَفَحَاتٌ وَجَوَائِزٌ وَعَطَايَا وَمَوَاهِبٌ تَمُنُّ بِهَا عَلَى مَنْ تَشَاءُ مِنْ عِبَادِكَ وَتَمْتَعُهَا مَنْ لَمْ تَسْبِقْ لَهُ الْعِنَايَةَ مِنْكَ، وَهَذَا أَنَا ذَا عَيْدِكَ الْفَقِيرُ إِلَيْكَ الْمُؤَمِّلُ فَضْلَكَ وَمَعْرُوفَكَ...»^(١).

وعن عبد الله بن سيَّار، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «كان رسول الله ﷺ في بيت أمِّ سَلَمَةَ في ليلتها، ففقدته من الفراش، فدخلها من ذلك ما يدخل النساء، فقامت تطلبه في جوانب البيت حتَّى انتهت إليه وهو في جانب من البيت قائم رافع يديه يبكي وهو يقول: «اللَّهُمَّ لَا تَنْزِعْ مِنِّي صَالِحَ مَا أَعْطَيْتَنِي أَبَدًا، اللَّهُمَّ وَلَا تَكْلِنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ أَبَدًا، اللَّهُمَّ لَا تُشِمْتْ بِي عَدُوًّا وَلَا حَاسِدًا أَبَدًا، اللَّهُمَّ لَا تَرُدَّنِي فِي سُوءِ اسْتَنْقَذْتَنِي مِنْهُ أَبَدًا»، قال: «فانصرفت أمُّ سَلَمَةَ تبكي حتَّى انصرف رسول الله ﷺ لبكائها، فقال لها: ما يبكيك يا أمِّ سَلَمَةَ؟ فقالت: بأبي أنت وأُمِّي يا رسول الله، ولِمَ لا أبكي وأنت بالمكان الذي أنت به من الله قد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر تسألُه أن لا يشمت بك عدوًّا أبداً ولا حاسداً، وأن لا يردك في سوء استنقذك منه أبداً، وأن لا ينزع عنك صالح ما أعطاك أبداً، وأن لا يكلك إلى نفسك طرفة عين أبداً؟ فقال: يا أمِّ سَلَمَةَ، وما يؤمّنني؟ وإنّما وكلّ الله يونس بن متى إلى نفسه طرفة عين فكان منه ما كان»^(٢).

(١) مصباح المتهجّد: ١٥٢ / ح (٣٧/٢٤١).

(٢) تفسير القمّي ٢: ٧٥.

أشبع يوماً:

عن أبي القاسم عبد الله بن أحمد بن عامر بن سليمان الطائي، عن أبيه، عن علي بن موسى الرضا عليه السلام، قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني ملك فقال: يا محمد، إن ربك ﷻ يقرئك السلام ويقول: إن شئت جعلت لك بطحاء مكة ذهباً»، قال: «فرفع رأسه إلى السماء وقال: يا رب، أشبع يوماً فأحمدك وأجوع يوماً فأسألك»^(١).

وعن محمد بن مسلم، قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يذكر أنه «أتى رسول الله ﷺ ملك فقال: إن الله ﷻ يُخَيِّرُكَ أَنْ تَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا متواضعاً أو ملكاً رسولاً»، قال: «فنظر إلى جبرئيل وأوماً بيده أن تواضع، فقال: عبداً متواضعاً رسولاً، فقال الرسول: مع أنه لا ينقصك مما عند ربك شيئاً، قال: ومعه مفاتيح خزائن الأرض»^(٢).

تذلل أمير المؤمنين عليه السلام:

ولننقل بعض الصور من تذلل الإمام علي عليه السلام:

يغسل يد الضيف:

روي عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام أنه قال: «أعرف الناس بحقوق إخوانه وأشدّهم قضاءً لها أعظمهم عند الله شأنًا، ومن تواضع في الدنيا لإخوانه فهو عند الله من الصديقين ومن شيعة علي بن أبي طالب عليه السلام حقاً، ولقد ورد على أمير المؤمنين عليه السلام أخوان له مؤمنان أب وابن، فقام إليهما، وأكرمهما وأجلسهما في صدر مجلسه، وجلس بين

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٣٣ / ح ٣٦.

(٢) الكافي ٢: ١٢٢ / باب التواضع / ح ٥.

٧٦ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

أيديهما، ثم أمر بطعام فأحضر، فأكلا منه، ثم جاء قنبر بطست وإبريق خشب ومنديل ليبس وجاء ليصبَّ على يد الرجل ماءً، فوثب أمير المؤمنين عليه السلام فأخذ الإبريق ليصبَّ على يد الرجل، فتمرَّغ الرجل في التراب وقال: يا أمير المؤمنين، الله يراني وأنت تصبُّ على يدي؟! قال: أقعد واغسل يدك، فإنَّ الله تعالى يراك وأخوك الذي لا يتميَّز منك ولا يتفضَّل عليك يخدمك، يريد بذلك خدمة في الجنة مثل عشرة أضعاف عدد أهل الدنيا وعلى حسب ذلك في ممالكه فيها. فقعد الرجل فقال له علي عليه السلام: أقسمت عليك بعظيم حقِّي الذي عرفته وبجَلَّتته وتواضعك لله بأن ندبني لما شرفك به من خدمتي لك، لما غسلت مطمئناً كما كنت تغسل لو كان الصابُّ عليك قنبراً، ففعل الرجل. فلما فرغ ناول الإبريق محمد بن الحنفية وقال: يا بني، لو كان هذا الابن حضرنى دون أبيه لصببت على يده، ولكن الله يأبى أن يسوى بين ابن وأبيه إذا جمعهما مكان، لكن قد صبَّ الأب على الأب، فليصبَّ الابن على الابن، فصبَّ محمد بن الحنفية على الابن^(١).

علي في السوق:

روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «إنَّ أمير المؤمنين عليه أفضل السلام أتى سوق الكرابيس، فإذا هو برجل وسيم فقال: يا هذا عندك ثوبان بخمسة دراهم؟ فوثب الرجل فقال: يا أمير المؤمنين، عندي حاجتك، فلما عرفه مضى عنه، فوقف على غلام. فقال: يا غلام، عندك ثوبان بخمسة دراهم؟ قال: نعم عندي ثوبان، فأخذ ثوبين أحدهما

(١) الاحتجاج ٢: ٢٦٧ و٢٦٨.

بثلاثة دراهم والآخر بدرهمين، فقال: يا قنبر، خذ الذي بثلاثة دراهم، فقال: أنت أولى به تصعد المنبر وتخطب الناس، قال: وأنت شباب ولك شره الشباب، وأنا أستحيي من ربّي أن أتفضّل عليك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: ألبسوهم ممّا تلبسون، وأطعموهم ممّا تأكلون، فلمّا لبس القميص مدّ يده في رذنه فإذا هو يفضل عن أصابعه، فقال: اقطع هذا الفضل، فقطعه، فقال الغلام: هلمّ أكفّه، قال: دعه كما هو، فإنّ الأمر أسرع من ذلك...»^(١).

علي ومناجاته:

إنّ مناجاته ﷺ تُعبّر عن عمق شعوره بالذلّ والعبودية لله تعالى حين يقول في مناجاته الشعبانية: «إلهي أنا عبدٌ أتَنصّلُ إليكِ ممّا كُنْتُ أواجهُكَ بهِ مِنْ قِلَّةِ اسْتِحْيَائِي مِنْ نَظَرِكَ، وَأَطْلُبُ العَفْوَ مِنْكَ...، إلهي أنا عبدُكَ الضَّعِيفُ المَذْنُوبُ وَمَمْلُوكُكَ المُنِيبُ، فلا تَجْعَلْني مِمَّنْ صَرَفَتْ عَنْهُ وَجْهَكَ وَحَجَبَهُ سَهْوُهُ عَنْ عَفْوِكَ»^(٢).

الاعتدال والتوازن:

ومن روائع مذهب أهل البيت ﷺ _ والذي هو التعبير الدقيق والكامل عن الإسلام _ هو الاعتدال والتوازن والدقّة في طرح الجوانب العبادية والأخلاقية، فلا يكون شيء على حساب شيء آخر، بل يوضع كلّ شيء في موضعه، ومن ذلك الموضوع الذي نحن فيه (العزّة الظاهرية والذلّة الباطنية)، فقد أفرط أكثر المسلمين وأئمّة المذاهب حينما غلبت

(١) روضة الواعظين: ١٠٧ و ١٠٨؛ مناقب آل أبي طالب ١: ٣٦٦ و ٣٦٧.

(٢) إقبال الأعمال ٣: ٢٩٧ و ٢٩٨، المناجاة الشعبانية.

٧٨ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

عليهم العزّة الظاهرية وضعفت عندهم وعند أتباعهم روح التذلل والاستكانة والخشوع بين يدي الله تعالى، وقد يُفسّر ذلك ظاهرة إقبال الشيعة تبعاً لأئمّتهم عليهم السلام على الدعاء والمناجاة والتضرّع، وسكب الدموع، وسياء الخشوع، بينما نجد ضمور هذه الحالة وضعفها جداً عند غيرهم حتّى وصلوا إلى حدّ الاستحياء من البكاء واعتباره حالة لا تناسب شخصية الإنسان ورجولته وثقته بنفسه، والعياذ بالله من هذا الكبر والجرأة على الله تعالى.

وقد فرط آخرون _ ومنهم أهل التصوّف _ حين أعرضوا عن الحياة العزيزة مع الناس، وظهروا بمظهر الأذلاء المستجدين الحقرء بين يدي الناس، زاعمين أنّ ذلك يربّي لديهم روح الذلّ بين يدي الله تعالى. بل قد زعم بعضهم أنّ عليهم أن يعملوا الأعمال المشينة والأفعال الهجينة، ليقتلوا بذلك كبرياء أنفسهم وغرور ذواتهم، ووصل الحال ببعضهم ارتكاب المعصية أمام الناس ليقتل في نفسه حالة الرياء وحبّ المدح، نعوذ بالله من هذا الضلال.

بينما لم نجد في القرآن ولا في سيرة الأنبياء عليهم السلام مثل ذلك. وهكذا كان الأئمّة الأطهار عليهم السلام ومذهبهم، لذا نجد الإمام السجّاد عليه السلام يتقدّم بنظرة واقعية معتدلة تجمع بين الدنيا والآخرة فيقول: «وَلَا تُحَدِّثْ لِي عِزّاً ظَاهِراً إِلَّا أَحَدْتُ لِي ذِلَّةً بَاطِنَةً عِنْدَ نَفْسِي بِقَدْرِهَا»، لاحظوا هذا التأكيد: (مثلها)، (بقدرها)، لا أزيد منها ولا أقلّ، فالذلّة في النفس بمقدار العزّة عند الناس.

* * *

المقطع الرابع

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَتَعْنِي
بِهْدَى صَالِحٍ لَا أَسْتَبْدِلُ بِهِ، وَطَرِيقَةٍ حَقٌّ لَا أَزِيغُ
عَنْهَا، وَنِيَّةٍ رُشِدٍ لَا أَشُكُّ فِيهَا، وَعَمْرٍي مَا كَانَ عُمْرِي
بِذَلَّةٍ فِي طَاعَتِكَ، فَإِذَا كَانَ عُمْرِي مَرْتَعًا لِلشَّيْطَانِ
فَاقْبُضْنِي إِلَيْكَ قَبْلَ أَنْ يَسْبِقَ مَقْتُكَ إِلَيَّ، أَوْ يَسْتَحْكِمَ
غَضَبُكَ عَلَيَّ. اللَّهُمَّ لَا تَدْعُ خَصْلَةَ تُعَابٍ مِنِّي إِلَّا
أَصْلَحْتَهَا، وَلَا عَائِبَةً أُوْنَبُ بِهَا إِلَّا حَسَّنْتَهَا، وَلَا
أُكْرِمَةً فِي نَاقِصَةٍ إِلَّا أَمَّمْتَهَا».

الموجز:

سؤال سلامة الاتجاه، والحذر من الشيطان، ودفع الخصال السيئة
بنحو كلي وجامع، قبل الدخول في تفاصيلها.

واعتبار سلامة الاتجاه وصحة الطريق هو الشرط في فائدة
الأخلاق وتأثيرها.

«وَمَتَّعْنِي بِهْدَى صَالِحٍ»:

الهدى الصالح والطريقة الحقة والنية الرشيدة الصالحة، هي
الأمر الثلاثة التي يجب أن تحكم مسيرة أعمالنا، وتكون شعاراً في كل
خطواتنا.

٨٠ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

ليس المال، وليس المقام، ولا العشيرة، ولا سوى ذلك من أمور الدنيا هي المؤثرات التي نستهدي بها في حركتنا وتحديد مواقفنا، إننا الهدى، والحق، والنية الصالحة.

الهدى الصالح هو منهجنا وليس الهوى.

والهدى الصالح هو هدى الله ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٨٨) أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والتبوة فإن يكفروا بها هؤلاء فقد وكننا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ﴿٨٩﴾ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴿(الأنعام: ٨٨ - ٩٠)﴾، وهو هدى رسوله ﷺ وهدى الأئمة الأطهار عليهم السلام.

والطريق الحق والطريقة المطابقة للحق هي طريق رسول الله ﷺ والأئمة الأطهار عليهم السلام، ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (الأنعام: ١٥٣).

وطريقة الحق هي سبيل المؤمنين وخط أهل البيت عليهم السلام الذين نزل فيهم: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء: ١١٥).

في كل الأحوال والظروف يجب أن يكون الحق هو رائدنا، يقول الإمام علي عليه السلام: «لَا تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَىٰ لِقَلَّةِ أَهْلِهِ»^(١).

والنية المخلصة والرشيده يجب أن تكون نيتنا في الأعمال التي نؤديها. لا نرتضي سوى الهدى، ولا نزيغ عن طريق الحق، ولا نختار سوى نية الرشد وبدون أي تشكيك، كما قال عليه السلام: «وَمَتَّعَنِي بِهُدَىٰ

(١) نهج البلاغة: ٣١٩/ ح ٢٠١.

صَالِحٍ لَا أَسْتَبْدِلُ بِهِ، وَطَرِيقَةَ حَقِّ لَا أَزِيغُ عَنْهَا، وَنِيَّةَ رُشْدٍ لَا أَشْكُ فِيهَا».

دعاء اللهم اهدني من عندك:

عن سلام المكي، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: «أتى رجل النبي ﷺ يقال له: شيبة الهذلي، فقال: يا رسول الله، إنني شيخ قد كبرت سنِّي، وضعفت قوّتي عن عمل كنت قد عوّدتَه نفسي من صلاة وصيام وحجّ وجهاد، فعلمني يا رسول الله كلاماً ينفعني الله به، وخفف عليّ يا رسول الله، فقال: أعدها، فأعادها ثلاث مرّات، فقال رسول الله ﷺ: ما حولك شجرة ولا مدرة إلا وقد بكت من رحمتك، فإذا صليت الصبح فقل عشر مرّات: سبحان الله العظيم وبحمده، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم، فإنّ الله ﷻ يعافيك بذلك من العمى والجنون والحذام والفقر والهزم. فقال: يا رسول الله، هذا للدنيا فما للآخرة؟ قال: تقول في دُبُر كل صلاة: اللهم اهدني من عندك، وأفض عليّ من فضلك، وانشر عليّ من رحمتك، وأنزل عليّ من بركاتك. قال: فقبض عليهنّ بيده ثم مضى، فقال رجل لابن عباس: ما أشدّ ما قبض عليها خالك، فقال النبي ﷺ: أمّا إنّه إن وافى بها يوم القيامة لم يدعها متعمّداً فتحت له ثمانية أبواب من الجنّة يدخلها من أيّها شاء»^(١).

خطر الاستبدال والزيف والشك:

وكما لاحظنا في مقاطع سابقة من الدعاء أنّ الإمام يُنبّه دائماً على المخاطر التي يتعرّض لها المؤمن والسالك إلى الله تعالى.

(١) أمالي الصدوق: ١٠٩ و ١١٠ ح (٥/٨٥).

٨٢ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

فقد يبدأ المؤمن بهدى صالح لكنه سرعان ما يتحوّل عنه في منتصف الطريق، مثل أولئك الذين قال عنهم القرآن: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ (آل عمران: ١٤٤).

وقد يمضي المؤمن في طريق حقّ صحيحة لكنه يزيغ عنها ويتعد منها في منتصف الطريق.

وهذا الزيغ والانحراف عن الجادة ينشأ من زيغ القلب وانحرافه عن جادة الحق والهدى، يقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ (آل عمران: ٧)، ويقول تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ (الصف: ٥).

وربما يشكُّ المؤمن في نيّته التي بدأ بها، بمعنى يفقد الوضوح في الرؤية، وتضيع عنده الحقيقة، ويصبح شاكاً أمع هؤلاء القوم يكون أم مع هؤلاء؟ ﴿مُدْبِذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ (النساء: ١٤٣)، نتيجة الأوهام والأباطيل ومكر الظالمين وكيدهم.

هناك من الناس لهم في كلِّ يوم رأي وموقف، وهناك ناس ثابتون على الصراط، مستقيمون دائماً على الحق والهدى، والنيّة الرشيدة.

عائشة وعمار:

عن موسى بن عبد الله الأسدي، قال: لما انهزم أهل البصرة أمر علي بن أبي طالب عليه السلام أن تنزل عائشة قصر أبي خلف، فلما نزلت جاءها عمار بن ياسر رضي الله عنه فقال لها: يا أمّاه كيف رأيت ضرب بنيك دون دينهم بالسيف؟

فقال: استبصرت يا عمّار من أجل أنك غلبت؟
 قال: أنا أشدُّ استبصاراً من ذلك، أما والله لو ضربتمونا حتّى تبلغونا
 سعفات هجر (نخيل البحرين) لعلمنا أنّا على الحقِّ وأنّكم على الباطل^(١).
 وهو يعني أنّنا لا نشكُّ في حقِّنا سواء انتصرنا أم غلبنا.

الاستقامة على الطريق:

لا بدّ من الاستقامة على طريق الحقِّ والهدى كما أمر الله تعالى نبيّه
 بالقول: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ (هود: ١١٢)، وقد كان
 يقول رسول الله ﷺ: «شيبني هود»^(٢)، لموقع هذه الآية فيها.
 يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ
 أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا
 وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الحج: ١١).

وقد جاء في سبب نزولها _ كما عن ابن عباس _ : (كان ناس من الأعراب
 يأتون النبي ﷺ فيسلمون، فإذا رجعوا إلى بلادهم فإن وجدوا عام غيث و عام
 خصب و عام ولاد حسن قالوا: إنّ ديننا هذا صالح فتمسكوا به، وإن وجدوا
 عام جذب و عام ولاد سوء و عام قحط قالوا: ما ديننا هذا خير، فأنزل الله:
 ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾^(٣).

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ
 النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ
 أَوْلَىٰ سَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ (العنكبوت: ١٠).

(١) أمالي الطوسي: ١٤٣ / ح (٤٦/٢٣٣).

(٢) أمالي الصدوق: ٣٠٤ / ح (٤/٣٤٥).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم: ٨/٢٤٧٦ ح ١٣٧٩٨؛ تفسير الميزان ١٤: ٣٥٥.

٨٤ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

(لا أستبدل، ولا أزيغ، ولا أشك)، هذه أمور مهمّة جداً في حياة المؤمن، يقول الله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب: ٢٣)، ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٦).
«وَعَمَّرَنِي مَا كَانَ عُمَرِي بِذِلَّةٍ فِي طَاعَتِكَ»:

مع هذه الثلاثة: (الهدى الصالح، وطريقة حق، ونية رشد) يستحق أن يطلب الإنسان طول العمر، لأنه سيكون عمراً مليئاً بالطاعات بعيداً عن المعاصي، وهذا هو الهدف من عمر الإنسان ووجوده في الأرض، وبدون ذلك فإن العمر سيكون وبالاً على الإنسان حتى يقول يوم القيامة: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ (النبأ: ٤٠).

الدعاء بطول العمر أمر مستحب وقد ورد في الأدعية الشريفة كثيراً، كما ورد النهي عن تمني الموت والدعاء بالموت حينما يكون تعبيراً عن الجزع، أمّا إذا كان في غير ذلك فلا مانع منه، كما في قصة مريم عليها السلام حين قالت: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ (مريم: ٢٣)، وكما في حديث سيدتنا زينب عليها السلام في كربلاء حينما سمعت الحسين عليه السلام ينعى نفسه فقالت: «ليت الموت أعدمني الحياة»^(١)، وكما في كلام الإمام زين العابدين عليه السلام في الشعر المنسوب إليه:
فيا ليت أمي لم تلدني ولم أكن يراني يزيد في البلاد أسير^(٢)
وكما في أحاديث الإمام علي عليه السلام: «ما ينتظر أشقاها أن يخضب هذه بدم هذه»، وضرب بيده على لحيته^(٣).

(١) الإرشاد ٢: ٩٣.

(٢) أنظر: مستدرک سفینه البحار ٩: ٢٩٧؛ مدينة المعاجز ٤: ١١٠.

(٣) الغارات لأبي إسحاق إبراهيم الثقفي ٢: ٦٧٧؛ مناقب ابن المغازلي: ١٧١ بتفاوت يسير.

لكن أيّ عمر ندعو بطوله؟! ذلك هو العمر الذي نتقرب فيه نحو الله، ونتزوّد من أيامه ولياليه نحو الدار الآخرة.

ولذا قال ﷺ: «وَعَمَّرَنِي مَا كَانَ عُمُرِي بِذَلِكَ _ أَي مَبْذُولاً _ فِي طَاعَتِكَ، فَإِذَا كَانَ عُمُرِي مَرْتَعاً لِلشَّيْطَانِ فَأَقْبِضْنِي إِلَيْكَ قَبْلَ أَنْ يَسْبِقَ مَقْتِكَ إِلَيَّ، أَوْ يَسْتَحْكِمَ غَضَبَكَ عَلَيَّ».

لأنّ القلب حينها يسودّ ويتكدرّ بالمعاصي ينزل مقت الله على صاحب ذلك القلب، ويستحكم عليه غضب الله حيث لا أمل في النجاة بعدئذٍ إلا من رحم الله.

مرتعا للشيطان:

حين يعصي الإنسان فذاك يعني أنّ الشيطان قد نفذ في قلبه، وإذا تكرّرت المعصية تحوّل القلب إلى (مرتعا للشيطان) وخرجت منه جنود الرحمن ونسي ذكر الله، كما قال تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ (المجادلة: ١٩).

عن مسعدة بن صدقة، عن جعفر بن محمّد، عن أبيه عليه السلام، قال: «قال رسول الله ﷺ: أربعم يمتن القلب: الذنب على الذنب، وكثرة مناقشة النساء _ يعني محادثتهنَّ _، وممارة الأحمق تقول ويقول ولا يرجع إلى خير [أبدًا]، ومجالسة الموتى، ف قيل له: يا رسول الله، وما الموتى؟ قال: «كلُّ غنيٍّ مترفٍ»^(١).

أسباب تسلط إبليس:

ذكرنا سابقاً رواية عن يونس، عن بعض أصحابه، عن أبي عبد الله

(١) الخصال: ٢٢٨ / ح ٦٥.

٨٦ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

الصادق عليه السلام، قال: «قال رسول الله ﷺ: بينما موسى عليه السلام جالساً إذ أقبل إبليس وعليه برنس ذو ألوان، فلما دنى من موسى عليه السلام خلع البرنس وقام إلى موسى فسلم عليه، فقال له موسى: من أنت؟ فقال: أنا إبليس، قال: أنت، فلا قرب الله دارك، قال: إني إنما جئت لأسلم عليك لمكانك من الله، قال: فقال له موسى عليه السلام: فما هذا البرنس؟ قال: به أختطف قلوب بني آدم، فقال موسى: فأخبرني بالذنب الذي إذا أذنبه ابن آدم استحوذت عليه، قال: إذا أعجبته نفسه، واستكثر عمله، وصغر في عينه ذنبه»^(١).

مواقعة الذنب:

عن فطر بن خليفة، عن الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام، قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، صعد إبليس جبلاً بمكة يقال له: ثور، فصرخ بأعلى صوته بعفاريته فاجتمعوا إليه، فقالوا: يا سيّدنا، لم دعوتنا؟ قال: نزلت هذه الآية، فمن لها؟ فقام عفريت من الشياطين فقال: أنا لها بكذا وكذا، قال: لست لها، فقام آخر فقال مثل ذلك، فقال: لست لها، فقال الوسواس الخناس: أنا لها، قال: بماذا؟ قال: أعدهم وأمنّيهم حتى يواقعوا الخطيئة، فإذا واقعوا الخطيئة أنسيتهم الاستغفار، فقال: أنت لها، فوكله بها إلى يوم القيامة»^(٢).

ما يطرد الشيطان:

عن إسماعيل بن أبي زياد، عن أبي عبد الله، عن آبائه عليهم السلام أن

(١) الكافي ٢: ٣١٤ / باب العجب / ح ٨.

(٢) أمالي الصدوق: ٥٥١ / ح (٧٣٦/٥).

النبي ﷺ قال لأصحابه: «ألا أخبركم بشيء إن أنتم فعلتموه تباعد الشيطان منكم كما تباعد المشرق من المغرب؟ قالوا: بلى، قال: الصوم يسود وجهه، والصدقة تكسر ظهره، والحب في الله والموازرة على العمل الصالح يقطع دابره، والاستغفار يقطع وتينه...»^(١).

لذا لا بد من مراقبة مكر الشيطان وكيده وخداعه في النفوذ إلى القلب، وإذا نفذ مرة واحدة لا سمح الله فلا بد من العمل بسرعة لإخراجه قبل أن يستقر ويتخذ من قلب الإنسان بيتاً له.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠١)، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ وَلَا يَخْشَى إِلَّا اللَّهَ لَآتِيهِ الْوَسْءُ وَالْغَوْلُ﴾ (آل عمران: ١٣٥).

«اللَّهُمَّ لَا تَدَعْ خَصْلَةَ تُعَابٍ مِنِّي إِلَّا أَصْلَحْتَهَا»:

ويعود الإمام عليه السلام مرة أخرى للدعاء بمكارم الأخلاق بصورة عامة وشمولية قبل أن يدخل في التفاصيل، فيطلب أن يصلح الله تعالى كل خصلة وصفة سيئة تُعاب منه، ويسأل الله أن يُحسّن لديه كل عيب يؤنب ويعاتب عليه لدى الناس، ويسأل الله أن يكمل له كل صفة حسنة (أكرومة) إذا كانت ناقصة.

«وَلَا عَائِبَةٌ أُؤَنَّبُ بِهَا إِلَّا حَسَّنْتَهَا، وَلَا أَكْرُومَةٌ فِي نَاقِصَةٍ إِلَّا أَمَّمْتَهَا»:

وهكذا لا يكتفي الإمام عليه السلام بطلب إصلاح المساوئ، ولا نيل المكارم، بل البلوغ بالمكارم إلى أقصاها وتمامها، فقد يكون الإنسان كريماً

(١) الكافي ٤: ٦٢ / باب ما جاء في فضل الصوم والصائم / ح ٢.

٨٨ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

لكنّه ناقص الكرم، وقد يكون شجاعاً لكنّه ناقص الشجاعة، وقد يكون عفيفاً لكنّه ناقص العفاف، وقد يكون متّقياً لكنّه ناقص التقوى، فعليه أن يسأل الله تعالى كمال الكرم، وكمال الشجاعة، وكمال العفاف، وكمال التقوى، هذا هو معنى: «وَلَا تُكْرِمَنَّ فِي نَاقِصَةٍ إِلَّا أُكْرِمْتَهَا».

* * *

المقطع الخامس

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَأَبْدِلْنِي مِنْ
بَغْضَةِ أَهْلِ الشَّنَانِ الْمَحَبَّةِ، وَمِنْ حَسَدِ أَهْلِ الْبَغْيِ
الْمَوَدَّةَ، وَمِنْ ظَنَّةِ أَهْلِ الصَّلَاحِ الثَّقَّةَ، وَمِنْ عَدَاوَةِ
الْأَذْنِيِّنَ الْوَلَايَةَ، وَمِنْ عُقُوقِ ذَوِي الْأَرْحَامِ الْمَبْرَّةَ، وَمِنْ
خِذْلَانِ الْأَقْرَبِينَ النَّصْرَةَ، وَمِنْ حُبِّ الْمُدَارِينِ
تَصْحِيحِ الْمَقَةِ، وَمِنْ رَدِّ الْمَلَابِسِينَ كَرَمِ الْعِشْرَةِ، وَمِنْ
مَرَارَةِ خَوْفِ الظَّالِمِينَ حَلَاوَةِ الْأَمَنَةِ».

الموجز:

هذا المقطع يرسم الأصل الأساس في التعامل البشري، وهو أصل المحبة والمودة والثقة باعتبار ذلك هو قاعدة الحياة البشرية الصحيحة، ثم يضع بعض المواقف الأخلاقية المتفرعة على ذلك الأصل بدءاً من دائرة الأرحام القريبة، ثم الدائرة الأوسع من المؤمنين الأقربين، وحتى الدائرة الأكثر سعةً والمتمثلة بكل ذوي الحاجات والمراجعين (الملابسين).

معالجة الأمراض القلبية:

لا بد أن نعرف أن الأمراض التي تصيب الإنسان على نوعين: الأمراض البدنية والأمراض القلبية، ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ (البقرة: ١٠)،

٩٠ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

والمقصود بالقلب في الفهم القرآني هو مصدر الاعتقادات والقناعات البشرية، وهو غير الفكر الذي هو مصدر الإدراك النظري، وغير الحواس التي هي مصدر الإدراك المادّي.

قال تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (البقرة: ٧)، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ (الأعراف: ١٧٩)، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج: ٤٦).

حيث يلاحظ من هذه الآية وما قبلها أنّ الإدراك الحسّي موجود لهؤلاء الناس من خلال أدوات الحسّ، والإدراك الفكري والنظري موجود لديهم من خلال سلامة عقولهم، ولكن الاعتقاد المعرفي الواعي مفقود لديهم لعدم سلامة قلوبهم، وهذا ما يُعبّر عنه القرآن بالعقل فيقول: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٧١)، والفقه فيقول: ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ (الأنفال: ٦٥)، بمعنى إدراك واقعياتها وحقيقتها، ومصدر هذا الإدراك هو القلب وليس الدماغ والمخّ.

إنّ هذا القلب _ بهذا المعنى _ يتعرّض لأمراض هي أخطر من الأمراض التي يتعرّض لها البدن.

معالجة القلب:

إنّ معالجة هذه الأمراض القلبية يحتاج إلى عدّة أمور:

١ _ معرفة أهميّة سلامة القلب:

كما أنّ القلب المادّي إذا توقّف عن النبض مات الإنسان، فحياة الإنسان

في الدنيا ونشاطه مربوط بحياة قلبه ونشاطه، فكذلك المسألة بالنسبة لعالم الآخرة، حيث النجاة والهلاك مرتبطان بمدى سلامة القلب أو عدم سلامته، ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء: ٨٩)، هذا الأمر هو الذي يدعوننا للاهتمام البالغ بأحوال قلوبنا وسلامتها من الأمراض.

٢ _ معرفة الأمراض القلبية:

ولا يمكن تحقيق القلب السليم ما لم نعرف الأمراض التي يتعرّض لها، وقد تحدّثت مئات وآلاف النصوص الشريفة عن هذه الأمراض من أجل التنبيه عليها والدعوة للابتعاد والحذر عنها. والأديان وحدها هي التي استطاعت أن تُشخّص هذه الأمراض بشكل دقيق وجيّد، لأنّ الله تعالى أعلم بنا من أنفسنا، فهو أقدر على تشخيص هذه الأمراض والمخاطر.

٣ _ الاهتمام بالمعالجة:

وقد يعرف المريض أنّه مريض ولكنّه لا يهتمّ بالعلاج لعدم معرفته خطورة المسألة.

ولكن الإسلام نبّه الإنسان على خطورة هذه الأمراض ودعاها للإسراع في معالجتها.

وما جاء في مئات الآيات والأحاديث الشريفة في شرح خطر تلك الأمراض في الدنيا والآخرة مثل الحسد والكبر والحرص وغيرها إنّما هو بهذا السبيل حتّى يندفع الإنسان للخلاص منها.

٤ _ معرفة العلاج وتشخيص البديل:

ولا يمكن النجاة من المرض بدون معرفة العلاج، وتشخيص الحالة السليمة الصحيحة للعمل على الوصول إليها.

٩٢ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

وهذا ما تكفّل به الإسلام أيضاً، فالبخل حالة مرضية والحالة الصحيحة هي الكرم، وهكذا الجبن حالة مرضية والبديل الصحيح هو الشجاعة، وما شاكل ذلك.

٥ _ الاستعانة بالله تعالى:

والله تعالى هو وليّ القلوب، وطبيب القلوب، ومقلّب القلوب، فلا يمكن الوصول لمعالجة أمراض قلوبنا بدون الاستعانة به تعالى، ولهذا جاءت الأدعية الشريفة لتؤكد هذا المعنى: «اللَّهُمَّ طَهِّرْ قَلْبِي مِنَ النِّفَاقِ...»^(١)، «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ إِيمَانًا تُبَاشِرُ بِهِ قَلْبِي...»^(٢)، «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ...»^(٣)، «إِلَهِي قَلْبِي مَحْجُوبٌ...»^(٤).

مناشئ السلوك الأخلاقي:

إنّ الحالة القلبية للإنسان هي منشأ جميع السلوك الأخلاقي الصحيح منه والخطأ، والجيد منه والرديء. إنّ العقوق، والتخاذل، والتعدّي، والغضب، والسرقعة، والكذب، وغير ذلك من الأعمال والتصرّفات المشينة ناشئة من أمراض في قلب الإنسان، وكذلك الصدق، وصلة الرحم، والإنفاق، والإحسان، وقضاء الحاجات، وغيرها فإنّها أيضاً ناشئة من سلامة القلب وصحّته.

(١) مصباح المتهجّد: ٥٩٩ / ح (٦٨/٦٩٢).

(٢) الصحيفة السجّادية: ٢٣٤ / دعاؤه ﷺ في سحر كلّ ليلة من شهر رمضان.

(٣) مصباح المتهجّد: ٧٥ / ح (٩٦/١٢٣).

(٤) بحار الأنوار ٨٤: ٣٤١ / دعاء الصباح.

بعض أمراض القلوب:

الحقد والحسد وسوء الظنّ والعداوة هي بعض الأمراض التي تصيب القلب، ولهذا قال ﷺ:

«وَأَبْدَلْنِي مِنْ بَغْضَةِ أَهْلِ الشَّنَّانِ الْمَحَبَّةَ»، فبدل أن يكون القلب ملوثاً بالأحقاد والضغائن التي هي صفة أهل الشنآن والأحقاد يجب أن يكون القلب مليئاً بالمحبة للآخرين والحنان إليهم والعطف عليهم.

ليس على أساس المصالح والأرباح، وإنما على أساس الحبّ الذاتي للآخرين، فهناك نوعان من القلوب قلوب حاقدة مبغضة بدون سبب، وهناك قلوب طبعها العطف والحبّ للآخرين لمحض الأخوة في الإنسانية والوحدة في البشرية، بل هي مليئة بالرفقة حتّى على الحيوان والنبات، لأنّها مجبولة مطبوعة على الحنان والودّ.

«وَمِنْ حَسَدِ أَهْلِ الْبَغْيِ الْمَوَدَّةَ»:

وبدلاً من الحسد الذي هو صفة أهل البغي والعدوان، نسأل الله تعالى أن يرزقنا المودة والمحبة القلبية.

إبليس ونوح ﷺ:

عن العلاء بن سيابة، عن أبي عبد الله ﷺ، قال: «لَمَّا هَبَطَ نُوحٌ مِنَ السَّفِينَةِ أَتَاهُ إِبْلِيسُ فَقَالَ لَهُ: مَا فِي الْأَرْضِ رَجُلٌ أَعْظَمَ مَنَّةً عَلَيَّ مِنْكَ، دَعَوْتَ اللَّهُ عَلَى هَؤُلَاءِ الْفَسَّاقِ فَأَرْحَتَنِي مِنْهُمْ، أَلَا أَعْلَمُكَ خَصْلَتَيْنِ: إِيَّاكَ وَالْحَسَدَ، فَهُوَ الَّذِي عَمِلَ بِي مَا عَمِلَ، وَإِيَّاكَ وَالْحَرَصَ فَهُوَ الَّذِي عَمِلَ بِأَدَمَ مَا عَمِلَ»^(١).

(١) الخصال: ٥٠ و ٥١ / ح ٦١.

الحسد هو مرض آخر يصيب القلب، وهو ناشئ من المرض الأوّل وهو الحقد، وبدلاً عن أن نحسد الآخرين على ما أعطاهم الله يجب أن يكون قلبنا عامراً بالمودّة والحبّ لهم، لأنّ الحسد^(١) هو من خصال أهل البغي والعدوان.

«وَمِنْ ظَنِّهِ أَهْلِ الصَّلَاحِ الثَّقَّةُ»:

الظنّة بمعنى الشكّ بالآخرين بلا أسباب ولا أدلّة، وإنّما هي حالة مرضية تجعل الإنسان شكّاكاً يسيء الظنّ دائماً.

وهذه الحالة قد يُبتلى بها الصالحون تجاه الآخرين، كما يُبتلى المتطهّرون بالوسواس، لأنّهم يحرصون بشدّة على الطهارة فيصابون بالوسوسة، وأهل الصلاح لشدّة حرصهم على الصلاح قد يصابون بمرض فقد الثقة بالآخرين مطلقاً، ولأنّ هذه الحالة هي حالة مرضية فقد قال ﷺ وسأل الله تعالى أن يُبدله بالثقة، فالصالحون لا يجوز لهم أن يتهموا الآخرين ويشكّوا فيهم بدون مبرّرات كافية، وإنّما على طريقة الوسوسة وتشكيك الشياطين.

«وَمِنْ عَدَاوَةِ^(٢) الْأَدْنِيْنَ الْوَلَايَةِ»:

وبدلاً من أن نعادي القريين إلينا في العشيرة والمحلّة والعمل

(١) جاء في ذمّ الحسد عن جرّاح المدائني، عن أبي عبد الله ﷺ، قال: «إنّ الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب». (الكافي ٢: ٣٠٦ / باب الحسد / ح ٢). (المؤلّف).

(٢) عن الوليد بن صبيح، قال: سمعت أبا عبد الله ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ: «ما عهد إليّ جبرئيل ﷺ في شيء ما عهد إليّ في معاداة الرجال». (الكافي ٢: ٣٠٢ / باب المراء والخصومة ومعاداة الرجال / ح ١١).

وعن أمير المؤمنين ﷺ، قال: «عداوة الأقارب أمّصّ من لسع العقارب». (عيون الحكم والمواعظ: ٣٣٩). (المؤلّف).

المقطع الخامس..... ٩٥

والمذهب يجب أن نوالي هؤلاء، لأنَّ ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ (التوبة: ٧١).

المحبة في الله:

عن أبي بصير، قال: سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: «إنَّ
المتحابين في الله يوم القيامة على منابر من نور قد أضاء نور أجسادهم
ونور منابرهم كل شيء حتى يُعرفوا به، فيقال: هؤلاء المتحابون في
الله»^(١).

وروي أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: «هل عملت لي عملاً
قطاً؟»، قال: «صليت لك، وصمت، وتصدقت، وذكرت لك»، قال الله
تبارك وتعالى: «أما الصلاة فلك برهان، والصوم جنة، والصدقة ظل،
والذكر نور، فأَيُّ عمل عملت لي؟»، قال موسى عليه السلام: «دلني على
العمل الذي هو لك»، قال: «يا موسى، هل واليت لي ولياً؟ وهل
عاديت لي عدواً قطاً؟»، فعلم موسى أن أفضل الأعمال الحب في الله،
والبغض في الله»^(٢).

إنَّ القلب يجب أن تُربيه على حالة الحب والولاية والثقة، ونُحذِّره
وننقذه من مرض الحقد والحسد والضغينة.

أين المتحابون؟

عن أبي حمزة الثمالي، عن علي بن الحسين عليهما السلام، قال: «إذا جمع الله
عليه السلام الأولين والآخرين قام منادٍ فنادى يُسمع الناس فيقول: أين

(١) المحاسن ١: ٢٦٥ / ح ٣٣٩.

(٢) الدعوات للراوندي: ٢٨ / ح ٥٠.

٩٦ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

المتحابون في الله؟»، قال: «فيقوم عنق من الناس، فيقال لهم: اذهبوا إلى الجنة بغير حساب»، قال: «فتلقاهم الملائكة فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة بغير حساب»، قال: «فيقولون: فأبى ضرب أنتم من الناس؟ فيقولون: نحن المتحابون في الله»، قال: «فيقولون: وأي شيء كانت أعمالكم؟ قالوا: كنا نحب في الله ونبغض في الله»، قال: «فيقولون: نعم أجر العاملين»^(١).

كيف نتعامل مع الآخرين؟

إنَّ هذا المقطع من الدعاء يرسم الأسس التي يجب اعتمادها في التعامل مع الآخرين، والمناخات التي يتحرَّك فيها قلب الإنسان تجاه الآخرين ممَّن يعرف أو ممَّن لا يعرف.

المحبَّة والولاية والثقة هي المنطلقات التي تُكوِّن الأجواء العامَّة، ثمَّ يتفرَّع على هذه الأسس وتتحرَّك في هذه الأجواء أخلاقيات سلوكية عملية ناشئة من تلك الحالات القلبية.

البرِّ والنصرة والصدق في التعامل وكرم العشرة.

قال ﷺ:

«وَمَنْ عُقُوقِ ذَوِي الْأَرْحَامِ الْمَبْرَّةِ»، أي بدلاً عن أن نكون عاقين قاطعين لأرحامنا يجب أن نكون بارين بهم وصولين لهم، كما نرجو أن يكونوا هم أيضاً بارين بنا.

«وَمَنْ خَذَلَانَ الْأَقْرَبِينَ النَّصْرَةَ»، أي بدلاً عن أن نخذل القريبين منَّا حينما ينتصرون بنا ويطلبون العون منَّا يجب أن ننصرهم بالعون

(١) الكافي ٢: ١٢٦ / باب الحبِّ في الله والبغض في الله / ح ٨.

والمَدَد، ونقف إلى جانبهم في الشدائد التي يتعرَّضون لها^(١)، كما نرجو أن ينصرونا ولا يخذلوننا.

«وَمَنْ حُبَّ الْمَدَارِينَ تَصْحِيحَ الْمُقَّةِ»، ونسألك اللهم بدل الحبِّ الكاذب، والعلاقات القائمة على أساس المجاملة، أن ترزقنا الحبَّ الصادق والصحيح، «تَصْحِيحَ الْمُقَّةِ» أي تصحيح الحبِّ.

إنَّ هناك حبًّا قائمًا على أساس المنافع والمصالح، وهذا هو الحبُّ النفعي، وهناك حبٌّ قائم على أساس الشهوة والهوى، وهناك حبُّ المدارين والمجاملين، وكلُّ هذه الصور مرفوضة، والمطلوب هو الحبُّ القائم على أسس الحقِّ والدين والإنسانية.

«وَمَنْ رَدَّ الْمَلَابِيسِينَ كَرَمَ الْعِشْرَةَ»، وهؤلاء الذين يراجعوننا في أمورهم وحوادثهم، وهو ما عبَّر عنه الإمام عليه السلام بـ «المَلَابِيسِينَ»، كيف نتعامل معهم؟ هل نطردهم ونردِّهم؟ هل نتناقل في الانفتاح عليهم؟ هل نحتجب عنهم وراء الحُجب والموانع؟

الصحيح أن نتعامل معهم بالمعاشرة الكريمة «كَرَمَ الْعِشْرَةَ»، القائمة على أساس التواضع، والمحبة، وتقديم العون، وقضاء الحاجات، والاستقبال بالوجه البشوش، والأخلاق الحسنة.

«وَمِنْ مَرَارَةِ خَوْفِ الظَّالِمِينَ حَلَاوَةَ الْأَمْنَةِ»، الخوف من الظالمين ليس مرضاً قلوبياً، لكنَّه يُنغص العيش، ويقتل السعادة، وقد يجرُّ القلب إلى أمراض أُخرى كالمداهنة والإطاعة للظالم والهروب من أهل الحقِّ

(١) عن أبي حمزة، قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «صلة الأرحام تزكِّي الأعمال، وتنمي الأموال، وتدفع البلوى، وتيسر الحساب، وتُنسئ في الأجل». (الكافي ٢: ١٥٠ / باب صلة الرحم / ح ٤)، فهذه خمسة آثار لصلة الرحم. (المؤلف).

٩٨ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

وغير ذلك، لذا سأل الإمام عليه السلام أن يرزقه الله حلاوة الأمن بدلاً من
مرارة الخوف.

* * *

المقطع السادس

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاجْعَلْ لِي يَدًا عَلَى
مَنْ ظَلَمَنِي، وَلِسَانًا عَلَى مَنْ خَاصَمَنِي، وَظَفَرًا بِمَنْ
عَانَدَنِي، وَهَبْ لِي مَكْرًا عَلَى مَنْ كَايَدَنِي، وَقُدْرَةً عَلَى
مَنْ اضْطَهَدَنِي، وَتَكْذِيبًا لِمَنْ قَصَبَنِي، وَسَلَامَةً لِمَنْ
تَوَعَّدَنِي، وَوَفْقًا لِمَنْ لَطَاعَنِي، وَمُتَابَعَةً مَنِ
أَرَشَدَنِي».

الموجز:

هذا المقطع يرسم أصلاً أخلاقياً ثانياً في دائرة التعامل مع الظالمين المعتدين، وهو أصل المواجهة وعدم الخنوع، والاستعانة بالله تعالى في أداء فريضة الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعدم الاستسلام للظالم ولا الانسحاب أمام خطّ الانحراف، وقد كان الأصل الأوّل الذي أشار إليه الإمام في المقطع السابق هو الأمن من شرهم وظلمهم قائلاً: «وَمِنْ مَرَارَةِ خَوْفِ الظَّالِمِينَ حَلَاوَةَ الأَمْنَةِ».

كيف نتعامل مع الظالمين؟

إنّ أصل المحبّة العامّة التي يجب أن تحكم المجتمع وتكون أساساً للعلاقات يجب أن ينعكس بطريقة صحيحة على دائرة التعامل مع الظالمين والمنحرفين، وهذا هو ما يتحدّث عنه هذا المقطع من الدعاء.

١٠٠ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

فقد يتصوّر البعض أن أصل المحبّة والموادّة البشرية يفرض علينا أن نترك للملوّك ملكهم، ولأهل الدنيا دنياهم، وللمنحرفين انحرافهم، فلا يرون منا إلاّ المحبّة الوداعة، والكلام الجميل، دون أن نلوّث صفاء قلوبنا، وسعة وجداننا بالتعادي معهم والوقوف أمامهم.

وهذه السياسة الأخلاقية هي التي دعت إليها الكنيسة الغربية وقامت عليها الثقافة المعاصرة حيث قالت: (ما لقيصر لقيصر وما لله لله)، والله له الآخرة أمّا الدنيا فهي للقيصرة.

وتأثرت المدرسة السّنية بهذا التفكير أو سبقته حينما خضعت للسلطان الحاكم وفصّلت عدم الخوض في مواجهته، فعادت المسائل الأخلاقية والحلال والحرام لطبقة المحكومين وحدهم دون الحاكمين.

أمّا مدرسة أهل البيت عليهم السلام فإنّها في الوقت الذي تُقرّر وتؤكد أصل المحبّة الإنسانية تؤكد أن الظالمين والمنحرفين لمّا كانوا يُهدّدون سعادة الإنسانية في الدنيا والآخرة فلا بدّ من عدم الاستسلام لهم، والعيش في ظلهم، على أن كلّ ذلك إنّما هو بدافع المحبّة للإنسان، والحرص على سلامة البشر من الانحراف، وليس بدافع الحقد والضغينة، أو بدوافع الثأر للنفس والأنا.

أنظروا ماذا يقول عليه السلام:

«وَأَجْعَلْ لِي يَدًا عَلَى مَنْ ظَلَمَنِي»، و«لِسَانًا عَلَى مَنْ خَاصَمَنِي»، و«ظَفْرًا بِمَنْ عَانَدَنِي»، و«مَكْرَأً عَلَى مَنْ كَايَدَنِي»، و«قُدْرَةً عَلَى مَنْ اضْطَهَدَنِي»، و«تَكْذِيبًا لِمَنْ قَصَبَنِي» وافتريّ عليّ وهتك حرمتي، و«سَلَامَةً مِمَّنْ تَوَعَّدَنِي».

وهكذا فنحن نسأل الله تعالى أن يجعل لنا اليد والقوّة على

المقطع السادس ١٠١

الظالمين، ويلهمنا الدليل والحجّة والبرهان وقدرة البيان وانبساط اللسان لدى محاجة الخصوم المعاندين.

وبهذا يتّضح الفرق الكبير بين ما يدعو إليه مذهب أهل البيت عليهم السلام وبين ما تدعو إليه اتجاهات الاستسلام للظالمين، أو الفرار عن مواجهتهم، والعزلة عن الدنيا هرباً من صراعاتها.

كما أنّ أهل البيت عليهم السلام يُقدّمون فهماً دقيقاً للصبر على ظلم الظالمين، فهو صبر على معاناة المواجهة معهم، وصبر على ما ينالنا منهم نتيجة الثبات على المبدأ، ولو لا هذا الثبات لم يكن ينالنا منهم الظلم والاضطهاد.

إِنَّ كَلَّ الْإِسْلَامِ جُمِعَ فِي كَلِمَتَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: ﴿لَا تُظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْتِغُوا فَكْرًا فَكْرًا مِنْكُمْ رُؤُسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٩).

الإسلام ليس فقط أن لا نظلم وإنّما أن لا نقبل الظلم علينا.

الطاعة للمرشدين:

ثمّ يقرّر الإمام عليه السلام أصلاً آخر في طريق مواجهة الظالمين، والعمل في سبيل الحقّ، وهذا الأصل هو التوحد والتعاون والاستفادة من كلّ الطاقات.

«وَوَفَّقَنِي لِطَاعَةِ مَنْ سَدَّدَنِي، وَمُتَابَعَةِ مَنْ أَرْشَدَنِي»:

إنّ مبدأ المشاورة والاسترشاد، ثمّ مبدأ الطاعة والاتباع هما مبدئان مهمّان جدّاً في بناء الحياة الاجتماعية السعيدة.

وبعض الناس وكثير من المؤمنين قد يغفل عن هذه الحقيقة،

١٠٢ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

حقيقة حاجته للآخرين ورأيهم والتشاور معهم والانسجام معهم من أجل تكوين صف واحد يقاتل في سبيل الله، وهذا الصف الواحد لا يتحقق بدون تشاور وانسجام، ثم متابعة وإطاعة.

يخطأ البعض حينما يتصور أنه يجب أن يكون مستقلاً في آرائه لا يخضع لهذا ولا يتأثر بذلك بحجة رفض التبعية.

ولكن أهل البيت عليهم السلام علمونا شيئاً آخر، علمونا ودعونا إلى التزام مبدأ الطاعة والاتباع لأهل التوجيه والرشد، والتوافق والانسجام مع الآخرين ومواكبتهم في الطريق.

قد يتصور البعض أن الطاعة والاتباع نقص، ولكن الحقيقة عكس ذلك فالطاعة لمن يُسَدِّدنا، ومتابعة من يرشدنا هي دليل على عمق الوعي، والإرادة الإلهية البعيدة عن الأنانية.

كما يجب علينا أن نُقلد في المسائل الفقهية ولا نعتبر ذلك عاراً ونقصاً، هكذا في المسائل الاجتماعية والسياسية لا بد أن نخضع فيها لمن هم أكثر منا تجربة وخبرة.

نصيحة جبرئيل:

إن رسول الله ﷺ رغم أنه أشرف الخلق لكنه كان يطلب النصيحة من جبرئيل عليه السلام حيث ورد عن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: «قال رسول الله ﷺ لجبرئيل: عطني، فقال: يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه...»^(١).

(١) الخصال: ٧ / ح ١٩.

موسى والخضر عليهما السلام:

وقد ضرب الله لنا مثلاً قصّة موسى عليه السلام وهو نبي من أولي العزم لكنه لما رأى العبد الصالح الخضر قال له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ (الكهف: ٦٦) (١).

(١) عن جعفر بن محمد بن عمار، عن أبيه، عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال: «إن الخضر كان نبياً مرسلًا بعثه الله تبارك وتعالى إلى قومه فدعاهم إلى توحيده والإقرار بأنبيائه ورسوله وكتبه، وكانت آيته أنه كان لا يجلس على خشبة يابسة ولا أرض بيضاء إلا أزهرت خضراً، وإنما سُمِّي خضراً لذلك، وكان اسمه باليا بن ملكان بن عابر بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام، وإن موسى لما كلمه الله تكليماً وأنزل عليه التوراة وكتب له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء، وجعل آيته في يده وعصاه وفي الطوفان والجرذ والقمل والضفادع والدم وفتق البحر، وغرق الله فرعون وجنوده، وعملت البشرية فيه حتى قال في نفسه: ما أرى أن الله خلق خلقاً أعلم مني. فأوحى الله إلى جبرئيل: يا جبرئيل، أدرك عبي موسى قبل أن يهلك، وقل له: إن عند ملتقى البحرين رجلاً عابداً فأتبعه وتعلم منه، فهبط جبرئيل على موسى بما أمره به ربه، فعلم موسى أن ذلك لما حدثت به نفسه، فمضى هو وفتاه يوشع بن نون عليه السلام حتى انتهيا إلى ملتقى البحرين، فوجدا هناك الخضر عليه السلام يعبد الله، كما قال في كتابه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾. قال موسى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾؟ قال له الخضر: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، لآتي وكنت بعلم لا تطيقه ووكنت أنت بعلم لا أطيقه. قال موسى له: بل أستطيع معك صبراً، فقال له الخضر: إن القياس لا مجال له في علم الله وأمره، ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾؟ قال موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾، فلما استثنى المشية قبله. قال: ﴿فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾، فقال موسى عليه السلام: لك ذلك علي، ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ الخضر عليه السلام، فقال له موسى عليه السلام: ﴿أَخْرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾، قال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، قال موسى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ أي بما تركت من أمرك، ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله الخضر عليه السلام، فغضب موسى وأخذ بتلابيبه وقال له: ﴿أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾. ↵

⇒ قال له الخضر: إنَّ العقول لا تحكم على أمر الله تعالى ذكره، بل أمر الله يحكم عليها، فسلم لما ترى مني واصبر عليه، فقد كنت علمت أنك لن تستطيع معي صبراً، قال موسى: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ ٧٦ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ هِيَ النَّاصِرَةُ، وَإِلَيْهَا تُنْسَبُ النَّصَارَى، ﴿اسْتَطَعْنَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾، فوضع الخضر ﷺ يده عليه ﴿فَأَقَامَهُ﴾، فقال له موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾. قال له الخضر: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأْتِيبُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾. فقال: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحٌ﴾ ٧٧ ﴿غَضَبًا﴾، فأردت بما فعلت أن تبقى لهم ولا يغضبهم الملك عليها، فنسب الأناية في هذا الفعل إلى نفسه لعله ذكر التعيب، لأنه أراد أن يعيبها عند الملك إذا شاهدها فلا يغضب المساكين عليها، وأراد الله ﷻ صلاحهم بما أمره به من ذلك، ثم قال: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ وطلع كافراً، وعلم الله تعالى ذكره إن بقي كافراً أبواه وافتتنا به وضلاً بإضلاله إياهما، فأمرني الله تعالى ذكره بقتله، وأراد بذلك نقلهم إلى محل كرامته في العاقبة، فاشترك بالأناية بقوله: ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ ٧٨ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَوَةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾، وإنما اشترك في الأناية لأنه خشي والله لا يخشى، لأنه لا يفوته شيء ولا يمتنع عليه أحد وأراده، وإنما خشي الخضر من أن يحال بينه وبين ما أمر فيه فلا يدرك ثواب الإمضاء فيه، ووقع في نفسه أن الله تعالى ذكره جعله سبباً لرحمة أبي الغلام فعمل فيه وسط الأمر من البشرية مثل ما كان عمل في موسى ﷺ، لأنه صار في الوقت مخبراً، وكليم الله موسى ﷺ مخبراً، ولم يكن ذلك باستحقاق للخضر ﷺ للرتبة على موسى ﷺ، وهو أفضل من الخضر، بل كان لاستحقاق موسى لتبيين، ثم قال: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾، ولم يكن ذلك كنز بذهب ولا فضة، ولكن كان لوحاً من ذهب فيه مكتوب: عجب لمن أيقن بالموت كيف يفرح؟! عجب لمن أيقن بالقدر كيف يحزن؟! عجب لمن أيقن أن البعث حق كيف يظلم؟! عجب لمن يرى الدنيا وتصرف أهلها حالاً بعد حال كيف يطمئن إليها؟! وكان أبوهما صالحاً، كان بينهما وبين هذا الأب الصالح سبعون أباً، فحفظها الله بصلاحه، ثم قال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾، فتريراً من الأناية في آخر القصص، ونسب الإرادة كلها إلى الله تعالى ذكره في ذلك، لأنه لم يكن بقي شيء مما فعله فيُخبر به بعد، ويصير موسى ﷺ به مخبراً ومصغياً ⇐

خطر الغرور:

والقرآن الكريم يجعل أحد صفات المؤمنين وخصائصهم مسألة الاستماع وقبول النصح حيث يقول: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ (الزمر: ١٨)، إنَّ المؤمن يجب أن يحذر من خطر الغرور بنفسه والذي يدعوه إلى عدم الاستماع لرأي الآخرين، ولا الانسجام معهم تعصباً لرأيه وذاته.

لقد كانت مشكلة إبليس كما يشرحها القرآن الكريم هي هذه المشكلة، ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (الأعراف: ١٢)، فلماذا أخضع له؟!

وهكذا كانت مشكلة (بلعم بن باعورا) الذي يقول عنه القرآن الكريم: ﴿وَاتَّبَعُوا عَلَىٰ هُمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ (الأعراف: ١٧٥ و ١٧٦).

حضور المساجد ومجالس الوعظ وانتخاب الصديق:

ولأجل ذلك دعا الإسلام إلى مجالسة العلماء ومخالطتهم حتَّى جعل «النظر إلى وجه العالم حباً له عبادة»^(١)، ودعا إلى حضور المساجد والجمعة والجماعة لأنَّها مجالات الاستفادة والتوجيه الصحيح.

⇒ إلى كلامه تابِعاً له، فتجرّد من الأنانية والإرادة تجرّد العبد المخلص، ثم صار متنصلاً ممّا أتاه من نسبه الأنانية في أوّل القصّة، ومن ادّعاء الاشتراك في ثاني القصّة، فقال: ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٥ - ٨٢]. (علل الشرائع ١: ٥٩ - ٦٢ / باب ٥٤ / ح ١).

(١) النوادر للراوندي: ١١٠.

١٠٦ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

جاء في الحديث الشريف في فضل حضور المساجد عن الأصمغ بن نباتة، عن علي عليه السلام أنه كان يقول: «من اختلف إلى المسجد أصاب إحدى الثمان: أحماً مستفاداً في الله، أو علماً مستطرفاً، أو آية محكمة، أو رحمة منتظرة، أو كلمة تردّه عن ردئ، أو يسمع كلمة تدلّه على هدى، أو يترك ذنباً خشيةً أو حياءً»^(١).

سبعة في ظلّ عرش الله:

وعن أبي سعيد الخدري أو عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «سبعة يُظلمهم الله صلى الله عليه وآله في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله صلى الله عليه وآله، ورجل قلبه متعلّق بالمسجد إذا خرج منه حتّى يعود إليه، ورجلان كانا في طاعة الله صلى الله عليه وآله فاجتمعا على ذلك وتفرّقا، ورجل ذكر الله صلى الله عليه وآله خالياً ففاضت عيناه من خشية الله صلى الله عليه وآله، ورجل دعت امرأته ذات حسب وجمال، فقال: إني أخاف الله صلى الله عليه وآله، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتّى لا تعلم شماله ما يتصدّق بيمينه»^(٢).

* * *

(١) أمالي الصدوق: ٤٧٣ و ٤٧٤ / ح (١٦/٦٣٧).

(٢) الخصال: ٣٤٢ و ٣٤٣ / ح ٧.

المقطع السابع

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَسَدِّدْ لِي لِأَنَّ
أَعَارِضَ مَنْ غَشَّيَنِي بِالنُّصْحِ، وَأَجْزِي مَنْ هَجَرَنِي
بِالْبُرِّ، وَأُثِيبَ مَنْ حَرَمَنِي بِالْبَدْلِ، وَأُكْفَى مَنْ قَطَعَنِي
بِالصَّلَاةِ، وَأُخَالِفَ مَنْ اغْتَابَنِي إِلَى حُسْنِ الذِّكْرِ، وَأَنْ
أَشْكُرَ الْحَسَنَةَ، وَأُغْضِي عَنِ السَّيِّئَةِ».

الموجز:

لقد أوجز الإمام عليه السلام في المقطع السابع ما هي أصول التعامل مع الأعداء الظالمين، المخاصمين، المعاندين، أمّا الآن وفي هذا المقطع فهو يتناول دائرة الأصدقاء والإخوة الذين معنا في الدين والمذهب وربّما اختلفوا أو أساءوا، ما هي أصول التعامل معهم؟ هذا ما يوجزه الإمام عليه السلام في هذا المقطع بسبع خصال تُمثّل الخطّ العامّ للتحرك مع هذه الدائرة.

كيف نتعامل مع الإخوة المخالفين؟

الخطّ العامّ في التعامل مع الناس يقوم على أساس المحبّة والثقة والموادّة والولاية كما سبق.
والخطّ العامّ في التعامل مع الظالمين يقوم على أساس طلب النصر عليهم.

١٠٨ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

ولكن ما هو الخطّ العامّ في التعامل مع الإخوة الذين قد يختلفون معنا، أو يتعدّون علينا، أو يُقَصِّرون في حقوقنا، ويقطعون صلتنا، كيف نتعامل مع المحسن وكيف نتعامل مع المسيء؟ هذا هو ما يجب عنه الإمام عليه السلام في هذا المقطع على طريقة الدعاء، قد يكون من العدل والحقّ أن نواجه الحالة بمثلها فنقطع من قطعنا، ونغتاب من اغتابنا، ونهجر من هجرنا، ونغشّ من غشنا، إلى غير ذلك.

ولكن الأخلاق الإسلامية لا تقبل بذلك، لأنّ الله ﴿يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (النحل: ٩٠)، فليس الصحيح أن نتعامل بالمثل مع تلك الحالات وإن كان ذلك عدلاً، وإنّما الصحيح أن نتعامل بالإحسان والتفضّل، فنقابل من هجرنا بالبرّ والإحسان إليه، ومن غشّنا بالنصح له، ومن حرمننا بالبذل والعطاء، ومن قطعنا بصلته، ومن اغتابنا بحسن الذكر، وأن نشكر من أحسن إلينا ونعفو عمّن أساء إلينا.

خيار العباد:

إنّ أحاديث شريفة كثيرة جاءت في حرمة الغش ووجوب النصح، وحرمة الهجر وفضل التواصل، والعفو عن السيئة، يحسن أن نقرأ بعضاً منها في رواية جامعة عن سليمان، عمّن ذكره، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال:

«سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ خِيَارِ الْعِبَادِ، فَقَالَ: الَّذِينَ إِذَا أَحْسَنُوا اسْتَبْشَرُوا، وَإِذَا أَسَاءُوا اسْتَغْفَرُوا، وَإِذَا أَعْطَوْا شَكَرُوا، وَإِذَا ابْتَلَوْا صَبَرُوا، وَإِذَا غَضِبُوا غَفَرُوا»^(١).

(١) الكافي ٢: ٢٤٠ / باب المؤمن وعلاماته وصفاته / ح ٣١.

التسديد الإلهي:

«وَسَدِّدْني لَأَنْ أُعَارِضَ مَنْ عَشَّني بِالنُّصْحِ»:

التسديد بمعنى التوفيق لإصابة الهدف وانتخاب الموقف

الصحيح.

المؤمن يحتاج إلى تسديد إلهي ولا يمكنه الاستغناء عنه في كل أعماله المعيشية والدينية.

عن محمد بن عيسى، عن بعض أصحابه رفعه، قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «لا يستغني المؤمن عن خصلة وبه الحاجة إلى ثلاث خصال: توفيق من الله تعالى، وواعظ من نفسه، وقبول ممن ينصحه»^(١).

لماذا؟ لأن الشيطان يعبث في عقل ابن آدم، وفي نفسه وقناعاته، فمهما كان الإنسان ذكياً لكنه قد لا يصيب الحقيقة، أو قد يصل إليها لكن الشيطان يصرفه عنها، «وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ» (النمل: ١٤)، «وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ» (الكهف: ٦٣)، ومن هنا كان الإنسان بحاجة إلى تسديد إلهي لإصابة الحقيقة والإذعان لها، وعدم النكران لها، فهناك ناس يقول الله تعالى فيهم: «يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا» (النحل: ٨٣).

كما أن الإنسان بحاجة إلى تسديد إلهي في مواقفه وأعماله وتطهير هوى نفسه، فهذا الهوى يمكن أن يكون شيطانياً ويمكن أن يكون إلهياً، ولأن النفس حينها يُطلق لها العنان يكون هواها شيطانياً.

جاءت كلمة الهوى في القرآن الكريم للتعبير عن الهوى المنحرف: «وَاتَّبِعُوا أَهْوَاءَهُمْ» (محمد: ١٤)، «وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى

(١) المحاسن ٢: ٦٠٤ / ح ٣٣.

١١٠ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

التَّنَفُّسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٥٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٥١﴾ (النازعات: ٤٠ و٤١٩، فلا بدَّ إذن من كبح جماح الهوى والإمساك به وتوجيهه الوجهة الصحيحة من خلال الاستعانة بالله تعالى، والتفكير في عواقب الأمور.

مخالفة الهوى:

ومن هنا فقد جاءت الدعوة الأكيدة في النصوص الشريفة إلى مخالفة الهوى والعمل على خلاف ما تشتهي النفس واعتبار ذلك أحد مؤشرات الصواب حتَّى ورد عن الإمام الكاظم عليه السلام: «وإذا مرَّ بك أمران لا تدري أيُّهما خير وأصوب، فانظر أيُّهما أقرب إلى هواك فخالفه، فإنَّ كثير الصواب في مخالفة هواك»^(١).

المعركة الدائمة مع النفس:

يجب أن نعرف ونشعر دائماً أننا في معركة مع أنفسنا، فلا بدَّ من الحذر من الوقوع في مكائدها كما جاء في الحديث الشريف: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك»^(٢)، ولا بدَّ من التوجُّه إلى أن الشيطان ينفذ إلينا من خلال هوى النفس وشهواتها، وهو يُزيِّن لنا الأخطاء والمعاصي حتَّى نغفل عن قبورها، فتمرض نفوسنا وتفقد طهارتها، «إلهي قَلْبِي مَحْجُوبٌ، وَنَفْسِي مَعْيُوبٌ، وَعَقْلِي مَغْلُوبٌ، وَهُوَائِي غَالِبٌ، وَطَاعَتِي قَلِيلٌ، وَمَعْصِيَتِي كَثِيرٌ...»^(٣).

وجاء في المناجاة: «فِيَاغَوْثَاهُ ثُمَّ وَاعَوْثَاهُ بِكَ يَا اللَّهُ مِنْ هَوَى قَدْ

(١) تحف العقول: ٣٩٨.

(٢) عدَّة الداعي: ٢٩٥؛ عوالي اللئالي ٤: ١١٨ / ح ١٨٧، عن رسول الله ﷺ.

(٣) بحار الأنوار ٨٤: ٣٤١، دعاء الصباح للإمام علي عليه السلام.

المقطع السابع..... ١١١

غَلَبَنِي، وَمِنْ عَدُوٍّ قَدْ اسْتَكَلَبَ عَلِيًّا، وَمِنْ دُنْيَا قَدْ تَزَيَّنَتْ لِي، وَمِنْ نَفْسٍ
أَمَّارَةٍ بِالسُّوءِ إِلَّا مَارِحِمَ رَبِّي»^(١).

قصة يحيى عليه السلام وإبليس:

عن حفص بن غياث، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: «ظهر
إبليس ليحيى بن زكريا عليه السلام وإذا عليه معاليق من كل شيء، فقال له
يحيى: ما هذه المعاليق يا إبليس؟ فقال: هذه الشهوات التي أصبتها من
ابن آدم، قال: فهل لي منها شيء؟ قال: ربما شبعت فثقلتك عن الصلاة
والذكر، قال يحيى: لله عليّ أن لا أملأ بطني من طعام أبداً، وقال إبليس:
لله عليّ أن لا أنصح مسلماً أبداً...»^(٢).

هوى الله تعالى:

وجاء في الأحاديث الشريفة التأكيد على إطاعة وإيثار هوى الله
على هوى النفس، ويضمن الله للعبد دنياه وآخرته، فقد ورد عن أبي
حمزة، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: «قال الله تعالى: وعزّيتي وجلالي
وعظمتي وبهائي وعلوّ ارتفاعي، لا يؤثر عبد مؤمن هوائي على هواه في
شيء من أمر الدنيا إلا جعلت غناه في نفسه، وهمته في آخرته، وضمنت
السموات والأرض رزقه، وكنت له من وراء تجارة كل تاجر»^(٣)^(٤).

(١) الصحيفة السجّادية/ أبطحي: ١٧٥، دعاؤه عليه السلام بعد صلاة الليل، ويُعرف بدعاء الحزين.

(٢) المحاسن ٢: ٤٣٩ و ٤٤٠ / ح ٢٩٧.

(٣) أي أكون أنا ربحه الحقيقي الذي يحصله التجّار من وراء تجارتهم، فهم يرجون المال أمّا
هذا الإنسان فهو يربح الله تعالى ورضاه.

(٤) الكافي ٢: ١٣٧ / باب بدون العنوان / ح ٢.

فهذه أربعة آثار لتقديم هوى الله على هوى النفس.

إنَّ هوى النفس الأمّارة بالسوء في أنْ نقطع من قطعنا، ونهجر من هجرنا، ونغتَاب من اغتابنا، وهكذا. لكن الأخلاق الإسلاميّة، ومحبّة الله تعالى بعباده، وحفظاً لسلامة المجتمع من شيع التقاطعات والصراعات وأنواع التلوّث النفسي، ومن أجل بناء الإنسان بعيداً عن الأنانيات والعصبيّات والثأر للنفس.

الأخلاق الإسلاميّة لا ترضى بالتعامل بالمثل حتّى إذا كان حقّاً، بل تأمر بالإحسان وإيثار هوى الله على هوى النفس.

ولنعد لقراءة بعض الروايات:

رواية في وجوب النصح:

عن السكوني، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أعظم الناس منزلةً عند الله يوم القيامة أمشاهم في أرضه بالنصيحة لخلقه»^(١).

رواية في فضل الصلّة:

عن أبي حمزة، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: «صلّة الأرحام تُحسِّن الخُلُق، وتُسمِحُ الكفّ، وتُطَيِّبُ النفس، وتزيد في الرزق، وتنسى _ تؤجّل _ في الأجل»^(٢).

رواية في فضل البذل والعطاء:

عن عمرو بن أبي المقدم، عن أبيه، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «شيعتنا المتبادلون في ولايتنا، المتحابّون في

(١) الكافي ٢: ٢٠٨ / باب نصيحة المؤمن / ح ٥.

(٢) الكافي ٢: ١٥١ / باب صلّة الرحم / ح ٦.

المقطع السابع..... ١١٣

موَدَّتْنا، المتزاورون في إحياء أمرنا، الذين إن غضبوا لم يظلموا، وإن رضوا لم يسرفوا، بركة على من جاوروا، سلم لمن خالطوا»^(١).

رواية في حرمة الغيبة:

عن السكوني، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: قال رسول الله ﷺ: «الغيبة أسرع في دين الرجل المسلم من الأكلة في جوفه»^(٢).

* * *

(١) الكافي ٢: ٢٣٦ و ٢٣٧ / باب المؤمن وعلاماته وصفاته / ح ٢٤.

(٢) الكافي ٢: ٣٥٧ / باب الغيبة والبهت / ح ١.

المقطع الثامن

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَحَلِّبْنِي بِحِلْيَةِ
الصَّالِحِينَ، وَأَلْبَسْنِي زِينَةَ الْمُتَّقِينَ، فِي بَسْطِ الْعَدْلِ،
وَكَظْمِ الْغَيْظِ، وَإِطْفَاءِ النَّائِرَةِ، وَضَمِّ أَهْلِ الْفُرْقَةِ،
وَإِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَإِفْشَاءِ الْعَارِفَةِ، وَسِتْرِ الْعَائِبَةِ،
وَلِينِ الْعَرِيكَةِ، وَخَفْضِ الْجَنَاحِ، وَحُسْنِ السَّيْرِ،
وَسُكُونِ الرِّيحِ، وَطَيْبِ الْمُخَالَقَةِ، وَالسَّبْقِ إِلَى
الْفَضِيلَةِ، وَإِثَارِ التَّفَضُّلِ، وَتَرْكِ التَّعْيِيرِ، وَالْإِفْضَالِ
عَلَى غَيْرِ الْمُسْتَحِقِّ، وَالْقَوْلِ بِالْحَقِّ وَإِنْ عَزَّ، [وَالصَّمْتِ
عَنِ الْبَاطِلِ وَإِنْ نَفَعَ]، وَاسْتِقْلَالِ الْخَيْرِ وَإِنْ كَثُرَ مِنْ
قَوْلِي وَفِعْلِي، وَاسْتِكْثَارِ الشَّرِّ وَإِنْ قَلَّ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي،
وَأَكْمَلِ ذَلِكَ لِي بِدَوَامِ الطَّاعَةِ، وَلَزُومِ الْجَمَاعَةِ، وَرَفْضِ
أَهْلِ الْبِدْعِ، وَمُسْتَعْمِلِ الرَّأْيِ الْمُخْتَرَعِ».

الموجز:

هذا المقطع يتحدث عن معالم الصلاح والتقوى في الإنسان
كمنهج عام للتحرك، بعد أن تحدّث المقاطع السابقة عن أساس العلاقة
البشرية، وهو المحبة، ثم أصل العلاقة مع العدو، ثم العلاقة مع
الأصدقاء المخالفين.

الصلاح والتقوى:

«وَحَلِّني بِحِلْيَةِ الصَّالِحِينَ»:

(الصلاح) و(التقوى) شعاران رفعهما الإسلام وطلب من جميع المؤمنين الانضواء تحت هذين الشعارين.

أُمَّة الإيْمَان هي أُمَّة الصَّالِحِ والتَّقْوَى، والمجموعة المؤمنة هي مجموعة الصالحين والمتقين، ويوم القيامة يُصنَّف الناس على أساس هذين الشعارين الذين يجب أن لا يفترقا ولا ينفك بعضهما عن البعض الآخر.

قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الشعراء: ٩٠)، وقال تعالى: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (الأنبياء: ٧٥)، ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ (النساء: ٦٩).

ولهذا جاء في الدعاء: «اللَّهُمَّ أَحِقِّني بِصَالِحِ مَنْ مَضَى، وَاجْعَلْني مِنْ صَالِحِ مَنْ بَقِيَ، وَخُذْ بي سَبِيلَ الصَّالِحِينَ، وَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِي بِمَا تُعِينُ بِهِ الصَّالِحِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ»^(١).

وأمر الإسلام بالصلاح فقال: ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٢)، وجعل الصلاح دعاء الأنبياء حتى قال على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لي حُكْمًا وَأَلْحِقْني بِالصَّالِحِينَ﴾ (الشعراء: ٨٣)، وفي الوقت الذي يقول القرآن: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (البقرة: ٢٥٧)، نجده يقول في موضع آخر: ﴿إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٦)، وهكذا نخلص إلى

(١) الصحيفة السجادية: ٢٣٢ / دعاؤه عليه السلام في سحر كل ليلة من شهر رمضان.

هذا المعنى إن الدين والإسلام والإيمان والتقوى يرادف ويلتقي دائماً مع الصلاح والإحسان، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (النحل: ١٢٨)، فلا يمكن أن يكون المؤمن إلا صالحاً ومن الصالحين، ولا يمكن أن يكون الإنسان الصالح إلا من المؤمنين المتقين.

هذا الأمر هو الذي جاءت الإشارة إليه في هذا المقطع من الدعاء: «وَحَلَّنِي بِحِلْيَةِ الصَّالِحِينَ، وَالْبِسْنِي زِينَةَ الْمُتَّقِينَ».

وجعل ميراث الأرض للصالحين فقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠٥).

بينما جعل العاقبة للمتقين حينما قال: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٨)، الأمر الذي يؤكد الترادف العملي والخارجي بين التقوى والصلاح، فالعاقبة للمتقين وهم الصالحون أنفسهم، والأرض يرثها الصالحون وهم المتقون أنفسهم.

مراحل السلوك:

يذكر أهل المعرفة السالكون إلى الله تعالى أن أول منزل من منازل السلوك، وأول خطوة في الطريق إلى الله تعالى والاقتراب منه هي خطوة (التخلي)، والخطوة الثانية هي (التحلي)، والمقصود بالتخلي الابتعاد عن الذنوب مطلقاً، وتخليية النفس من الأمراض القلبية والآثام الباطنية المختلفة، ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ (الأنعام: ١٢٠)، فالذنوب العملية هي ظاهر الإثم، والذنوب القلبية كالحسد والبخل وغيرها هي من الذنوب الباطنية.

وعلى الإنسان السالك نحو الله تعالى أن يبدأ بالخطوة الأولى فيطهر نفسه من جميع الذنوب والآثام، ﴿إِلَهِي فَاسْأَلْكَ بِنَا سُبُلِ الْوُصُولِ

١١٨ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

إِلَيْكَ، وَسَيِّرْنَا فِي أَقْرَبِ الطُّرُقِ لِلْوُفُودِ عَلَيْكَ، وَقَرِّبْ عَلَيْنَا الْبَعِيدَ،
وَسَهِّلْ عَلَيْنَا الْعَسِيرَ الشَّدِيدَ، وَأَلْحِقْنَا بِعِبَادِكَ الَّذِينَ هُمْ بِالْبِدَارِ إِلَيْكَ
يُسَارِعُونَ»^(١).

هذه الخطوة هي المعبر عنها في الروايات بعنوان (الورع)، والذي
هو أوّل درجة من درجات النبوة، وهو أفضل الأعمال وأهمّها حتّى قال
رسول الله ﷺ للإمام عليّ عليه السلام حين سأله في شهر رمضان: «يا رسول
الله، أيّ الأعمال أفضل في هذا الشهر؟ فقال ﷺ: «يا أبا الحسن، أفضل
الأعمال في هذا الشهر الورع عن محارم الله ﷻ»^(٢).
«وَأَلْبِسْنِي زِينَةَ الْمُتَّقِينَ»:

والتقوى هي عبارة أخرى عن هذه الخطوة، لأنّ معنى التقوى اتّقاء
غضب الله، وعدم التعرّض إلى سخطه بارتكاب المعاصي، ولعلّ الإمام في قوله:
«وَأَلْبِسْنِي زِينَةَ الْمُتَّقِينَ»، يشير إلى هذه الخطوة في مراتبها العليا.
والخطوة الثانية هي خطوة (التحلي) بمعنى اكتساب الصفات
الحسنة والقيام بالأعمال الصالحة، فبعد أن ينزع الإنسان ثوب المعاصي
يجب أن يلبس حلية الطاعة، وإلى هذا المعنى يشير عليه السلام بالقول:
«وَحَلِّئِي بِحَلِيَّةِ الصَّالِحِينَ».

معالم الصلاح والتقوى:

ولكن التقوى والصلاح ليس مجرد ادّعاء، ولا ممارسة طقوس
عبادية فحسب، بل لهما علامات ومعالم تظهر على سلوك الإنسان

(١) الصحيفة السجّادية: ٤١١ / في مناجاة المريدين.

(٢) أمالي الصدوق: ١٥٥ / ح (٤ / ١٤٩).

المقطع الثامن ١١٩

الصالح المتَّقِي، وإذا لم تظهر على سلوكه تلك الآثار، فإنَّ صلاحه وتقواه موضع شكِّ واستفهام.

إنَّ الملفت للنظر جدًّا في هذا الدعاء وفي هذا المقطع بالذات هو طريقة تحديد تلك المعالم، وتشخيص تلك الحلية والزينة.

فهنا لم ترد مسألة البكاء من خشية الله، أو كثرة الصوم والصلاة، ولم ترد مسألة الإيمان بالله ورسوله وطاعته واجتناب معصيته، رغم أنَّ تلك الأمور هي جوهر الصلاح والتقوى وأساسهما، وإنَّما وردت في هذا المقطع من الدعاء وبشكل مركَّز وواضح جدًّا حالات وشؤون ترتبط كلُّها بالحضور الاجتماعي، وخدمة الناس، وإصلاح المجتمع.

طريقان للسلوك:

يذكر السالكون إلى الله تعالى وأهل المعرفة والعلم أنَّ هناك طريقين في السلوك إلى الله تعالى:

أحدهما: الطريق الأنفسي، طريق التعبُّد الذاتي من خلال مراجعة النفس والانقطاع إلى الله تعالى.

ثانيهما: الطريق الآفاقي، طريق السير في الآفاق والوصول إلى الله تعالى عبر خدمة عباده.

وقد دعا الإسلام وبخاصَّة أهل البيت عليهم السلام إلى التزام هذين الطريقين معاً، بل اعتبر الطريق الثاني هو الأقرب والأسرع والأفضل، حتَّى ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصيَّته: «صَلَّحُ ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ»^(١).

(١) نهج البلاغة: ٤٢١ / ح ٤٧.

١٢٠ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

وبهذا يجب أن نعرف أن الأعمال الصالحة من خلال خدمة الآخرين هي من أفضل العبادات، وإنَّ طريق العزلة عن المجتمع، والانقطاع عن الأهل والأقرباء والعشيرة والناس هو عمل غير مقبول.

عشرون خصلة في المنهج العام:

لقد شرح الإمام في المقاطع السابقة من الدعاء ما هو الأصل والأساس في التعامل مع الناس (وهو المحبة).

ثمَّ شرح ما هو الأصل والمبدأ في التعامل مع الظالمين (وهو الرفض).
ثمَّ شرح ما هو الأصل مع الأصدقاء الذين قد نختلف معهم (وهو الإحسان).

وفي هذا المقطع من الدعاء يذكر الإمام عشرين موقفاً أخلاقياً يجب أن نتحلَّى بها باعتبارها علامة التقوى وسيماء الصلاح، وباعتبار هذه المواقف تمثّل المنهج العام في التعامل مع المجتمع، وقد أشرنا إلى هذه المفردات في بداية هذا المقطع وسوف نذكر شيئاً يسيراً ممَّا جاء فيها بشكل تفصيلي.

ثمَّ أضاف الإمام إلى هذه الخصال العشرين ثلاثة مواقف اعتبرها تكميلاً وكماً لتلك الخصال حين قال: «بِدَوَامِ الطَّاعَةِ، وَلُزُومِ الْجَمَاعَةِ، وَرَفْضِ أَهْلِ الْبِدْعِ»، وسوف نتحدَّث عن ذلك إن شاء الله.

إنَّما يتقبَّل الله من المتقين:

روي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: «إِنَّ مَنْ أَتْبَعَ هَوَاهُ وَأَعْجَبَ بِرَأْيِهِ كَانَ كَرَجَلٍ سَمِعَتْ غَنَاءَ الْعَامَّةِ تُعْظَّمُهُ وَتَسْفَهُهُ، فَأَحْبَبَتْ لِقَاءَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْرِفُنِي لِأَنْظَرِ مَقْدَارَهُ وَمَحَلَّهُ، فَرَأَيْتَهُ قَدْ أَحْدَقَ بِهِ خَلْقَ»

[الكثير] من غشاء العامّة، فوفقت متبذاً عنهم متغشياً بلثام أنظر إليه وإليهم، فما زال يراوهم حتّى خالف طريقهم وفارقهم ولم يقرّ، فتفرّقت العوام عنه لحوائجهم، وتبعته أفتفي أثره، فلم يلبث أن مرّ بخباز فتغفّله فأخذ من دكانه رغيفين مسارقةً، فتعجّبت منه، ثمّ قلت في نفسي: لعلّه معاملة، ثمّ مرّ بعده بصاحب رمان فما زال به حتّى تغفّله فأخذ من عنده رمانتين مسارقةً، فتعجّبت منه، ثمّ قلت في نفسي: لعلّه معاملة، ثمّ أقول: وما حاجته إذاً إلى المسارقة، ثمّ لم أزل أتبعه حتّى مرّ بمريض فوضع الرغيفين والرمانتين بين يديه ومضى، وتبعته حتّى استقرّ في بقعة من الصحراء، فقلت له: يا عبد الله، لقد سمعت بك وأحببت لقاءك، فلقيتك ولكنني رأيت منك ما شغل قلبي، وإني سألتك عنه ليزول به شغل قلبي، قال: ما هو؟ قلت: رأيتك مررت بخباز وسرقت منه رغيفين، ثمّ بصاحب الرمان وسرقت منه رمانتين»، قال: «فقال لي: قبل كلّ شيء حدّثني من أنت؟ قلت: رجل من ولد آدم ﷺ من أمة محمد ﷺ، قال: حدّثني من أنت؟ قلت: رجل من أهل بيت رسول الله ﷺ، قال: أين بلدك؟ قلت: المدينة، قال: لعلّك جعفر بن محمّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليهم، قلت: بلى، فقال لي: فما ينفحك شرف أصلك مع جهلك بما شرّفت به وتركك علم جدّك وأبيك لئلا تنكر ما يجب أن يُحمّد ويُمَدح عليه فاعله؟ قلت: وما هو؟ قال: القرآن كتاب الله، قلت: وما الذي جهلت منه؟ قال: قول الله ﷻ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِثْلِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وأني لمّا سرقت الرغيفين كانت سيّتين ولمّا سرقت الرمانتين كانت سيّتين فهذه أربع سيّات، فلمّا

١٢٢ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

تصدّقت بكلّ [واحد] منها كان لي [بها] أربعين حسنة فانتقص من أربعين حسنة أربع سيئات بقي لي ستّ وثلاثون حسنة. قلت: ثكلتك أمك، أنت الجاهل بكتاب الله، أما سمعت أنّه ﷺ يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]؟ إِنَّكَ لَمَّا سَرَقْتَ رَغِيفَيْنِ كَانَتْ سَيِّئَتَيْنِ، وَلَمَّا سَرَقْتَ رَمَانَتَيْنِ كَانَتْ أَيْضاً سَيِّئَتَيْنِ، وَلَمَّا دَفَعْتَهُمَا إِلَى غَيْرِ صَاحِبِيهِمَا بِغَيْرِ أَمْرٍ صَاحِبِيهِمَا كُنْتَ إِنَّمَا أَضَفْتَ أَرْبَعَ سَيِّئَاتٍ إِلَى أَرْبَعِ سَيِّئَاتٍ وَلَمْ تَضِفْ أَرْبَعِينَ حَسَنَةً إِلَى أَرْبَعِ سَيِّئَاتٍ، فَجَعَلَ يَلَاحِظُنِي فَانصرفت وتركته»^(١).

شرح مفردات:

وقبل أن نستعرض عدداً من الأحاديث والنصوص الشريفة في فضل تلك الأعمال الأخلاقية التي ذكرها الإمام عليه السلام في المنهج العام لأهل الصلاح والتقوى، قد يكون مفيداً شرح بعض الفقرات اللغوية الغامضة:

«بَسْطِ الْعَدْلِ»: نشر العدل وتحكيمه في كلّ المجالات الصغيرة والكبيرة كالعائلة والإخوان والأرحام وغيرها.

«كَظْمِ الْغَيْظِ»: السيطرة على حالات الانفعال النفسي.

«إِطْفَاءِ النَّارِ»: إخماد نار الفتنة.

«ضَمِّ أَهْلِ الْفُرْقَةِ»: محاولة استيعاب الآخرين من المخالفين لنا في الرأي وأصحاب الأمزجة غير السليمة.

«إِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ»: الإصلاح بين المتقاطعين الذين يعيشون حالة البين (البيونة والتهاجر والقطيعة).

(١) معاني الأخبار: ٣٣ - ٣٥ / ح ٤.

المقطع الثامن ١٢٣

«إِفْشَاءِ الْعَارِفَةِ»: نشر المعروف والحديث بأخباره ونماذجه
والتعريف بأصحابه.

«سَتْرِ الْعَائِيَةِ»: ستر ما هو معيب من الآخرين وعدم كشفه.

«لِينِ الْعَرِيكِتَةِ»: الممارسة اللينة الناعمة مع الآخرين، والعريكة ما
يُعتَرَكُ من الإنسان ويواجه به الآخرين من قول وفعل.

«خَفْضِ الْجَنَاحِ»: التواضع والتنازل.

«حُسْنِ السَّيْرِ»: مع الناس.

«سُكُونِ الرِّيحِ»: عدم السرعة في الغضب والانفعال.

«طَيْبِ الْمُخَالَفَةِ»: المعاشرة مع الخلق معاشرة طيبة يُحِبُّونها.

«إِثَارِ التَّفْضُلِ»: نُوْثِرُ أَنْ نَسْبِقَ الْآخِرِينَ فِي صَلَتِهِمُ وَالتَّفْضُلِ
عليهم بالعطاء ولا نتظر أن يسبقونا بذلك.

«تَرْكِ التَّعْيِيرِ»: عدم ذكر عيوب الآخرين ومكاشفتهم بها
وتأنيبهم عليها.

«الإِفْضَالِ عَلَى غَيْرِ المُسْتَحِقِّ»: أن يكون لنا الفضل والإحسان
على الآخرين حتَّى إذا كانوا غير مستحقين لذلك الفضل.

«الْقَوْلِ بِالْحَقِّ وَإِنْ عَزَّ»: المجاهرة بالحق حتَّى إذا قلَّ أنصاره وأصحابه.

«الصَّمْتِ عَنِ الْبَاطِلِ وَإِنْ نَفَعَ»: عدم الدخول في الباطل حتَّى إذا
كان في ذلك مغريات مادية أو معنوية.

«اسْتِقْلَالِ الْخَيْرِ»: نرى أن الخير الذي يصدر منّا هو قليل حتَّى إذا
كان في الظاهر كثيراً.

«اسْتِكْثَارِ الشَّرِّ»: نرى أن الشر الذي يصدر منّا هو كثير وعظيم
حتَّى إذا كان قد صدر مرّة واحدة.

المحقرات من الذنوب:

«وَأَسْتَكْثَرِ الشَّرَّ»:

عن زياد، قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَزَلَ بِأَرْضِ قُرْعَاءَ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: اتُّووا بِحَطْبِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَحْنُ بِأَرْضِ قُرْعَاءَ مَا بَهَا مِنْ حَطْبِ، قَالَ: فليأتِ كُلُّ إنْسَانٍ بِمَا قَدَرَ عَلَيْهِ، فَجَاؤُوا بِهِ حَتَّى رَمَوْا بَيْنَ يَدَيْهِ، بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَكَذَا تَجْتَمِعُ الذُّنُوبُ، ثُمَّ قَالَ: إِيَّاكُمْ وَالْمُحَقَّرَاتِ مِنَ الذُّنُوبِ، فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ طَالِبًا، أَلَا وَإِنَّ طَالِبَهَا يَكْتُبُ ﴿مَا قَدَّمُوا وَأَثَرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ١٢]»^(١).

الطاعة والتوحد والرفض:

«وَأَكْمَلْ ذَلِكَ لِي بِدَوَامِ الطَّاعَةِ»:

وذلك لأنَّ كُلَّ تلك الأعمال الأخلاقية الحسنة يجب أن لا تكون على حساب الطاعة لله تعالى، بل الطاعة لله تعالى هي الأصل المحفوظ في كل تلك الأعمال.

لعلَّ في هذا التأكيد إشارة إلى ما قد يتصوَّر البعض أنَّ الإسلام إنَّما يريد الأخلاق الحسنة، وخدمة الناس، فلا ضرورة للعبادات.

وهذا الفهم فهم انحرافي ومن تزيينات الشيطان، والصحيح أنَّ العبادات والطاعة لله تعالى في جميع أوامره ونواهيه هي الأصل الأصيل لكلِّ أعمالنا.

«وَلَزُومِ الْجَمَاعَةِ»:

على أنَّ كلَّ الطاعات التي نعملها، والأعمال الصالحة التي نُقدِّمها

(١) الكافي ٢: ٢٨٨ / باب الإصرار على الذنب / ح ٣.

يجب أن تكون في ظلّ الانسجام مع الجماعة الصالحة والتوحد معهم وليس الابتعاد والفرقة عنهم.

وفي هذا النصّ تأكيد واضح على أنّ أعمالنا الاجتماعية والثقافية والسياسية يجب أن تكون في إطار الوحدة مع الآخرين والتعاون معهم على البرّ والتقوى وليس بروح الفردانية والانفصالية، وهذا بحث واسع ليس هاهنا محلّه.

إنّ هذه النقطة هي أحد النقاط المهمّة التي حافظت على الكيان الشيعي في قلب المجتمع الإسلامي العامّ، وفي ظلّ كلّ ظروف المطاردة والإرهاب، ولم تستطع كلّ حملات القمع والملاحقة أن تعزلهم عن المجتمع وتهمّش وجودهم فيه.

ما هو المقصود بالجماعة؟

وما يجب أن نعرفه هنا هو أنّ روايات عديدة جاءت لتؤكد أنّ المقصود بالجماعة في أحاديث: «يَدُ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ»^(١)، هي جماعة الحقّ كما جاء عن رسول الله ﷺ: «جَمَاعَةُ أُمَّتِي أَهْلُ الْحَقِّ وَإِنْ قَلَّوْا»^(٢).

«وَرَفُضِ أَهْلِ الْبِدْعِ»:

ولأجل أن لا تضيع الحقائق، ويخمد نور الهدى، وتختلط المفاهيم قال غزالي: «وَرَفُضِ أَهْلِ الْبِدْعِ، وَمُسْتَعْمِلِ الرَّأْيِ الْمُخْتَرَعِ»، إشارة إلى أنّنا في الوقت الذي نسعى للمحافظة على وحدة الأمة المسلمة، ونحافظ على وجودنا وتأثيرنا في تيار الأمة العامّ، إلّا أنّنا إلى جانب ذلك لا نضيع ولا نذوب في صفوف الباطل والجهل والبدع والانحرافات، فنحن

(١) نهج البلاغة: ١٨٤ / ح ١٢٧.

(٢) المحاسن ١: ٢٢٠ / ح ١٢٣.

١٢٦ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

نرفض كلّ ذلك متمسّكين بحقّنا ومبادئنا ووعينا الكامل للقضايا، في
الوقت الذي نُسجّل انسجاماً كاملاً مع مختلف شرائح الأُمَّة ومذاهبها.

* * *

المقطع التاسع

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاجْعَلْ أَوْسَعَ
رِزْقِكَ عَلَيَّ إِذَا كَبِرْتُ، وَأَقْوَى قُوَّتِكَ فِيَّ إِذَا نَصَبْتُ،
وَلَا تَبْتَلِيَنِّي بِالْكَسَلِ عَنْ عِبَادَتِكَ، وَلَا الْعَمَى عَنْ
سَبِيلِكَ، وَلَا بِالتَّعَرُّضِ لِخِلَافِ مَحَبَّتِكَ، وَلَا مُجَامَعَةَ مَنْ
تَفَرَّقَ عَنْكَ، وَلَا مُفَارَقَةَ مَنْ اجْتَمَعَ إِلَيْكَ.
اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي أَصُولُ بِكَ عِنْدَ الضَّرُورَةِ،
وَأَسْأَلُكَ عِنْدَ الْحَاجَةِ، وَأَتَضَرَّعُ إِلَيْكَ عِنْدَ الْمَسْكِنَةِ،
وَلَا تَقْتِنِّي بِالْإِسْتِعَانَةِ بِغَيْرِكَ إِذَا اضْطُرَرْتُ، وَلَا
بِالْخُضُوعِ لِسُؤَالِ غَيْرِكَ إِذَا افْتَقَرْتُ، وَلَا بِالتَّضَرُّعِ إِلَى
مَنْ دُونَكَ إِذَا رَهَبْتُ، فَأَسْتَحِقُّ بِذَلِكَ خِذْلَانَكَ
وَمَنْعَكَ وَإِعْرَاضَكَ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

الموجز:

هذا المقطع يُنظَّم (العلاقة مع الله تعالى) التي يجب أن تقوم على
أساس استشعار الفقر المطلق، ثم التوكُّل والاستعانة المطلقة، ثم جعل
محبَّة الله تعالى هي المقياس في علاقاتنا، مؤكِّداً أنَّ سبب الإعراض
والخذلان الإلهي هو الاستعانة بغيره والتضرُّع إلى سواه، وسؤال مَنْ
دونه.

العلاقة مع الله تعالى:

ماذا نطلب من الله تعالى لأنفسنا؟ وكيف تكون العلاقة بيننا وبينه؟
المقاطع السابقة تحدّثت عن أسس العلاقات الإنسانية، ثمّ تحدّثت
عن العلاقة مع الأعداء، ثمّ العلاقة مع المخالفين، ثمّ رسمت منهج
العلاقة العامّ مع مختلف طبقات المجتمع وشرائحه.
والآن ما هي القيم الأخلاقية التي يجب أن تحكم علاقتنا مع الله
تعالى؟ وماذا نسأل منه تعالى في هذا الشأن؟

الفقر المطلق:

روح الفقر المطلق لله تعالى، واستشعار الحاجة الدائمة إليه، ثمّ
طلب المعونة منه هي التي يجب أن تحكم العلاقة بيننا وبينه تعالى، في
غنانا وفي قوّتنا وفي عبادتنا وفي كلّ مواقع حركتنا وسكوننا.
الرزق من الله، والقوّة من الله، والنشاط للعبادة من الله، والبصيرة
من الله، ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ (النحل: ٥٣)، ﴿يَا أَيُّهَا
النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ (فاطر: ١٥)، ومع استشعار روح الفقر
بأعمق مستوياتها لا بدّ إذن أن ندعو ونتضرّع ونستعين بالله تعالى،
«اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي أَصُولُ بَكَ عِنْدَ الضَّرُورَةِ، وَأَسْأَلُكَ عِنْدَ الْحَاجَةِ».
ونعرف أنّ جميع ما سوى الله فقير إليه، عبد الله، ذليل بين يديه،
خاضع لإرادته، فلماذا نستعين بغير الله؟ ولماذا نلجأ إلى غير الله؟ وهذا
فتنة وانحراف عن جادة العبودية المستقيمة.
«وَلَا تَقْتُنِّي بِالْأَسْتِعَانَةِ بِغَيْرِكَ إِذَا اضْطَرَّرْتُ، وَلَا بِالْخُضُوعِ لِسُؤَالِ
غَيْرِكَ إِذَا افْتَقَرْتُ، وَلَا بِالْتَضَرُّعِ إِلَيَّ مِنْ دُونِكَ إِذَا رَهَبْتُ»:
إننا إذا أعرضنا بوجوهنا عن الله ولجأنا إلى سواه أمكن لسبب

ذلك أن يعرض الله تعالى عنا ويحلّ علينا سخطه وغضبه، «فَأَسْتَحِقُّ بِذَلِكَ خِذْلَانَكَ وَمَنْعَكَ وَإِعْرَاضَكَ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

الفقر المطلق يدعو إلى الاستعانة المطلقة، والاستعانة والثقة المطلقة بالله تدعو إلى الانقطاع المطلق عما سوى الله تعالى. وكل ذلك يدعو أن تكون محبة الله تعالى هي الأساس في علاقتنا، لأننا لا نملك أية مصلحة في محبة ما سوى ذلك، وما سوى الله لا يملك أي شيء يقدمه لنا.

وهذا هو قوله: «وَلَا بِالتَّعَرُّضِ لِخِلَافِ مَحَبَّتِكَ، وَلَا مُجَامَعَةِ مَنْ تَفَرَّقَ عَنْكَ، وَلَا مُفَارَقَةِ مَنْ اجْتَمَعَ إِلَيْكَ».

هذه صورة إجمالية عما يُقرره هذا المقطع من الدعاء.

«وَأَجْعَلْ أَوْسَعَ رِزْقِكَ عَلَيَّ إِذَا كَبُرْتُ»:

الرزق بيد الله تعالى ولا رازق سواه، فعن أبي ولّاد الخنّاط وعبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «من صحّته يقين المرء المسلم أن لا يرضي الناس بسخط الله ولا يلومهم على ما لم يؤتّه الله، فإنّ الرزق لا يسوقه حرص حريص ولا يرده كراهية كاره، ولو أنّ أحدكم فرّ من رزقه كما يفرّ من الموت لأدركه رزقه كما يدركه الموت...»^(١).

لكنّ الله تبارك وتعالى بحكمته جعل عدّة أمور أسباباً للرزق، منها: الجدّ والعمل والسعي لتحصيل الرزق.

أسباب الرزق:

عن جعفر بن إبراهيم، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال:

(١) الكافي ٢: ٥٧ / باب فضل اليقين / ح ٢.

١٣٠ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

«أربعة لا تُستجاب لهم دعوة: رجل جالس في بيته يقول: اللهم ارزقني، فيقال له: ألم أمرك بالطلب؟ ورجل كانت له امرأة فدعا عليها، فيقال له: ألم أجعل أمرها إليك؟ ورجل كان له مال فأفسده فيقول: اللهم ارزقني، فيقال له: ألم أمرك بالاقتصاد؟ ألم أمرك بالإصلاح؟»، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، ورجل كان له مال فأدانه بغير بينة، فيقال له: ألم أمرك بالشهادة؟»^(١).

ومنها: الدعاء والتضرع إلى الله تعالى بطلب الرزق والسعة في الرزق، وقد عقد الشيخ الكليني رحمته الله باباً كاملاً في الكافي لأدعية الرزق، ومن تلك الأدعية أن يدعو في سجوده: «يا خير المسؤولين، ويا خير المعطين، ارزقني وارزق عيالي من فضلك، إنك ذو الفضل العظيم»^(٢).

ومنها: الاستغفار، قال تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ (نوح: ١٠ - ١٢).

ومنها: قراءة القرآن، فعن ابن القدّاح، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «البيت الذي يُقرأ فيه القرآن ويُذكر الله عز وجل فيه تكثر بركته، وتحضره الملائكة، وتهجره الشياطين، ويضيء لأهل السماء كما تضيء الكواكب لأهل الأرض»^(٣).

ومنها: الصدقة والإنفاق في سبيل الله، قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي

(١) الكافي ٢: ٥١١ / باب من لا تُستجاب دعوته / ح ٢.

(٢) الكافي ٢: ٥٥١ / باب الدعاء للرزق / ح ٤.

(٣) الكافي ٢: ٦١٠ / باب البيوت التي يُقرأ فيها القرآن / ح ٣.

المقطع التاسع ١٣١

يُقْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴿البقرة: ٢٤٥﴾،
وقد عبّر عن الصدقة بالقرض، لأنَّ الله تعالى سعيدها لصاحبها.

قصة عبد الله بن مسعود:

لَمَّا مَرَضَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَكَانَ خَازِنًا لِبَيْتِ الْمَالِ فَعَزَلَهُ عِثْمَانُ،
عَادَهُ عِثْمَانُ بِنَ عَمَّانٍ فِي مَرَضِهِ وَكَانَ بَيْنَهُمَا خِلَافٌ وَنَفْرَةٌ، فَقَالَ: مَا
تَشْتَكِي؟ قَالَ: ذُنُوبِي، قَالَ: فَمَا تَشْتَهِي؟ قَالَ: رَحْمَةَ رَبِّي، قَالَ: أَلَا نَدْعُو
لَكَ الطَّيِّبَ؟ قَالَ: الطَّيِّبُ أَمْرُضَنِي، قَالَ: أَلَا أَمْرُكَ بَعْطَائِكَ؟ قَالَ:
مَنْعَتْنِي قَبْلَ الْيَوْمِ فَلَا حَاجَةَ لِي فِيهِ، قَالَ: فَدَعِهِ لِأَهْلِكَ وَعِيَالِكَ، قَالَ: إِنِّي
قَدْ عَلَّمْتَهُمْ شَيْئًا إِذَا قَالُوهُ لَمْ يَفْتَقِرُوا، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:
«مَنْ قَرَأَ الْوَاقِعَةَ كُلَّ لَيْلَةٍ لَمْ يَفْتَقِرْ»^(١).

قصة الفقير مع رسول الله ﷺ:

عَنْ سَالِمِ بْنِ مَكْرَمٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: «اشْتَدَّتْ حَالُ رَجُلٍ مِنْ
أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: لَوْ أَتَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلْتَهُ، فَجَاءَ
إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا رَأَاهُ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: مَنْ سَأَلْنَا أُعْطِينَاهُ وَمَنْ اسْتَعْنَى أُغْنَاهُ
اللَّهُ، فَقَالَ الرَّجُلُ: مَا يَعْنِي غَيْرِي، فَرَجَعَ إِلَى امْرَأَتِهِ فَأَعْلَمَهَا، فَقَالَتْ: إِنَّ رَسُولَ
اللَّهِ ﷺ بَشَّرَ فَأَعْلَمَهُ، فَأَتَاهُ فَلَمَّا رَأَاهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: مَنْ سَأَلْنَا أُعْطِينَاهُ وَمَنْ
اسْتَعْنَى أُغْنَاهُ اللَّهُ، حَتَّى فَعَلَ الرَّجُلُ ذَلِكَ ثَلَاثًا، ثُمَّ ذَهَبَ الرَّجُلُ فَاسْتَعَارَ مِعْوَلًا
ثُمَّ أَتَى الْجَبَلَ، فَصَعَدَهُ فَقَطَعَ حَطْبًا، ثُمَّ جَاءَ بِهِ فَبَاعَهُ بِنِصْفِ مَدٍّ مِنْ دَقِيقٍ، فَرَجَعَ
بِهِ فَأَكَلَهُ، ثُمَّ ذَهَبَ مِنَ الْغَدِ، فَجَاءَ بِأَكْثَرِ مِنْ ذَلِكَ فَبَاعَهُ، فَلَمْ يَزَلْ يَعْمَلُ وَيَجْمَعُ
حَتَّى اشْتَرَى مِعْوَلًا، ثُمَّ جَمَعَ حَتَّى اشْتَرَى بَكْرَيْنِ وَغَلَامًا، ثُمَّ أَثْرَى حَتَّى أَيْسَرَ،

(١) شعب الإيمان ٢: ٤٩١ / ح ٢٤٩٧.

١٣٢ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

فجاء إلى النبي ﷺ فأعلمه كيف جاء يسأله وكيف سمع النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: قلت لك: من سألنا أعطيناها ومن استغنى أغناه الله^(١).
«وَأَقْوَى قُوَّتِكَ فِي إِذَا نَصَبْتُ»:

كل ما عندنا من قوّة فهو من الله تعالى، (لا حول ولا قوّة إلا بالله)، (بحول الله وقوته أقوم وأقعد)، وحتى إرادتنا وعزيمتنا هي من عند الله، ﴿وَمَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ (الإنسان: ٣٠)، ولا يكون شيء في الأرض ولا في السماء إلا بأمر الله وقدرته وإذنه.

عن زكريا بن عمران، عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام، قال: «لا يكون شيء في السماوات ولا في الأرض إلا بسبع: بقضاء وقدر وإرادة ومشية وكتاب وأجل وإذن، فمن زعم غير هذا فقد كذب على الله، أو ردّ على الله عز وجل»^(٢).

وإذا كان الأمر على هذا الحال فلا بدّ أن نسأل من الله تعالى القوّة، خاصّة حينما نبلغ مرحلة الضعف والكبر والكهولة.

«وَلَا تَبْتَلِيَنِّي بِالْكَسَلِ عَنْ عِبَادَتِكَ»:

الكسل هو ابتلاء كالمريض والفقير فلا بدّ أن نستعين بالله منه خاصّة حينما يكون كسلاً عن العبادة وأداء الواجبات.

ولهذا جاء في أدعية الأيام للإمام السجّاد عليه السلام: «اللَّهُمَّ اقْضِ لِي فِي الْأَرْبَعَاءِ أَرْبَعًا: اجْعَلْ قُوَّتِي فِي طَاعَتِكَ، وَنَشَاطِي فِي عِبَادَتِكَ، وَرَغْبَتِي فِي ثَوَابِكَ، وَزُهْدِي فِيهَا يُوجِبُ لِي أَلِيمَ عِقَابِكَ»^(٣).

(١) الكافي ٢: ١٣٩ / باب القناعة / ح ٧.

(٢) الكافي ١: ١٤٩ و ١٥٠ / باب في أنّه لا يكون شيء في السماء والأرض إلا بسبعة / ح ٢.

(٣) الصحيفة السجّادية: ٥٥١ / دعاؤه عليه السلام في يوم الأربعاء.

عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «إني لأبغض الرجل _ أو أبغض للرجل _ أن يكون كسلاناً عن أمر دنياه، ومن كسل عن أمر دنياه فهو عن أمر آخرته أكسل»^(١).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ (النساء: ٤٣).

حيث جاء في تفسير «سكاري» كما ورد عن زرارة، قال: قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «... لا تقم إلى الصلاة متكاسلاً ولا متناعساً ولا متثاقلاً، فإنها من خلال النفاق _ صفات النفاق _، فإن الله سبحانه نهى المؤمنين أن يقوموا إلى الصلاة وهم سكارى يعني سكر النوم»^(٢).

معالجة أسباب الكسل:

والكسل قد يكون ناشئاً من حالة بدنية مرضية مؤقتة فيجب معالجته بالأسباب الطبيعية المعروفة، ولكن الكسل هو في معظم الحالات حالة نفسية ناشئة من فعل الشيطان وصنعه، وهو سبب كل الخبائث ونقاط الضعف البشري.

الكسل عن العبادة قد ينشأ من خداع الشيطان للإنسان بأن هناك ساعة في الوقت وطولاً في العمر وتكرراً في الفرص، فيؤجّل الإنسان صلاته، وحبّه، وجهاده، وعمله الصالح، وغير ذلك.

والكسل قد ينشأ من خداع الشيطان بطريقة أخرى وهي الإشعار بعدم الحاجة الشديدة إلى العبادات والاستغناء عنها أو التوهين من

(١) الكافي ٥: ٨٥ / باب كراهية الكسل / ح ٤.

(٢) الكافي ٣: ٢٩٩ / باب الخشوع في الصلاة وكراهية العبث / ح ١.

١٣٤ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

قيمتها وبالنتيجة لا يُسرِع الإنسان نحوها وقد يتركها تماماً، معتمداً في النجاة والفوز على بعض الأعمال تاركاً واجبات ومستحبات أخرى كثيرة، كمن يقول مثلاً: إِنَّ حَبَّ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَكْفِينِي فَلَا دَاعِي لِلصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

والكسل قد ينشأ من مخادعة شيطانية ثالثة بأن يوسوس للإنسان أنه إذا أسرع إلى صلواته مثلاً وترك العمل والتجارة فسوف يفوته ربح عظيم، بينما يقول القرآن الكريم في جواب هذه المخادعة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ (الجمعة: ٩ و ١٠).

وهناك مخادعات شيطانية أخرى تَجْرُّ الإنسان نحو الكسل.

ولهذا لا بدّ من الحذر من هذه المخادعات وردّ الشبهات الشيطانية التي ترد على قلب الإنسان.

والقرآن الكريم يدعونا دائماً للاستعاذة من الشيطان الرجيم ومكره وخدعه فيقول: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ (الناس: ١ - ٦).

والقرآن الكريم يدعونا للمسارعة في الخيرات والاستباق إليها: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (آل عمران: ١٣٣)، و﴿فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ﴾ (المائدة: ٤٨).

والمطلوب منا هو الاستعداد الدائم والتجهّز للقاء الله قبل حلول الأجل وفوات الفرصة.

جاء في دعاء الإمام السجّاد عليه السلام: «اللَّهُمَّ ارزُقْنِي التَّجَافِي عَن دَارِ الْغُرُورِ، وَالْإِنَابَةَ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالْإِسْتِعْدَادَ لِلْمَوْتِ قَبْلَ حُلُولِ الْقَوْتِ»^(١).

وجاء في حديث شريف عن النبي صلى الله عليه وآله أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ مَلَكًا يَنْزِلُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ يَنَادِي: يَا أَبْنَاءَ الْعَشْرِينَ جَدُوا وَاجْتَهِدُوا، وَيَا أَبْنَاءَ الثَّلَاثِينَ لَا تَغْرَبَنَّكُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَيَا أَبْنَاءَ الْأَرْبَعِينَ مَاذَا أَعَدَدْتُمْ لِلْقَاءِ رَبِّكُمْ؟ وَيَا أَبْنَاءَ الْخَمْسِينَ أَتَأْكُمُ النَّذِيرَ، وَيَا أَبْنَاءَ السِّتِينَ زَرَعِ أَنْ حَصَادَهُ، وَيَا أَبْنَاءَ السَّبْعِينَ نُوْدِي لَكُمْ فَأَجِيبُوا، وَيَا أَبْنَاءَ الثَّمَانِينَ أَتَتَكُمُ السَّاعَةُ وَأَنْتُمْ غَافِلُونَ»^(٢).

وجاء في أحاديث كثيرة الإشارة إلى فضل الإسراع للصلاة حتّى ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إِجَابَةُ الْمُؤَذِّنِ كَفَّارَةٌ لِلذُّنُوبِ، وَالْمَشْيُ إِلَى الْمَسْجِدِ طَاعَةٌ لِلَّهِ وَطَاعَةٌ لِرَسُولِهِ...»^(٣).

كما يؤكّد القرآن الكريم والأحاديث الشريفة أن الإنسان أشدّ ما يكون حاجة لهذه الأعمال الصالحة بعد الموت.

جاء في الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وآله: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ»^(٤)، وفي بعضها: «أَوْ سُنَّةٌ هَدَى يُعْمَلُ بِهَا بَعْدَهُ»^(٥).

(١) الصحيفة السجّادية: ٢٧٧/ وهو الدعاء الذي كان يدعو به الإمام السجّاد عليه السلام حتّى الصباح ليلة عيد الفطر.

(٢) إرشاد القلوب ١: ٣٢.

(٣) بحار الأنوار ٨١: ١٥٤.

(٤) روضة الواعظين: ١١.

(٥) عن الحلبي، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «ليس يتبع الرجل بعد موته من الأجر إلا ثلاث خصال: صدقة أجزاها في حياته فهي تجري بعد موته، وصدقة مبتولة لا تُورث، أو سُنَّةٌ هَدَى يُعْمَلُ بِهَا بَعْدَهُ، أو ولد صالح يدعو له». (الكافي ٧: ٥٦/ باب ما يلحق الميت بعد موته/ ح ٢).

١٣٦ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

وهناك طريقة رابعة من طرق الوسواس الشيطانية التي تدعو الإنسان للكسل عن كثير من الباقيات الصالحات وخدمة الناس والحضور معهم والمشاركة في نصرة الحق، لشبهة أن هذه الأعمال توجب تلوث القلب، والابتلاء بمشاكل الناس وتجلب الشبهات، وأن هذه الأعمال سياسية لا تتناسب مع الإخلاص أو تتنافى مع الدين وأمثال ذلك من الشبهات، فيتقاعس المؤمن حينئذٍ عن المشاركة في عمل خيري، أو مشروع إنساني، أو استجابة لحق التناصر بين المؤمنين، أو إطاعة الولاية الشرعية وأمرها.

لكن القرآن الكريم يجيب على هذه الشبهة، وحينما يشرح قصص الأنبياء وسيرتهم يوضح أنهم في أعلى درجة من مستويات الحضور السياسي ومقارعة الظالمين وقضاء حاجات المحرومين والمساكين، ولم يمنعهم من ذلك مشاكل العمل، ولا كدر صفاء قلوبهم وطهارة أنفسهم معاناة التصدي وإزعاجات التحدي.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ (النساء: ٧٥)، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾﴾ (المدثر: ١ و ٢).
«وَلَا الْعَمَىٰ عَن سَبِيلِكَ»:

لدينا نوعان من العمى: عمى العيون، وعمى القلوب.
إن عمى العيون تظهر آثاره وآلامه في الدنيا، ولكن عمى القلوب تظهر آثاره في الآخرة.

ومشكلة المنحرفين والكافرين أنهم مصابون بعمى القلوب وليس عمى العيون، يقول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج: ٤٦)، ويقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ

المقطع التاسع..... ١٣٧

أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾
قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ
آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١٢٦﴾ (طه: ١٢٤ - ١٢٦)، ويقول
الله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ (الإسراء:
٧٢)، إشارة إلى عمى القلوب.

والعمى القلبي ليس هو كناية وإنما هو حقيقة بحيث يصبح
القلب لا يرى ولا يبصر كل الدلائل المشرقة من حوله وهو ينظر إليها
بعينه ولكن قلبه أعمى ليس لديه أي تفاعل معها، قال تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ
الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا
فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمَنْ
خَلْفَهُمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾ (يس: ٧ - ٩)، وقال
تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف: ٩٨)،
وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ (الإسراء: ٤٥).

كيف ينشأ عمى القلب؟

وإذا كان علينا أن نحذر عمى القلب كما نحذر عمى العين، فإنَّ
علينا أن نعرف كيف ينشأ هذا العمى؟ وما هي أسبابه؟
إنَّ عمى القلب لا ينشأ دفعة واحدة، بل ينشأ بشكل تدريجي، كما
هو في عمى العين عادةً حيث تضعف فتضعف إلى أن تعمي تماماً.
إنَّ الذنوب وعبث الشيطان بالقلب ونسيان ذكر الله تعالى هو
الذي ينتهي تدريجياً إلى عمى القلب.

أُمُور تُقْسِي الْقَلْبَ:

جاء في وصية رسول الله ﷺ للإمام علي عليه السلام: «يا علي، خمسة تُقْسِي الْقَلْبَ وَإِذَا قَسِيَ الْقَلْبَ كَفَرَ الْإِنْسَانُ، وَهُوَ: الذَّنْبُ عَلَى الذَّنْبِ، وَالْأَكْلُ عَلَى الشَّبَعِ، وَظَلْمُ النَّاسِ، وَتَأْخِيرُ الصَّلَاةِ، وَالْأَكْلُ وَالشَّرْبُ بِالشَّمَالِ...، وَخَمْسَةٌ تَجْلُو الْقَلْبَ وَتُذْهِبُ الْقِسَاوَةَ: مَجَالِسَةُ الْعُلَمَاءِ، وَمَسْحُ رَأْسِ الْيَتِيمِ، وَكَثْرَةُ الْاسْتِغْفَارِ بِالْأَسْحَارِ، وَالسَّهْرُ الْكَثِيرُ، وَالصُّومُ»^(١).

يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾^(١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا^(١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى^(١٢٦) ﴿طه: ١٢٤ _ ١٢٦﴾.

جاء في الحديث الشريف عن أبي بصير، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إِذَا أَذْنَبَ الرَّجُلُ خَرَجَ فِي قَلْبِهِ نَكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، فَإِنْ تَابَ انْمَحَتْ وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَغْلِبَ عَلَى قَلْبِهِ فَلَا يَفْلَحُ بَعْدَهَا أَبَدًا»^(٢).
وذلك هو قول الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين: ١٤).

* * *

(١) المواظب العددية: ٢٠٣.

(٢) الكافي ٢: ٢٧١ / باب الذنوب / ح ١٣.

المقطع العاشر

«اللَّهُمَّ اجْعَلْ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِي رُوعِي مِنْ
التَّمَنِّي وَالتَّظَنِّي وَالْحَسَدِ ذِكْرًا لِعَظَمَتِكَ، وَتَفَكُّرًا فِي
قُدْرَتِكَ، وَتَذْبِيرًا عَلَى عَدُوِّكَ، وَمَا أَجْرَى عَلَى لِسَانِي
مِنْ لَفْظَةٍ فُحْشٍ أَوْ هُجْرٍ أَوْ شَتْمٍ عَرَضٍ أَوْ شَهَادَةٍ
بَاطِلٍ أَوْ اغْتِيَابٍ مُؤْمِنٍ غَائِبٍ أَوْ سَبِّ حَاضِرٍ وَمَا
أَشْبَهَ ذَلِكَ نُطْقًا بِالْحَمْدِ لَكَ، وَإِعْرَاقًا فِي الشَّنَاءِ عَلَيْكَ،
وَدَهَابًا فِي تَمْجِيدِكَ، وَشُكْرًا لِنِعْمَتِكَ، وَاعْتِرَافًا
بِإِحْسَانِكَ، وَإِحْصَاءً لِمَنِّكَ».

الموجز:

هذا المقطع يتحدث عن العلاقة مع الشيطان في بعدها الأخلاقي، ويعتبر كل الخصال السيئة هي من فعل الشيطان، ولذا فهو يدعو الله تعالى أن يُبطل فعل الشيطان وأثره ويستبدل تلك الخصال بخصال أخلاقية كريمة هي من فعل جنود الرحمن، مشيراً إلى بعض تلك الخصال في مجال التعامل مع الناس.

الشيطان منشأ الأخلاق السيئة ومصدرها:

مصدر الأخلاق الحسنة هو الرحمن، ومصدر الأخلاق السيئة هو الشيطان، وما يصدر من الإنسان من سلوك أخلاقي هو بالحقبة إماماً من

١٤٠ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

فعل الشيطان أو من فعل الرحمن، والإنسان هو الذي يفتح الفرصة أمام الشيطان للتأثير على فعله فيكون فعله شيطانياً وأخلاقه شيطانية، أو يغلق الأبواب على الشيطان وجنوده ويفتح ساحة صدره إلى جنود الرحمن لتؤثر أثرها.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ إِلَّا إِيْمَانًا وَزَيَّنَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ (الحجرات: ٧)، إن الكفر والفسق والعصيان هي مواقف أخلاقية، والله تعالى هو الذي يجعل قلوب المؤمنين تكرهها وبالعكس تُحبُّ الإيْمَان والعمل الصالح. ويقول تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (الفرقان: ٦٣)، لاحظوا إن هذه المواقف الأخلاقية هي صفة عباد الرحمن الذين يخضع فعلهم للرحمن وليس للشيطان.

ويقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ (المائدة: ٩١)، فهذه الصفات الذميمة هي من فعل الشيطان.

ما هو الشيطان؟

على هذه الأرض ثلاثة كائنات مكلفة: الإنسان، والجان، والشيطان.

الشيطان هو كائن حيّ شغله وطبيعته إغواء الإنسان وإضلاله وعداوته، ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ (فاطر: ٦).

وهذا الكائن الحيّ خُلِقَ منذ خُلِقَ الإنسان، وهو الذي تجسّد في إبليس فأغوى آدم ﷺ ووسوس له، وكانت النتيجة أن هبط آدم ﷺ

إلى الأرض وطرده الله تعالى إبليس من الجنة على أن تكون مهمته في الدنيا إضلال ابن آدم، ﴿قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ (الأعراف: ١٦ و ١٧).

بينما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ (الحجر: ٤٢ _ ٤٤).

الحذر من الشيطان:

إن هذا الكائن الخبيث يحاول أن يكيد بالإنسان ويقهره ويحاربه سواءً في بدنه أو في روحه وقلبه ونفسه، وهو يدور حول ابن آدم حتى يجد طريقاً إلى قلبه لينفذ فيه، فإذا نفذ فيه أصابه بطعنة وجرح، فإذا تاب ابن آدم وذكر الله واستغفره انهزم منه الشيطان والتئم الجرح، وإذا لم يتب ازداد المرض حتى يموت القلب، ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ (المجادلة: ١٩).

القرآن يدعونا دائماً للحذر والانتباه من الوقوع في فخاخ هذا الكائن الخبيث، ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ (الأعراف: ٢٧)، وإنه يحاول أن يجر الإنسان ويتقدمه ويسوقه إلى كل باطل، ولو كشف الغطاء عن هؤلاء العاصين لرأيناهم يتبعون خطوات الشيطان الذي يتقدمهم فيها، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطواتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطواتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (النور: ٢١).

مواضع قرب الشيطان:

عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «لَمَّا دَعَا نُوْحٌ عليه السلام رَبَّهُ وَعَبَّكَ عَلَى قَوْمِهِ أَتَاهُ إِبْلِيسُ لَعْنَهُ اللهُ فَقَالَ: يَا نُوحُ، إِنَّ لَكَ عِنْدِي يَدًا أُرِيدُ أَنْ أَكْفِيكَ عَلَيْهَا، فَقَالَ نُوحٌ: وَاللَّهِ إِنِّي لَبَغِيضٌ إِلَيْكَ أَنْ يَكُونَ لَكَ عِنْدِي يَدٌ، فَمَا هِيَ؟ قَالَ: بَلَى دَعَوْتُ اللهُ عَلَى قَوْمِكَ فَأَغْرَقْتَهُمْ فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ أَغْوِيهِ، فَأَنَا مُسْتَرِيحٌ حَتَّى يَنْشَأَ قَرْنٌ آخَرَ فَأَغْوِيهِمْ، فَقَالَ لَهُ نُوحٌ: مَا الَّذِي تَرِيدُ أَنْ تَكْفِيَنِي بِهِ؟ قَالَ لَهُ: أَذْكَرُنِي فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ فَإِنِّي أَقْرَبُ مَا أَكُونُ إِلَى الْعَبْدِ إِذَا كَانَ فِي إِحْدَاهُنَّ: أَذْكَرُنِي إِذَا غَضِبْتَ، وَذْكَرُنِي إِذَا حَكَمْتَ بَيْنَ اثْنَيْنِ، وَذْكَرُنِي إِذَا كُنْتُ مَعَ امْرَأَةٍ خَالِيًا لَيْسَ مَعَكُمْ أَحَدٌ»^(١).

نفوذ الشيطان في القلب:

إِنَّمَا نُسَمِّي الْأَمْرَاضَ الْبَدَنِيَّةَ أَمْرَاضًا، وَنَعْتَبِرُهَا نَاشِئَةً مِنْ فِعْلِ فَيْرُوسَاتٍ وَمَيْكْرُوبَاتٍ صَغِيرَةٍ تَدْخُلُ الْبَدْنَ، وَلَكِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يَعْتَبِرُ أَنَّ الشَّيْطَانَ هُوَ وَرَاءَ كُلِّ ذَلِكَ، وَهَذِهِ الْفَيْرُوسَاتُ وَالْمَيْكْرُوبَاتُ هِيَ أَدْوَاتُ الشَّيْطَانَ وَجُنُودُهُ، لِأَنَّهُ مَصْدَرُ كُلِّ شَرٍّ مَادِّيٍّ وَمَعْنَوِيٍّ، ﴿وَأَذْكَرُ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ (ص: ٤١)، هَكَذَا قَالَ أَيُّوبُ عليه السلام وَهُوَ فِي مَرَضِهِ، وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِ الشَّيْطَانِ^(٢).

وكذلك قوله: ﴿وَمَا أَنْسَانِيَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكَرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ (الكهف: ٦٣)، هذه هي مقولة يوشع بن نون وصي موسى عليه السلام حينما نسي الحوت، فجعل النسيان من فعل الشيطان.

(١) الخصال: ١٣٢ / ح ١٤٠.

(٢) راجع: تفسير الطبري ١٧: ٧٥.

ولكن الأهم من ذلك هو نفوذ الشيطان في قلب ابن آدم وتأثيره عليه عبر جنوده التي هي الحسد، والكبر، والطمع، والحرص، والجبن، والبخل، وغيرها من الصفات الذميمة التي هي مظاهر لفعل تلك الجنود.

أساليب الشيطان:

القرآن الكريم يُعبر عن محاولات الشيطان للنفوذ والتأثير على قلب ابن آدم بعبارات عديدة:

منها: الإلقاء: قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ (الحج: ٥٢).

ومنها: المس: قال تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ (الأعراف: ٢٠١).

ومنها: الأز: قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ (مريم: ٨٣).

ومنها الوسوسة: قال تعالى: ﴿الَّذِي يُوسُوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ (الناس: ٥ و ٦).

ومنها الوحي: قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ (الأنعام: ١٢١).

ومنها: التخبط: قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ (البقرة: ٢٧٥).

ومهما يكن من فرق بين هذه الأعمال وحدود تأثير الشيطان فيها إلا أنّها تُعبر جميعاً عن محاولة الشيطان لإضلال ابن آدم والنفوذ في قلبه.

الاستعاذة من الشيطان:

ولأنَّ هذا الخطر محقق بالإنسان والشيطان يحوم حوله حتَّى يشاركه أحياناً في الأموال والأولاد، قال تعالى: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (الإسراء: ٦٤).

لأجل ذلك أكَّد القرآن بشكل عجيب على ضرورة الاستعاذة بالله من الشيطان: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ (المؤمنون: ٩٧ و ٩٨).

ومنها: النزغ: ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ (الأعراف: ٢٠٠).

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (النحل: ٩٨).

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾﴾ (الناس: ١ و ٢).

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾﴾ (الفلق: ١ - ٣)، وهو الشيطان الذي يدخل في قلب الإنسان فينث فيه.

﴿وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (آل عمران: ٣٦).

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠١).

الشيطان والنوم عن الصلاة:

عن محمد بن مسلم، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: «إِنَّ لَيْلَ شَيْطَانًا يُقَالُ لَهُ: (الرها)^(١)، فإذا استيقظ العبد وأراد القيام إلى

(١) في المحاسن: (الزهاء).

الصلاة قال له: ليست ساعتك، ثم يستيقظ مرةً أخرى، فيقول له: لم يأن لك، فما يزال كذلك يزيله ويجسه حتى يطلع الفجر، فإذا طلع الفجر بال في أذنه ثم انصاع يمصع بذنبه فخراً ويصبح»^(١).

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب كل عقدة عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقده، فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان»^(٢).

ذكر الله يطرد الشيطان:

إنَّ الشيطان يهرب إذا ذُكِرَ الله تعالى، وكما يجب علينا أن نُطَهِّر أيدينا وأفواهنا لتناول الطعام حيث تذهب الأوساخ وأسباب الأمراض والتلوث البدني، كذلك يجب علينا أن نُطَهِّر أنفسنا بذكر الله تعالى حينما نريد أن نباشر أيَّ عمل مهما كان صغيراً مثل الأكل والشرب والنكاح وغيرها.

فقد ورد أن الإنسان إذا أكل وشرب ولم يذكر اسم الله تعالى شاركه الشيطان في الأكل والشرب، وهكذا في عملية المقاربة الجنسية، وهذا هو تفسير قوله تعالى: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ (الإسراء: ٦٤)، فهو يشترك معنا في العمل التجاري كما يشترك معنا في العمل الجنسي فيتكوّن الأولاد بفعله، ومن هنا جاء التأكيد على استحباب التسمية (بسم الله الرحمن الرحيم) في كل أعمالنا.

(١) روضة الواعظين: ٣٢١؛ المحاسن ١: ٨٦ / ح ٢٥.

(٢) صحيح البخاري ٢: ٤٦.

عوامل تطرد الشيطان:

عن إسماعيل بن أبي زياد، عن أبي عبد الله، عن آبائه عليهم السلام أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ فَعَلْتُمُوهُ تَبَاعَدَ الشَّيْطَانُ مِنْكُمْ كَمَا تَبَاعَدَ الْمَشْرِقُ مِنَ الْمَغْرِبِ؟»، قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «الصَّوْمُ يَسْوُدُّ وَجْهَهُ، وَالصَّدَقَةُ تَكْسِرُ ظَهْرَهُ، وَالْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْمَوَازِرَةُ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ يَقْطَعُ دَابِرَهُ، وَالِاسْتِغْفَارُ يَقْطَعُ وَتِينَهُ...»^(١).

ثلاثة بدل ثلاثة:

يقول الإمام السَّجَّاد عليه السلام: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِي رُوعِي مِنَ التَّمَنِّيِّ وَالتَّظَنِّيِّ وَالْحَسَدِ ذِكْرًا لِعَظَمَتِكَ، وَتَفَكُّرًا فِي قُدْرَتِكَ، وَتَذْهِيرًا عَلَيَّ عَدُوِّكَ».

التمني والتظني والحسد:

التمني: بمعنى الأمان الطويلة الباطلة الوهمية.

التظني: سوء الظن بالآخرين.

الحسد: أن تكره ما تراه عند أخيك من خير وتتمنى زواله.

هذه الخصال الأخلاقية السيئة هي من إلقاء الشيطان في روع ابن آدم وتأثيره على قلبه، ولو كُشف الغطاء عن أبصارنا لرأينا أيدي الشيطان القذرة تعبت في القلب وتضع فيه الحسد وسوء الظن وغير ذلك.

رواية في ذم الحسد:

عن جرّاح المدائني، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: «إِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْإِيمَانَ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطْبَ»^(٢).

(١) الكافي ٤: ٦٢ / باب ما جاء في فضل الصوم والصائم / ح ٢.

(٢) الكافي ٢: ٣٠٦ / باب الحسد / ح ٢.

رواية في سوء الظن:

عن إبراهيم بن عمر اليماني، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إذا اتَّهم المؤمن أخاه انماث الإيمان من قلبه كما ينماث الملح في الماء»^(١).
عن الحسين بن المختار، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام في كلام له: ضع أمر أخيك على أحسنه حتَّى يأتيك ما يغلبك منه، ولا تظننَّ بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً»^(٢).

الذكر والتفكير والتدبير:

لقد جعل الدعاء هذه الأمور الثلاثة بدلاً عن التمني، والتظني، والحسد. إنَّ صرف الفكر إلى ذكر عظمة الله سوف يمنعه ويقطعه طبيعياً من ذكر الآخرين بالسوء، أو صنوف الأحاديث الدنيوية التي هي أماني وهمية لا أكثر. وهكذا يجب شغل العقل بالتفكير في قدرة الله تعالى بدلاً عن التفكير في شؤون الآخرين والبناء على سوء الظنون فيها. وهكذا يجب الاستفادة من قدراتنا وقدرات الآخرين وتوظيفها ضدَّ العدوِّ بدلاً عن التحاسد والتباغض بيننا.

عن سليمان بن خالد، عن الصادق جعفر بن محمد، عن أبيه، عن آبائه عليهم السلام أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام قال: «جمع الخير كلُّه في ثلاث خصال: النظر، والسكوت، والكلام، فكلُّ نظر ليس فيه اعتبار فهو سهو، وكلُّ سكوت ليس فيه فكرة فهو غفلة، وكلُّ كلام ليس فيه ذكر فهو لغو،

(١) الكافي ٢: ٣٦١ / باب التهمة وسوء الظن / ح ١.

(٢) الكافي ٢: ٣٦٢ / باب التهمة وسوء الظن / ح ٣.

١٤٨ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

فطوبى لمن كان نظره عبراً، وسكوته فكراً، وكلامه ذكراً، وبكى على خطيئته، وأمن الناس شره^(١).

أهمية تطهير اللسان:

«وَمَا أَجْرِي عَلَى لِسَانِي مِنْ لَفْظَةٍ فُحْشٍ»:

الفكر والقلب هو أخطر موقع من المواقع التي يحوم حولها الشيطان ويحاول النفوذ إليها.

واللسان هو الموقع الثاني الذي يُترجم كل الحالات القلبية لدى الإنسان ويتهده الشيطان بالتأثير.

إن كل كلمات السوء التي تصدر على لسان ابن آدم هي بوحى الشيطان ونطقه ونفته، ولا يمكن أن تكون تلك الكلمات إلا بفعل أيديه الخبيثة التي تُحرّك القلب أولاً ثم اللسان ثانياً.

إن الإنسان في حالات الغضب والكذب والغيبة يتصور أنه هو الذي يتكلم، ولكن الحقيقة غير ذلك، الحقيقة أن الشيطان يُجري الكلمات على لسانه من دون اختياره أو مع شعوره بالاختيار، مثاله مثال السكران والمجنون، والفرق أن الإنسان هنا ليس له عقل وإرادة وفي تلك الحالات له عقل لكنه مجمّد عن الفعل، وله إرادة لكنها مغلوبة بقهر الشيطان اللعين والعياذ بالله.

قال العرفاء: (القواطع التي تقطع مسيرة الإنسان في التكامل أربعة: كثرة الكلام، كثرة الطعام، كثرة المنام، كثرة المجالسة مع الأنام)^(٢).

(١) أمالي الصدوق: ٧٩ و٨٠ / ح (٢ / ٤٧).

(٢) صراط سلوك للشيخ حسن زاده أملي. (المؤلف).

روايات في مراقبة اللسان:

عن عمر بن يزيد، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «كان في بني إسرائيل رجل فدعا الله أن يرزقه غلاماً ثلاث سنين، فلماً رأى أن الله لا يجيبه قال: يا ربّ أبعد أنا منك فلا تسمعني أم قريب أنت منّي فلا تجيبني؟»، قال: «فأتاه آتٍ في منامه فقال: إنك تدعو الله تعالى منذ ثلاث سنين بلسان بذيء وقلب عات غير تقى ونيّة غير صادقة، فاقلع عن بذائك وليتّق الله قلبك ولتحسن نيّتك»، قال: «ففعّل الرجل ذلك ثمّ دعا الله فولد له غلام»^(١).

ذمُّ الشتم والسبِّ:

عن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «سباب المؤمن فسوق، وقتاله كفر، وأكل لحمه معصية، وحرمة ماله كحرمة دمه»^(٢).

فضل الحمد لله تعالى:

«نُطْقاً بِالْحَمْدِ لَكَ»:

عن المفضّل، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جُعِلت فداك، علّمني دعاءً جامعاً، فقال لي: «احمد الله فإنّه لا يبقى أحدٌ يُصليّ إلاّ دعا لك يقول: سمع الله لمن حمده»^(٣).

(١) الكافي ٢: ٣٢٤ و٣٢٥ / باب البذاء / ح ٧.

(٢) الكافي ٢: ٣٥٩ و٣٦٠ / باب السباب / ح ٢.

(٣) الكافي ٢: ٥٠٣ / باب التحميد والتمجيد / ح ١.

فضل الشكر:

«وَشُكْرًا لِنِعْمَتِكَ»:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ (النمل: ٤٠)، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ (سبأ: ١٣)، ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ (إبراهيم: ٢٨)، ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (إبراهيم: ٧). وجاء في دعاء الجوشن الصغير: «... صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَاجْعَلْنِي لَكَ مِنَ الْعَابِدِينَ، وَلِنِعْمَائِكَ مِنَ الشَّاكِرِينَ، وَلَا لِأَنَّكَ مِنَ الذَّاكِرِينَ، وَارْحَمْنِي بِرَحْمَتِكَ يَا مَالِكَ الرَّاحِمِينَ»^(١).

وفي مناجاة الشاكرين للإمام السجّاد عليه السلام: «إِلَهِي أَذْهَلَنِي عَنْ إِقَامَةِ شُكْرِكَ تَتَابِعُ طَوْلِكَ، وَأَعْجَزَنِي عَنْ إِحْصَاءِ ثَنَائِكَ فَيُضْ فَضْلِكَ، وَشَغَلَنِي عَنْ ذِكْرِ مَحَامِدِكَ تَرَادُفُ عَوَائِدِكَ، وَأَعْيَانِي عَنْ نَشْرِ عَوَارِفِكَ تَوَالِي أَيَادِيكَ، وَهَذَا مَقَامٌ مَنِ اعْتَرَفَ بِسُبُوحِ النِّعْمَاءِ، وَقَابَلَهَا بِالتَّقْصِيرِ، وَشَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ بِالْإِهْمَالِ وَالتَّضْيِيعِ»^(٢).

* * *

(١) مهج الدعوات: ٢٢٥.

(٢) الصحيفة السجّادية: ٤٠٩.

المقطع الحادي عشر

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَلَا أَظْلَمَنَّ وَأَنْتَ
مُطِيقٌ لِلدَّفْعِ عَنِّي، وَلَا أَظْلَمَنَّ وَأَنْتَ الْقَادِرُ عَلَى
الْقَبْضِ مِنِّي، وَلَا أَضِلَّنَّ وَقَدْ أَمَكَّتَكَ هِدَايَتِي، وَلَا
أَفْتَقِرَنَّ وَمِنْ عِنْدِكَ وَسْعِي، وَلَا أَطْغَيْنَنَّ وَمِنْ عِنْدِكَ
وُجْدِي».

الموجز:

يستمرُّ هذا المقطع في التحذير من مكائد الشيطان، بعد أن قال في المقطع السابق: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِي رُوعِي...»، ويشير هنا إلى أنواع أُخرى من فعل الشيطان بعد أن أشار إلى فعله بالقلب وفعله باللسان هو الآن يشير إلى أعمال شيطانية أُخرى هي الظلم والضلال.

الإحاطة الإلهية:

الله تبارك وتعالى محيط بكلِّ شيء، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيْطٌ﴾ (فصلت: ٥٤)، وهذه الإحاطة يمكن تقسيمها إلى عدَّة أقسام:
الإحاطة الموجودية: بمعنى أن الله تعالى موجود مع كلِّ شيء وفي كلِّ شيء، ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١١٥)، و﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ (الحديد: ٤)، و﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

١٥٢ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

(النور: ٣٥)، وفي ذلك يقول الإمام علي عليه السلام: «ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله وبعده ومعاه وفيه»^(١).

الإحاطة العلمية: بمعنى أنه عالم بكل شيء، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الشورى: ١٢)، ﴿وَمَا يَعَزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالٍ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ (يونس: ٦١).

الإحاطة القيمومية: بمعنى أنه قائم ومسيطر ومهيمن على كل شيء، ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ (الرعد: ٣٣)، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ (الروم: ٢٥).

العناية الخاصة بالإنسان: وإلى جانب هذه الإحاطة المطلقة بكل شيء فإن الله تعالى له عناية خاصة بالإنسان أكثر مما سواه من المخلوقات، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (الإسراء: ٧٠).

واعتبرهم عباداً له وكرّمهم بذلك ولم يخاطبهم: (يا عبيدي)، بل قال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ (الفرقان: ٦٣)، ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (الزحرف: ٦٨)، ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۖ وَادْخُلِي جَنَّتِي ۖ﴾ (الفجر: ٢٩ و ٣٠)، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ (البقرة: ١٨٦).

(١) قال عليه السلام: «ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله». (شرح أصول الكافي ٣: ٨٣).

الإحاطة الرحيمية: بمعنى أن الله تعالى وسعت رحمته كل شيء،
قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٥٦).
الإحاطة التوجيهية: بمعنى أن الله تعالى موجّه وهادٍ للجميع،
﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝﴾ (الأعلى: ١ - ٣).

التكليف صورة من صور التكريم:

إنّ التكليف من الله تعالى للعباد هو صورة من صور الاحترام والتكريم والتقدير لهذا الكائن، ولذا فإنّ الحيوانات غير مكلفة، والرئيس حينما يُكلّف أحد وزراءه ببعض المهام فهذا تكريم له، وكذلك الأب حينما ينيط بعض المسؤوليات ببعض أولاده دون بعض.
والمعروف عن العارف الكبير السيّد ابن طاووس رحمته الله أنّه كان يتخذ يوم تكلفه يوم عيد له افتخاراً بهذا التكريم الإلهي.
رغم أنّ هذا الأمر _ التكليف _ هو الذي يكون سبباً لهداية البعض وضلال آخرين، وسعادة بعض وشقاوة آخرين، إلّا أنّ ذلك على كلّ الأحوال دليل على محبة الله تعالى لهذا الكائن ودعوته إياه للعروج إليه والقرب منه، ﴿وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ (الزمر: ٥٤)، وجعل الكرامة النهائية ستكون من نصيب أولئك الذين يصلون إليه و﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (الأنعام: ٥٢)، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣)، إنّ التكليف هو بالحقيقة فتح طريق الكرامة الأبدية للإنسان ودلالته على صراط السعادة الدائمة، ولو لا هذا التكليف لم يصل أحد إلى تلك المقامات والدرجات، ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الملك: ٢).

الاستعانة المطلقة بالله تعالى:

ولأجل هذه الإحاطة الإلهية المطلقة، والعناية الخاصة بتكليف الإنسان دون سواه من المخلوقات _ إلا الملائكة والجن والشياطين _ كان علينا الاستعانة بالله تعالى وذلك بطلب التسديد والهداية، «وَلَا أَضِلُّنَّ وَقَدْ أَمَكْتَنَّاكَ هِدَايَتِي...، وَلَا أَطْغِيَنَّ وَمَنْ عِنْدَكَ وَجْدِي». وكذلك بطلب النجاة من مختلف أنواع البلاء، «وَلَا أَظْلَمَنَّ وَأَنْتَ مُطِيقٌ لِلدَّفْعِ عَنِّي»، «وَلَا أَفْتَقِرَنَّ وَمَنْ عِنْدَكَ وَسُعْيِي».

إن ناصية الإنسان وسائر المخلوقات هي بيد الله تعالى، ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ (هود: ٥٦).

ولذلك فإننا نلجأ إليه بطلب نجاتنا ودفع المخاطر المادية والمعنوية عنا، ثم تحصيل التكامل والقرب منه من خلال توفيقنا للإيمان والعمل الصالح والأخلاق الصالحة.

البعد الأخلاقي في التكليف:

إن التكليف الدينية هي عبارة عن أصول وقضايا أخلاقية مطلوبة من الإنسان، وعبر الالتزام بهذه الأصول الأخلاقية يستطيع أن يصل إلى دار الكرامة الإلهية.

الظلم، والطغيان، والضلال، والافتقار، هي جميعاً قضايا أخلاقية سلبية، والعدالة وعدم الظلم، والهدى وعدم الضلال، والغنى وعدم الفقر، والاعتدال وعدم الطغيان، هي جميعاً قضايا أخلاقية إيجابية.

ولذا ذكرها الإمام عليه السلام في دعاء مكارم الأخلاق بصيغة الدعاء لاعتبار تلك الإحاطة والعناية الإلهية التي تفرض علينا تحقيق الاستعانة المطلقة بالله تعالى.

١٥٦ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

لنفسك يا حجّاج، فوالله ما تقتلني قتلة إلا قتلتك مثلها في الآخرة،
ولنقرأ القصّة كاملة:

روي أنّه أُدخل على الحجّاج، فقال له: ما اسمك؟

قال: سعيد بن جبير.

قال: أنت شقي بن كسير.

قال: بل أمّي كانت أعلم باسمي منك.

قال: شقيت أنت وشقيت أمك.

قال: الغيب يعلمه غيرك.

قال: لأبدلنك بالدينا ناراً تلظى.

قال: لو علمت أنّ ذلك بيدك لا تتخذتك إلهاً.

قال: فما قولك في محمّد؟

قال: نبيّ الرحمة إمام الهدى.

قال: فما قولك في علي، في الجنّة هو أم في النار؟

قال: لو دخلتها فرأيت أهلها عرفت من فيها.

قال: فما قولك في الخلفاء؟

قال: لست عليهم بوكيل.

قال: فأيّهم أعجب إليك؟

قال: أرضاهم لخالقي.

قال: فأيّهم أرضى للخالق؟

قال: علم ذلك عند الذي يعلم سرّهم ونجواهم.

قال: أبيت أن تُصدّقني.

قال: إني لم أحبّ أن أكذبك.

قال: فما بالك لم تضحك؟

قال: وكيف يضحك مخلوق خُلِقَ من الطين، والطين تأكله النار؟

قال: فما بالننا نضحك؟

قال: لم تستو القلوب.

قال: ثمّ أمر الحجاج باللؤلؤ والزبرجد والياقوت، فجمعه بين يدي سعيد بن جبير، فقال له سعيد: إن كنت جمعت هذا لتفتدي به من فزع يوم القيامة فصالح، وإلا ففزعة واحدة تذهل كلّ مرضعة عمّا أرضعت، ولا خير في شيء جُمِعَ للعالم إلا ما طاب وزكا. ثمّ دعا الحجاج بالعود والناي، فلما ضُربَ بالعود ونُفِخَ في الناي بكى سعيد بن جبير، فقال له: ما يبكيك؟ هو اللهو.

قال سعيد: بل هو الحزن، أمّا النفخ فذكرني يوماً عظيماً، يوم ينفخ في الصور، وأمّا العود فشجرة قُطِعَتْ في غير حقّ، وأمّا الأوتار فإنّها أمعاء الشاء يُبعث بها معك يوم القيامة. فقال الحجاج: ويلك يا سعيد.

فقال سعيد: الويل لمن زُحِزِحَ عن الجنّة وأُدخِلَ النار.

قال الحجاج: اختر يا سعيد، أيّ قتلة تريد أن أقتلك؟

قال: اختر لنفسك يا حجاج، فوالله ما تقتلني قتلة إلا قتلتك مثلها في الآخرة.

قال: فتريد أن أعفو عنك؟

قال: إن كان العفو فمن الله، وأمّا أنت فلا براءة لك ولا عذر.

قال: اذهبوا به فاقتلوه. فلما خرج من الباب ضحك، فأخبر

الحجاج بذلك، فأمر برده، فقال: ما أضحكك؟

قال: عجبت من جرأتك على الله، وحلم الله عنك. فأمر بالنطع

فبسط فقال: اقتلوه.

١٥٨ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

فقال سعيد: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: ٧٩).

قال: شدوا به لغير القبلة.

قال سعيد: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١١٥).

قال: كبوه لوجهه.

قال سعيد: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ (طه: ٥٥).

قال الحجاج: اذبحوه.

قال سعيد: أما إني أشهد وأحاج أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمداً عبده ورسوله، خذها مني حتى تلقاني يوم القيامة.

ثم دعا سعيد الله وقال: اللهم لا تُسلطه على أحد يقتله بعدي. فذبح على النطع رحمة الله عليه.

قال: وبلغنا أن الحجاج عاش بعده خمس عشرة ليلة، ووقعت الأكلة في بطنه، فدعا بالطبيب لينظر إليه، فنظر إليه، ثم دعا بلحم منتن، فعلقه في خيط ثم أرسله في حلقة فتركه ساعة ثم استخرجه وقد لزق به من الدم، فعلم أنه ليس بناج. وبلغنا أنه كان ينادي بقيّة حياته: مالي ولسعيد بن جبير، كلما أردت النوم أخذ برجلي^(١)؟

دعوة المظلوم:

عن عبد الله بن طلحة النهدي، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعة لا ترد لهم دعوة حتى تُفتح لهم أبواب السماء

(١) تهذيب الكمال ١٠: ٣٧١ - ٣٧٣ / الرقم ٢٢٤٥.

المقطع الحادي عشر ١٥٩

وتصير إلى العرش: الوالد لولده، والمظلوم على من ظلمه، والمعتمر حتى يرجع، والصائم حتى يفطر»^(١).
«وَلَا أَطْعَيْنَ وَمَنْ عِنْدَكَ وَجْدِي»:

يتحدث القرآن الكريم عن الطغيان ويحذّر منه، فما هو الطغيان؟
الطغيان ليس هو مجرد صدور المعصية، بل هو التجاوز على حدود الله مع زوال حالة الخوف من الله تعالى من النفس وتنامي حالة الجرأة على الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ (النازعات: ٤٠ و ٤١).

ووضع الطغيان في مقابل الخوف من مقام الله فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَأَتَىٰ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ (النازعات: ٣٧ _ ٣٩).

وجعل نتيجة الطغيان هي الجحيم كما في الآية السابقة، وحلول غضب الله تعالى كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْعَمُوا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ (طه: ٨١).

خطر الطغيان:

لم يكن الطغيان ظاهرة مختصة بالفراعنة والجبابة كما قد يتصور بعض، بل إن كل إنسان هو في معرض هذا الخطر الذي ينشأ من تفاقم الذنوب وترك الاستغفار، فيقسو القلب ويخرج منه مخافة الله.

إن أكثر العصاة ليسوا من الطغاة، بل هم يعصون الله تعالى تبعاً

(١) الكافي ٢: ٥١٠ / باب من تستجاب دعوته / ح ٦.

١٦٠ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

للشهوات وليس على سبيل الجرأة والحرب مع الله تعالى، لكن الإنسان إذا لم يتدارك هذه الذنوب بالتوبة فإنه قد يصل إلى حالة الطغيان، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَغِي ۖ أَنْ رَأَهُ اسْتَعْفَى ۗ﴾ (العلق: ٦ و ٧).

ولذا جاء في دعاء الإمام السجّاد عليه السلام المعروف بدعاء أبي حمزة الشمالي وهو راوي هذا الدعاء: «إِلهي لَمْ أَغْصِكَ حِينَ عَصَيْتُكَ وَأَنَا لِرُبُوبِيَّتِكَ جَاحِدٌ، وَلَا بِأَمْرِكَ مُسْتَخْفٌ، وَلَا لِعُقُوبَتِكَ مُتَعَرِّضٌ، وَلَا لَوْعِيدِكَ مُتَهَاوِنٌ، وَلَكِنْ خَطِيئَةٌ عَرَضَتْ، وَسَوَّلَتْ لِي نَفْسِي، وَغَلَبَنِي هَوَايَ، وَأَعَانَنِي عَلَيْهَا شِقْوَتِي، وَغَرَّنِي سِتْرُكَ الْمُرْخَى عَلَيَّ»^(١).

فهي خطيئة قد صدرت عفواً ومن غير قصد الجرأة والتمرد على إرادتك يا رب، بخلاف الطغاة التي يسخرون بعذاب الله ونقمته، وهذا ليس أمراً مختصاً بالكافرين، بل قد يقع فيه بعض المسلمين والعياذ بالله.

الطغيان وحب الدنيا:

ويبدو أنّ هناك ترابطاً بين الطغيان وحب الدنيا، فإذا تنامت عند الإنسان حالة التعلق بالدنيا والركون إليها تنامي عنده الاستعداد للجرأة على الله وعدم الخوف منه، «فَأَمَّا مَنْ طَغَى ۖ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ﴾ (النازعات: ٣٧ و ٣٨).

ولذا فإنّ علينا الحذر من حبّ الدنيا بكلّ أشكالها، المال، الأولاد، النساء، المقام، العافية، الدعة، وغير ذلك، فإنّ هذا الحبّ يجب أن يكون محدوداً بالحدود التي وضعتها الشريعة الإلهية.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ

(١) الصحيفة السجّادية: ٢٢٤ / دعاؤه عليه السلام في سحر كلّ ليلة من شهر رمضان.

المقطع الحادي عشر ١٦١

وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا
أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ (التوبة: ٢٤).

ولعلَّ أوضح نموذج لهذا الطغيان هو ما حدث عند ابن سعد
نتيجة حبِّ الدنيا وملك الريِّ الذي وعده به ابن زياد إذا هو قتل الحسين
ؑ. فأصبح في الغد يقول:

فوالله ما أدري وإني لصادق	أفكّر في أمري على خطرين
أأترك ملك الريِّ والريِّ منيتي	أم أصبح مأثوماً بقتل حسين
حسين ابن عمي والحوادث جمّة	ولكن لي في الريِّ قرّة عين
يقولون إنَّ الله خالق جنّة	ونار وتعذيب وغلّ يدين
فإن صدقوا ممّا يقولون إنني	أتوب إلى الرحمن من ستين
وإن كذبوا فزنا بدنيا عظيمة	وملك عقيم دائم الحجلين
وإنَّ إله العرش يغفر زلّتي	ولو كنت فيها أظلم الثقلين
ولكنّها الدنيا بخير معجّل	وما عاقل باع الوجود بدين ^(١)

حبّ الدنيا والتعلّق بالدنيا:

ليست المشكلة في أن يحبّ الإنسان الأهل والولد والعافية والرزق
وغير ذلك، وهي جميعاً مظاهر من مظاهر الدنيا، إنّما الخطر والمشكلة في
أن يتعلّق الإنسان بالدنيا وتكون الدنيا أكبر همّه.

عن عبد الله بن أبي يعفور، عن أبي عبد الله ؑ، قال: «من أصبح

(١) الملهوف على قتلى الطفوف: ١٩٣.

١٦٢ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

وأسمى والدنيا أكبر همه جعل الله تعالى الفقر بين عينيه، وشئت أمره، ولم ينل من الدنيا إلا ما قسم الله له. ومن أصبح وأمسى والآخرة أكبر همه جعل الله الغنى في قلبه، وجمع له أمره»^(١).

وصف المتقين:

يقول الإمام علي عليه السلام في وصف المتقين وعلاقتهم بالدنيا:
«يَا نَوْفُ، طُوبَى لِّلزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا، الرَّاعِينَ فِي الآخِرَةِ، أَوْلَيْكَ قَوْمٌ اتَّخَذُوا الْأَرْضَ بَسَاطًا، وَتُرَابَهَا فِرَاشًا، وَمَاءَهَا طِيبًا، وَالْقُرْآنَ شِعَارًا، وَالدُّعَاءَ دِثَارًا، ثُمَّ قَرَضُوا الدُّنْيَا قَرْضًا عَلَىٰ مِنْهَاجِ الْمَسِيحِ»^(٢).
لاحظوا جمال التعبير ومعناه: «قَرَضُوا الدُّنْيَا» بمعنى أخذوا منها قليلاً قليلاً حسب كفايتهم.

لا مبرر للطغيان:

الطغيان هو مرض أخلاقي، ينشأ من حالة الغفلة عن الله، وتسلب هذه الغفلة بحيث لم يعد ير الإنسان حقيقة عبوديته لله وربوبية الله له في كل شيء.
الطغيان ينشأ من الوهم، وهم الاستغناء، وعدم الحاجة إلى الله، والخروج من ملك الله.
ولكن الإنسان بمجرد أن يعود إلى الواقع، ويلتفت إلى حجم وجوده، وحقيقة ضعفه وحاجته إلى الله تعالى، ويُحْكَم هذه الرؤية في قلبه تزول عنه حالة الطغيان.

(١) الكافي ٢: ٣١٩ / باب حب الدنيا والحرص عليها / ح ١٥.

(٢) نهج البلاغة: ٤٨٦ / ح ١٠٤.

ولهذا قال الإمام في الدعاء: «وَلَا أَطْغَيْنَ وَمِنْ عِنْدِكَ وَجُدِي»، فكيف أظغى؟ ولماذا؟ وكل ما عندي هو من الله تعالى ويمكن أن يسلبه في لحظة واحدة.

إِنَّ كُلَّ مَا هُوَ موجود لدينا (وُجُدِي) لا نملكه نحن حقيقة، لا الحياة، ولا العافية، ولا السمع، ولا البصر، ولا الزوجة، ولا الولد، ولا المال، ولا المقام، ولا أي شيء آخر.

إِنَّ كُلَّ هَذِهِ الْأُمُورِ هِيَ عِنْدَنَا عَلَى سَبِيلِ الْعَارِيَةِ الْمُؤَقَّتَةِ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تُسْحَبَ فِي آيَةٍ لِحِظَةٍ، فَلِمَاذَا نَعْتَرُّ وَنَطْغِي؟ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ.

بلاء أصحاب الجنة:

وفي شرح هذه الحقيقة يضرب القرآن لنا مثلاً أصحاب الجنة (البستان والمزرعة) فيقول: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا أَي لِيَحْصِدُونَهَا ﴿٧﴾ مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْتُونَ ﴿١٨﴾ أَي لَمْ يَقُولُوا: إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ، ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ أَي كَالْمَحْصُودَةِ، ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنْ ائْتِنَا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانظَلَقُوا وَهُمْ يَتَخافتُونَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينُ ﴿٢٤﴾ وَعَدَّوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ لَحْنٌ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾﴾ (القلم: ١٧ _ ٣١)، لقد انتبه هؤلاء إلى طغيانهم بعد وقوع الواقعة، وكثير من الناس ربما يستيقظ من نومته وغفلته بعد زوال النعمة.

لقد اعتبر هؤلاء عملهم طغياناً حينما اطمأنوا إلى مزرعتهم ولم يذكروا الله تعالى، وإنَّ هذه الحالة قد يتورط بها كلُّ واحد منَّا حتَّى وهو في أبسط مستوياته.

ولذا فإنَّ الإمام عليه السلام وهو في نهاية الاستضعاف وحيث الملك لبني أمية وأهل البيت عليهم السلام مطرودون معزولون إلاَّ أنَّه يُحذِّر من الطغيان فيقول: «وَلَا أَطْغَيْنَ وَمِنْ عِنْدِكَ وَجِدِي».

شرح العبارات:

«وَلَا أَظْلَمَنَّ وَأَنْتَ مُطِيقٌ لِلدَّفْعِ عَنِّي»، أسألك يا الله أن لا أظلم من الآخرين وأنت قادر على أن تدفع عني ظلمهم.

«وَلَا أَظْلِمَنَّ وَأَنْتَ الْقَادِرُ عَلَى الْقَبْضِ مِنِّي»، أسألك أن لا أكون ظالماً وأنت قادر على أن تأخذ على يدي وتمنعني عن ذلك الظلم.

«وَلَا أَفْتَقِرَنَّ وَمِنْ عِنْدِكَ وَسُعْيِي»، أسألك أن لا أصير فقيراً ومن عندك سعتي وغناي.

«وَلَا أَطْغَيْنَ وَمِنْ عِنْدِكَ وَجِدِي»، أن لا أطغى ومن عندك قدرتي وليس من عند نفسي، فكيف أطغى؟ ولماذا؟ وأنا لا أملك شيئاً، وكلُّ ما أملكه هو منك.

المقطع الثاني عشر

«اللَّهُمَّ إِلَيَّ مَغْفِرَتِكَ وَفَدْتُ، وَإِلَى عَفْوِكَ
قَصَدْتُ، وَإِلَى تَجَاوُزِكَ اشْتَقْتُ، وَبِفَضْلِكَ وَثَقْتُ،
وَلَيْسَ عِنْدِي مَا يُوجِبُ لِي مَغْفِرَتَكَ، وَلَا فِي عَمَلِي مَا
أَسْتَحِقُّ بِهِ عَفْوَكَ، وَمَا لِي بَعْدَ أَنْ حَكَمْتُ عَلَى نَفْسِي
إِلَّا فَضْلُكَ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَتَفَضَّلْ عَلَيَّ.
اللَّهُمَّ وَأَنْطِقْنِي بِالْهُدَى، وَأَهْمِنِي التَّقْوَى،
وَوَقِّفْنِي لِلَّتِي هِيَ أَرْكَى، وَاسْتَعْمِلْنِي بِمَا هُوَ أَرْضَى.
اللَّهُمَّ اسْلُكْ بِي الطَّرِيقَةَ الْمَثْلَى، وَاجْعَلْنِي عَلَى مِلَّتِكَ
أَمْوْتُ وَأَحْيَا».

الموجز:

بعد أن أصّل الدعاء في مقاطع سابقة مبدأ الثقة بالله، والتوكّل عليه، والاستعانة به.

هذا المقطع يُؤصّل مبدأ آخر وهو عدم إمكانية الاعتماد على أعمالنا، وعدم إمكانية الاستغناء عن فضل الله تعالى.

وبعد أن تؤصّل الفقرات السابقة أننا بحاجة مطلقة إلى الفضل الإلهي، وأننا لا نملك أيّ شيء نستطيع أن نستوجب به الرحمة بل صفحة وجودنا أرض مقفرة خالية من كلّ جمال وكمال.

١٦٦ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

حيثُ نَسألُ اللهَ الفضلَ علينا: «وَتَفَضَّلْ عَلَيَّ»، ولكن ما هو ذلك
الفضل الذي نريده؟

هذا هو ما شرحه المقطع الثاني عشر من الدعاء الذي جاء بعد
الصلاة على محمد وآل محمد عليهم السلام.

حاجتنا إلى المغفرة وفلسفة الشعور بالذنب:

«اللَّهُمَّ إِلَى مَغْفِرَتِكَ وَفَدْتُ»:

يتكرَّرُ في نصوص وكلمات الأنبياء والأئمة عليهم السلام مفهوم الشعور
بالذنب الكبير، والحاجة الشديدة إلى عفو الله ومغفرته.

هذا الأمر نجده بشكل واضح حينما نلاحظ:

١ _ إصرارهم المكرَّر على طلب المغفرة والعفو الإلهي.

٢ _ الخوف العظيم جداً من العقوبة والسخط الإلهي، كما لو
كانوا قد ارتكبوا أعظم الذنوب، وهذا الخوف يظهر في كلماتهم كما يظهر
في عباداتهم وسلوكهم.

٣ _ اعترافهم الصريح بارتكاب الذنوب العظام، والفضائح
الجسام أمام الله تعالى.

هذا المعنى يؤكده القرآن أيضاً حينما يتحدث عن طلب الأنبياء
عليهم السلام للمغفرة الإلهية مثل قول موسى عليه السلام: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي
وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» (الأعراف: ١٥١).

قول إبراهيم عليه السلام: «رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ
الْحِسَابُ» (إبراهيم: ٤١).

قول سليمان عليه السلام: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ
مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ» (ص: ٣٥).

قول نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا﴾
(نوح: ٢٨).

فما هو ذلك الذنب؟ ولماذا الخوف والارتجاف والبكاء من العقوبة الإلهية؟

لا شك أن الأنبياء والأئمة عليهم السلام لم يصدر منهم مثل تلك الذنوب التي تصدر منا، مثل الكذب والغيبة وترك الصلاة وما شاكل ذلك، فما هو الذي صدر منهم حتى جعلهم بمثل هذا الخوف؟

كما أن دعاءهم وبكاءهم واعترافاتهم بين يدي الله لم يكن على سبيل المجاملة وإبداء التواضع، كما قد يصنع بعضنا مع البعض الآخر، فإن ذلك لا يمكن أن يُفسّر البكاء، والإغماء، وحالات الاضطراب التي تغمرهم حينما يقفون بين يدي الله تعالى.

وربما يقول بعض: إن صدور تلك الاعترافات منهم إنما هي لأجل تعليمنا من باب (إياك أعني واسمعي يا جارة)، ولكن هذا القول لا تقبله أبداً نصوص الأدعية الواردة عنهم، ولا حالاتهم بين يدي الله تعالى واعترافاتهم في الخلوة معه تعالى.

إذن ما هو ذلك الذنب؟ ولماذا هذا الخوف؟

هناك تفسيران يمكن ذكرهما:

الأول: أن أصل وجود الإنسان هو خطيئة في مقابل وجود الله تبارك وتعالى، فمثاله مثال وجود الشوكة في حديقة الورود الغناءة، فهي بحد ذاتها لا تتناسب مع هذا المكان وجماله وجلالته، وسيكون وجودها خطيئة، هكذا وجود الإنسان الناقص الحقير المليء بالأهواء والشهوات إلى جانب الوجود الكامل الغني الجميل ذي الجلال والإكرام.

١٦٨ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

وربما إلى هذا المعنى يشير البيت المعروف لدى العرفاء
والسالكين:

أقول وما أذنبت قالت مجيبةً وجودك ذنبٌ لا يقاسُ به ذنبُ
إلا أن هذا التفسير _ بهذا المستوى والشكل _ لا يمكن قبوله،
لأن وجود الإنسان هو من عند الله تعالى، وإشعاع من وجوده،
وانعكاس لفضله ورحمته ونوره، فكيف يكون ذلك خطيئة؟

على أنه إذا كان خطيئة فإن الإنسان ليس له أي دخل فيه ولا إرادة
ولا رأي، فالله تعالى هو الذي خلقه وأوجدته بعد أن لم يكن شيئاً
مذكوراً، فهو إذن لا يتحمل أية مسؤولية في هذا الخطأ إن كان.

الثاني: أن المشكلة ليست في أصل وجود الإنسان وإنما في الشعور
الذي ينشأ لديه بالاستقلالية والغنى والافتقار بمختلف مستويات هذا
الشعور التي تشتد حتى تصل إلى حد التمرد والطغيان، وتضعف إلى
درجة عالية من الفناء والذوبان في العبودية كما لدى الأنبياء والأولياء،
ولكنها على كل التقادير تبقى ذات أثر في نفس الإنسان، وقد ينساق
معها بفعل الغفلة والضرورات المادية، ولهذا فقد كان رسول الله ﷺ
وهو الإنسان الكامل وهو أشرف الخلق الذي ﴿كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ
أَدْنَى﴾ (النجم: ٩)، يستغفر الله في كل مجلس سبعين مرة ويقول: «إنه
ليران على قلبي وإني لاستغفر الله في اليوم واللييلة سبعين مرة»^(١)، مع أن
قلب رسول الله ﷺ هو القلب الطاهر البعيد عن الرين والسوء وعبث
الشياطين، لكنها الضرورة الحياتية القاهرة التي لا يكاد يستطيع
الإنسان الانفصال عنها.

(١) بحار الأنوار ١٧: ٤٤.

يقول الإمام الخميني رحمته الله: (إنَّ مقياس طول بقاء الإنسان في عالم القبر والبرزخ هو أمثال هذه التعلّقات _ القلبية بالدنيا _، فكلمًا كان التعلّق بالدنيا أقلّ كان البرزخ وقبر الإنسان أكثر نوراً وأوسع، ومكثه فيه أقصر. ولذلك فقد ورد في بعض الروايات: إنَّ عالم القبر لأولياء الله لا يزيد عن ثلاثة أيّام، وإنّما كان هذا لأجل التعلّق الطبيعي والعلاقة الجبلية لأولياء الله تجاه هذا العالم)^(١).

إنَّ الإنسان هو عبد مطلق، وفقير مطلق، وليس لديه أيّ شيء وأيّّة شخصية استقلالية عن الله تعالى وهو مالك الملك، إلّا أنّ طبيعة الحياة البشرية تكوّن عند الإنسان _ بمستويات مختلفة _ حالة الشعور بـ (الأنا) حتّى وهو يتضرّع إلى الله تعالى ويلتمس عفوّه ويطلب معونته فإنّ ذلك هو أيضاً اعتراف بالأنا، أنا موجود، وأنا شيء، وأنا كيان، وأنا لي مطالب، وأنا لذيّ آمال...، وذلك وإن كان كلّه صحيحاً بمعنى من المعاني إلّا أنّه تطاول وجرأة في محضّر الله تعالى وبين يديه، وقد يكون هذا هو مراد أصحاب التفسير الأوّل الذين قالوا: (وجودك ذنب لا يقاس به ذنب).

أصل الخطيئة والمعصية:

لقد كان ذلك هو أصل الخطيئة التي صدرت من أبينا آدم _ رغم أنّ ذلك لا يتنافى مع العصمة كما سنشرح إن شاء الله _، فحين قاسمهما إبليس قائلاً: ﴿يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَى﴾ (طه: ١٢٠)، ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (الأعراف: ٢١)، اندفعا ليأكلا من تلك الشجرة بدوافع الحرص على الأنا، وطلب الخلد

(١) الأربعون حديثاً: ١٢٤. (المؤلف).

١٧٠ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

والملك، وهذه أمور وإن لم تكن محرمة إلا أنها درجة من درجات الضعف والخروج عن زيِّ العبودية المطلقة لله تعالى، ولذا فقد كان حقها الخروج من الجنة التي هي دار الفناء والبقاء المطلق بالله تعالى.

وهذا هو أيضاً أصل خطيئة إبليس عليه لعائن الله _ على الفرق الكبير بينه وبين آدم عليه السلام _، فقد كانت الأنا الطاغية هي التي تسيّره وتمنعه من إطاعة أوامر الله تعالى قائلًا: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (الأعراف: ١٢)، هذه هي الأنا التي أخرجته عن طاعة الله تعالى وعبوديته وجعلته ملعوناً مطروداً من رحمة الله تعالى.

التذكر والانتباه واليقظة:

إنَّ الغفلة عن حقيقة العبودية المطلقة لله تعالى هي التي تُنمّي حالة الأنانية والكبرياء والطغيان لدى الإنسان حتّى يصل إلى ادّعاء الربوبية ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (النازعات: ٢٤)، كما قال فرعون.

ولعلَّ إلى ذلك كانت الآية القرآنية تشير بالقول: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: ٧٢)، الجهل والظلم هو بادّعاء الأنا، ثمّ زعم الاقتدار على تحمّل الأمانة الإلهية.

منازل السير والسلوك:

يقول العرفاء: إنَّ المنزل الأوّل من منازل السير والسلوك هو منزل اليقظة وله مراحل:

١ _ الانتباه إلى أن الإنسان سائر، ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ (الانشقاق: ٦).

المقطع الثاني عشر ١٧١

٢ _ إِنَّ هَذَا السَّيْرَ ضَرُورِيٌّ لَا مَفْرَرَّ مِنْهُ، ﴿فَادْرُؤَا عَنِّ أَنْفُسِكُمْ
الْمَوْتَ﴾ (آل عمران: ١٦٨).

٣ _ إِنَّ هَذَا السَّيْرَ لَهُ هَدَفٌ وَهُوَ الْكَمَالُ، ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ
عَمَلًا﴾ (هود: ٧).

٤ _ يَجِبُ الْحَرَكَةُ نَحْوَ ذَلِكَ الْمَهْدَفِ، ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ (الذاريات: ٥٠).

٥ _ الْبَلُوغُ إِلَى الْمَقْصِدِ مُمْكِنٌ، ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد: ١٠).

٦ _ الْأَمْرُ يَحْتَاجُ إِلَى عَزْمٍ وَإِرَادَةٍ.

إِنَّ أَهَمَّ أَسْبَابِ عَدَمِ التَّيَقُّظِ هُوَ ظَنُّ الْإِنْسَانِ أَنَّ فِي الْوَقْتِ سَعَةً،
وَهَذَا هُوَ طَوِيلُ الْأَمَلِ^(١).

وَإِذَا كَانَتِ الْغَفْلَةُ عَنِ الْحَقِيقَةِ الْكُونِيَّةِ الْكَبْرِيَّ وَهِيَ أَنْ لَا وَجُودَ
إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى، ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ (الحديد: ٣)، فَإِنَّ
التَّذَكُّرَ وَالِانْتِبَاهَ وَالْيَقْظَةَ سَتَكُونُ هِيَ طَرِيقَ الْخِلَاصِ مِنْ هَذِهِ الْخَطِيئَةِ،
وَلِهَذَا جَاءَ الْقُرْآنُ كُلَّهُ دَعْوَةً لِلتَّذَكُّرِ، تَذَكُّرَ حَقِيقَةِ الْإِنْسَانِ، تَارِيخَ نَشْوءِهِ
مِنَ الْعَدَمِ، مَسِيرَةَ حَيَاتِهِ وَمَمَاتِهِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۗ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ
دَافِقٍ﴾ (الطارق: ٥ و ٦).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ۗ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ (عبس: ١٧ و ١٨).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ﴾
(الإنسان: ٢).

(١) الأربعة حديثاً: ١٦٩. (المؤلف).

١٧٢ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ (المؤمنون: ٧٨).

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْقَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (يس: ٧٧).

وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ (الواقعة: ٥٨ _ ٦٢).

العلاقة الطردية:

إنَّ هناك علاقة طردية _ متشابهة _ بين زيادة المعرفة بالحقيقة وبين زيادة الشعور بالذنب، والإحساس بالخطأ، والاعتقاد بالجرأة والتجاوز والتعدي على الله تعالى من خلال الأنا واملأها على القلب.

ولمَّا كان الأنبياء والأولياء أكثر الناس معرفةً بشأن الله تعالى وحقارة عبادته وشأنهم كانوا أكثر الناس بكاءً واعترافاً بالخطيئة وطلباً للمغفرة والعفو والتجاوز.

كما أنَّ هناك علاقة طردية أُخرى بين نقصان المعرفة ونقصان حالة الخوف من الله تعالى، فهؤلاء العصاة إنَّما يقلُّ خوفهم من الله تعالى لجهلهم وقلة معرفتهم.

ولعلَّ هذا المعنى سيفتح لنا باباً لفهم الحديث المعروف: «من عرف نفسه عرف ربه»^(١).

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٤٣٠.

المقطع الثاني عشر ١٧٣

كما أن هناك حالة طردية أخرى بين تعاضم الأنا عند الإنسان وتعاضم الذنب، وهذا ما نجده لدى أصحاب الأنانيات والأهواء، وإذا كانت الغفلة هي أصل المشكلة كما جاء التأكيد على ذلك في القرآن الكريم بكلمة: ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ (البقرة: ١٢)، ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٧١)، ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٣)، فإن من الحق أن ندعو الله تعالى دائماً أن يرزقنا الانتباه واليقظة.

«اللَّهُمَّ نَبِّهْنَا مِنْ نَوْمَةِ الْغَافِلِينَ»^(١).

«اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ دَأَّبَهُمُ الْارْتِيَاخُ إِلَيْكَ وَالْحَيْنُ، وَدَهَرَهُمُ الزَّفَرَةُ وَالْأَيْنُ»^(٢).

«وَأَلْحَقْنَا بِعِبَادِكَ الَّذِينَ هُمْ بِالْبِدَارِ إِلَيْكَ يُسَارِعُونَ، وَبَابِكَ عَلَى الدَّوَامِ يَطْرُقُونَ، وَإِيَّاكَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ يَعْبُدُونَ، وَهُمْ مِنْ هَيْبَتِكَ مُشْفِقُونَ، الَّذِينَ صَفَّيْتَ لَهُمُ الْمَشَارِبَ...»^(٣).

مشكلة قارون:

إنَّ مشكلة قارون _ ابن عمِّ موسى أو ابن خالته^(٤) _ كانت هي الشعور بالأنا والاعتقاد بالنفس والركون إليها والاطمئنان بالدنيا والغفلة عن الله تعالى، ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ

(١) شرح كلمات أمير المؤمنين: ٦.

(٢) الصحيفة السجادية: ٤١٣ و ٤١٤ / في مناجاة المحبين.

(٣) الصحيفة السجادية: ٤١٢ / في مناجاة المريدين.

(٤) راجع: تفسير مجمع البيان ٧: ٤٥٩.

١٧٤ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ (القصص: ٧٦ - ٧٨).

إن مشكلة قارون كانت هي هذه الكلمة: ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾، ونسيان أن القدرة بيد الله وحده.

عبادتنا هي معصية أيضاً:

إن بسطاء الناس قد يطمئنون إلى عباداتهم، والجهلاء قد يُعجبون بأعمالهم أمّا العارفون السالكون إلى الله فإنهم يرون عباداتهم أيضاً هي نحو من أنحاء الجرأة على الله تعالى والجرأة بمخاطبته ومطالبته وما شاكل ذلك، ولو لا أنه تعالى هو الذي أمر بها وأذن لعباده بسؤاله لم يكن من شأن العباد إلا الصمت والسكوت المطلق بين يدي الله تعالى.

على أن عبادتنا أيضاً _ كالصلاة مثلاً _ هي مليئة بالغفلة وشرود الذهن عن الله تعالى ونحن واقفون بين يديه، ونحن ندعي أننا نُصلي له وندعوه ونقول: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: ٧٩)، ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٢).

الحقيقة إننا نكذب على الله تعالى في هذه الادعاءات، فقلوبنا متجهة في أثناء الصلاة لغير الله تعالى، وهذا من سوء الأدب وعدم الخشية من الله تعالى.

بل إِنَّا حَتَّىٰ لَوْ كُنَّا مُتَوَجِّهِينَ إِلَى اللَّهِ فِي كُلِّ صَلَاتِنَا مِنْ أَوْلَاهَا إِلَىٰ آخِرِهَا فَإِنَّهَا هِيَ أَيْضًا ذَنْبٌ وَمَعْصِيَةٌ _ بِالْمَعْنَى اللَّغَوِيَّةِ الْعَامَّةِ هَذِهِ الْكَلِمَةُ _ ، لِمَاذَا؟
لَأَنَّ نُصَلِّيَ مِنْ أَجْلِ أَنْفُسِنَا وَلَيْسَ مِنْ أَجْلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، نَحْنُ نُصَلِّيَ مِنْ أَجْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ، وَالْفَوْزِ بِالْخُلُودِ الْأَبَدِيِّ، وَالْحُورِ الْعِينِ، وَالْجَنَّاتِ الَّتِي تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ.

إِذْنٌ فَاَلْمَصَالِحُ الشَّخْصِيَّةُ هِيَ الَّتِي دَعَتْنَا لِهَذِهِ الْعِبَادَةِ الَّتِي نَقُولُ إِنَّهَا خَالِصَةٌ لِرُجُوهِ اللَّهِ.

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (الانفطار: ٦)، ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (يوسف: ١٠٦).

وَلِذَا فَإِنَّ الْأَوْلَىٰ بِنَا أَنْ نَسْتَغْفِرَ اللَّهَ وَنَتُوبَ إِلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْعِبَادَةِ أَيْضًا لَوْ لَا أَنَّ تَعَالَىٰ هُوَ الَّذِي أَمَرْنَا بِهَا وَوَعَدَنَا بِقَبُولِهَا بِرَحْمَتِهِ وَاعْتَبَرْنَا بِعِبَادَتِهِ لَهُ، وَإِلَّا فَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ لَيْسَتْ عِبَادَةً لَهُ بَلْ عِبَادَةٌ لِلنَّفْسِ وَأَهْوَائِهَا!

لِمَاذَا الْعِقَابُ؟

وقد يقول قائل: لماذا العذاب والعقاب والنار إذن؟

إِذَا كَانَتْ الْمَسْأَلَةُ بِهَذَا الْمَسْتَوَىٰ أَيَّ مَجْرَدِ ادِّعَاءِ الْأَنَا أَمَامَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ دُونَ ارْتِكَابِ الْمَعَاصِيِ وَالْمُخَالَفَةِ لِلْأَمْرِ وَالنَّوَاهِيِ الْإِلَهِيَّةِ فَهَلْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ الْخُلُودَ فِي النَّارِ وَالْعَذَابَ الْأَبَدِيَّ؟ وَهَلْ ارْتَكَبَ الْأَنْبِيَاءُ وَالْأُمَّةَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا يَجْعَلُهُمْ بِهَذَا الْمَسْتَوَىٰ مِنَ الْخَوْفِ حَتَّىٰ كَانَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَحَدَ الْبَكَائِنِ الْخَمْسَةِ^(١) فِي الْعَالَمِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَكَانَ زَيْنَ الْعَابِدِينَ إِذَا

(١) عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَهْلِ الْبَحْرَانِيِّ يَرْفَعُهُ إِلَىٰ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: «الْبَكَاءُونَ خَمْسَةٌ: آدَمُ، وَيَعْقُوبُ، وَيُوسُفُ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَعَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ. فَأَمَّا آدَمُ فَبَكَى عَلَى الْجَنَّةِ حَتَّىٰ صَارَ فِي خَدَيْهِ أَمْثَالُ الْأُودِيَّةِ، وَأَمَّا يَعْقُوبُ فَبَكَى عَلَى يُوسُفَ حَتَّىٰ ذَهَبَ بَصَرُهُ، وَحَتَّىٰ تَوَلَّىٰ»

١٧٦ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

قام للصلاة تغير وجه لونه حمرة وزرقة وصفرة، فلما سُئِلَ عن ذلك قال:
«أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم»^(١)؟!

الجواب: إنَّ العقاب الأبدى ليس عبارة عن حالة من الغضب تستغرق ساعة ثم تزول كما هو عندنا نحن البشر، إنَّ العقاب هو نتيجة طبيعية لنفس المعاصي، وهذه الأنا هي نفسها تتحوَّل إلى وقود للنار، ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ (البقرة: ٢٤)، فهي ذاتها التي تُسَعِّرُ النار وتؤجج لهبها بحسب درجات تلك الأناية.

والمعاصي نفسها تتحوَّل إلى عذاب النار، ﴿هَذَا مَا كُنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (التوبة: ٣٥)، ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (الزمر: ٢٤)، والحديث واسع ليس هاهنا محلّه.

إنَّ الأنا هي درجة من درجات الشرك بالله تعالى وادعاء الوجود والاستقلالية والاستغناء عنه، و﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ (النساء: ٤٨)، والصالحون يخافون من نتيجة هذه الأنا، وهي عبارة عن

⇨ قيل له: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَتُوا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥]، وأمَّا يوسف فبكى على يعقوب حتّى تأذّى به أهل السجن، فقالوا له: إمّا أن تبكي الليل وتسكت بالنهار، وإمّا أن تبكي النهار وتسكت بالليل، فصالحهم على واحد منها، أمّا فاطمة فبكت على رسول الله ﷺ حتّى تأذّى بها أهل المدينة، فقالوا لها: قد أذيتنا بكثرة بكائك، فكانت تخرج إلى المقابر - مقابر الشهداء - فتبكي حتّى تقضي حاجتها ثم تنصرف، وأمّا علي بن الحسين فبكى على الحسين عليه السلام عشرين سنة أو أربعين سنة، ما وُضِعَ بين يديه طعام إلا بكى حتّى قال له مولى له: جعلت فداك يا بن رسول الله، إني أخاف عليك أن تكون من الهالكين، قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تُعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦]، إني ما أذكر مصرع بني فاطمة إلا خنقتني لذلك عبرة». (الخصال: ٢٧٢ و ٢٧٣ / ح ١٥).

(١) راجع: مطالب السؤل: ٤٠٩؛ كشف الغمّة ٢: ٢٨٦.

إعراض الله تعالى عن العبد، وإذا أعرض الله عن العبد سلبه كل القدرات، فلا بصر ولا سمع ولا هواء ولا ماء ولا نور ولا سرور ولا طعام ولا كلام، وهكذا يعيش حياة أبدية بهذا الشكل، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا كَذَلِكَ الْيَوْمِ تُنْسَى (١٢٦) (طه: ١٢٤ - ١٢٦).

إن الأنبياء والأولياء يخافون من هذا الإعراض والنسيان الإلهي وما ينتج عنه من شقاء أبدي، ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ (التوبة: ٦٧).

النظرة الجدّية للأمور:

إن فرق الصالحين عنا هي أنهم ينظرون للآخرة ومنازلها وجنّاتها ونيرانها نظرة جدّية، ﴿فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَأَاهَا فَهُمْ فِيهَا مُنْعَمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَأَاهَا فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ﴾^(١).

ويقول القرآن الكريم عنهم: ﴿تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (المائدة: ٨٣).

ويقول الإمام الحسين عليه السلام: «اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي أَخْشَاكَ كَأَنِّي أَرَاكَ، وَأَسْعِدْنِي بِتَقْوَاكَ وَلَا تُشَقِّنِي بِمَعَاصِيكَ»^(٢).

ويقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلِ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ﴾ (الذاريات: ٢٣).

إن مشكلتنا هي أننا نؤمن بالآخرة علمياً وعقائدياً لكننا لا نتعامل

(١) نهج البلاغة: ٣٠٣ / الخطبة ١٩٣.

(٢) مصباح المتهجد: ٢٧٠ / ح (١٨/٣٨١).

١٧٨ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

بنظرة جدية لها. إننا كالطفل الذي لا يخشى لسعة العقرب أو خطر الموت بلمس سلك الكهرباء، أمّا العارفون فهم مثل الطبيب الذي يحذر الأوبئة والميكروبات والجراثيم بمقدار ما يعرف من خطرهما.

نصيحة الإمام الحسين عليه السلام:

روي أن الحسين بن علي عليهما السلام جاءه رجل وقال: أنا رجل عاص ولا أصبر عن المعصية فعظني بموعظة، فقال عليه السلام: «افعل خمسة أشياء وأذنب ما شئت، فأول ذلك: لا تأكل رزق الله وأذنب ما شئت، والثاني: أخرج من ولاية الله وأذنب ما شئت، والثالث: أطلب موضعاً لا يراك الله وأذنب ما شئت، والرابع: إذا جاء ملك الموت ليقبض روحك فادفعه عن نفسك وأذنب ما شئت، والخامس: إذا أدخلك مالك في النار فلا تدخل في النار وأذنب ما شئت»^(١).

لاحظوا إن هذه النصيحة ليس فيها شيء جديد، وإنما مجرد تذكير وتنبيه لأمر نعتقد بها لكننا غافلون عنها.

ولهذا استعمل القرآن عبارة التذكير: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات: ٥٥)، والتذكير إنما يُستعمل في حالات الغفلة عن الشيء الموجود الذي نعتقد به.

المغفرة والعفو والتجاوز:

قال الإمام عليه السلام: «اللَّهُمَّ إِلِيَّ مَغْفِرَتِكَ وَقَدْتُ، وَإِلِيَّ عَفْوِكَ قَصَدْتُ، وَإِلِيَّ تَجَاوُزِكَ اشْتَقْتُ».

المغفرة والعفو والتجاوز هي كلمات قد تبدو مترادفة ومتّحدة في

(١) بحار الأنوار ٧٥: ١٢٦ / ح ٧.

المقطع الثاني عشر ١٧٩

المعنى 'إلا أن هناك فوارق دقيقة تكشفها اللغة، وهذا من روائع اللغة العربية ربّما لا يكون هنا مجال ذكره.

ثم إن هناك وفوداً وقصداً واشتياقاً، فالإمام وافد إلى المغفرة، قاصد إلى العفو، مشتاق إلى التجاوز، وهي معاني تحمل فوارق دقيقة فيما بينها، فالوفود هو التحرك العملي نحو الشيء، والقصد هو النيّة والاتجاه القلبي نحو الشيء، والشوق هو الحبّ العاطفي للشيء، فالإمام وافد وقاصد ومشتاق، وهكذا يجب أن تكون حركتنا وقصدنا وشوقنا.

الحاجة إلى فضل الله والثقة به:

يقول ﷺ: «بِفَضْلِكَ وَثِقْتُ»، يجب أن تثق بفضل الله تعالى، لأن الله تعالى هو الكريم الذي لا يجيب من أتاه ولا يقطع رجاء من رجاه، ولأن الله تعالى مبتدئ بالفضل والإحسان عظيم المنّ والامتنان، وهو غافر الذنب قابل التوب مجيب الدعاء واسع العطاء لا يُردُّ سائله ولا يجيب أمله.

«بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَا أَرْجُو إِلَّا فَضْلَهُ، وَلَا أَخْشَى إِلَّا عَدْلَهُ، وَلَا أَعْتَمِدُ إِلَّا قَوْلَهُ، وَلَا أَمْتَسِكُ إِلَّا بِحَبْلِهِ»^(١).

إن كل ما لدينا هو من فضل الله وعطائه ورحمته وكرمه، فلماذا لا نثق إذن بفضله!؟

نحن في الجنة:

عن عبد الحميد بن سعيد، قال: سمعني أبو عبد الله ﷺ وأنا أقول: أسأل [الله] الجنة.

(١) الصحيفة السجّادية: ٥٤٠ و ٥٤١، دعاؤه ﷺ في يوم الأحد.

١٨٠ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

فقال لي: «يا أبا محمد، أنت والله في الجنة، فاسأل الله أن لا يخرجك منها». قلت: وكيف ذلك جعلت فداك؟ فقال: «من كان في ولايتنا فهو في الجنة»^(١).

هذا هو نموذج من فضل الله تعالى علينا في الدنيا، لذا جاء في الدعاء: «إِلَهِي لَوْ أَرَدْتَ هَوَانِي لَمْ تَهْدِنِي، وَلَوْ أَرَدْتَ فَضِيحَتِي لَمْ تُعَافِنِي»^(٢)، فالهداية التي عندنا والعافية القلبية التي لدينا تدلُّ على أن الله قد شملنا بفضله في الدنيا والآخرة.

انحصار الرجاء بفضل الله:

«وَمَا لِي بَعْدَ أَنْ حَكَمْتُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا فَضْلُكَ»:

هناك مفهومان يذكرهما الإمام في هذا الدعاء:

المفهوم الأول: هو الثقة بفضل الله تعالى، «قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا» (يونس: ٥٨).

المفهوم الثاني: هو أننا لا نملك أية ثقة ورجاء بأعمالنا، وإنما كل رجائنا وثقتنا هي بفضل الله تعالى فقط.

هذا المفهوم هو الذي ذكره عليه السلام حينما قال: «وَلَيْسَ عِنْدِي مَا يُوجِبُ لِي مَغْفِرَتَكَ، وَلَا فِي عَمَلِي مَا اسْتَحِقُّ بِهِ عَفْوَكَ، وَمَا لِي بَعْدَ أَنْ حَكَمْتُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا فَضْلُكَ».

لماذا وكيف لا يوجد لنا أي عمل نرجوه ونستوجب به الثواب والنجاة إلا فضل الله تعالى؟ إذن أين هي أعمالنا، عبادتنا، ولايتنا، إيماننا؟ والعجب أن هذا الكلام يقوله الإمام المعصوم عليه السلام، فإنه يشهد

(١) شرح الأخبار ٣: ٤٩٤ / ح ١٤٢٣.

(٢) إقبال الأعمال ٣: ٢٩٧، المناجاة الشعبانية.

المقطع الثاني عشر ١٨١

على نفسه بأنه ليس لديه أي عمل يستحق به مغفرة الله وعفوه ورضوانه، فكيف نُفسر ذلك؟!

الجواب: أن إيماننا وأعمالنا الصالحة مهما كانت كثيرة وكبيرة وحتى إذا كانت عمل الأنبياء والأئمة عليهم السلام فإنها:

أولاً: إنها صدرت منا بقدره الله تعالى التي وضعها فينا، ولولا ذلك لم يصدر منا صلاة ولا صوم ولا إيمان ولا ولاية، ﴿قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم﴾ (الحجرات: ١٧)، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ (الأعراف: ٤٣).

ثانياً: إنها كانت بتوفيق الله ومساعدته وتسديده وتوفير الظروف التي جعلتنا نؤمن وندفع نحو العبادة، ولو لا ذلك التوفيق لم يكن لنا أي نصيب من تلك العبادات.

ثالثاً: إن الحب الذي وضعه الله في قلوبنا له ولأهل بيته عليهم السلام ولعبادته إنما هو عطية من الله تعالى وليس منا، ﴿اللَّهُ حَبَّ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ (الحجرات: ٧).

رابعاً: إن أعمالنا الصالحة وإيماننا الصحيح مهما كان صالحاً وصحيحاً إلا أن تلك الأعمال وذلك الإيمان مليء بألوان الغفلة والشرك والأنانية والخطأ بحيث إنها لا تستحق القبول من الله تعالى بل يجب أن نستغفر منها.

خامساً: على أن كل تلك الأعمال والعبادات هي لا تساوي واحدة من النعم التي أنعم الله تعالى بها علينا في الدنيا، فهي في أقصى حالاتها شكرٌ لهذه النعم ولا نستحق بها أي شيء آخر في الآخرة.

وستكون نتيجة هذه الأمور هي أن أعمالنا لا نستحق بها شيئاً على الله تعالى.

الاستغفار والولاية والشفاعة:

وقد يقول قائل: إذن أين الاستغفار الذي يستوجب عفو الله ومحو الذنوب كما جاء في النصوص القطعية الأكيدة مثل: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ (نوح: ١٠)؟

وأين ولايتنا لأهل البيت عليهم السلام ولرسوله ﷺ وهي أشرف الحسنات التي نطمع أن يدخلنا ربنا بها الجنة؟
وأين شفاعتهم عليهم السلام التي قال فيها رسول الله ﷺ: «إنما شفاعتي لأهل الكباير من أمتي»^(١).

فلماذا نقطع آمالنا من هذه الأعمال الصالحة؟ ولماذا لا يجوز لنا أن نعقد رجاءنا عليها، وليس في ذلك أيّ شرك أو اعتماد على غير الله تعالى؟
قلنا: إن قبول الاستغفار هو بلطف وفضل من الله تعالى وإلا فنحن لا نستحقُّ عليه القبول.

وإن قبول ولايتهم هو من فضل الله تعالى أيضاً.
وإن شفاعتهم هي بإذن من الله تعالى وفضله.
فكلُّ ما نرجوه بالحقيقة يرجع إلى فضل الله، وبدون ذلك الفضل سوف نفقد كلَّ أمل وكلَّ رصيد من الحساب.

﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ (البقرة: ٢٨٤)، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ (فاطر: ٤٥).
ولهذا قال عليه السلام: «وَمَا لِي بَعْدَ أَنْ حَكَمْتُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا فَضْلُكَ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَتَفَضَّلْ عَلَيَّ».

يقول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ (المائدة: ٥٤)،

(١) من لا يحضره الفقيه ٣: ٥٧٤ / ح ٤٩٦٣.

المقطع الثاني عشر ١٨٣

﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْنَا لَتَبِعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾
(النساء: ٨٣)، ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْنَا لَتَبِعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾
أَحَدٍ أَبَدًا﴾ (النور: ٢١).

جاء في دعاء كميل: «إِلَهِي وَرَبِّي مَنْ لِي غَيْرُكَ أَسْأَلُهُ كَشْفَ ضُرِّي
وَالنَّظَرَ فِي أَمْرِي»^(١).

ولعل من المفيد الإشارة إلى أن هذا المقطع لم يبدأ بالصلاة على
محمد وآله كما هو في المقاطع السابقة، لكن الإمام عليه السلام استدرك ذلك في
نهاية هذا المقطع.

والحقيقة أن الجُمْلَ الأُولَى من هذا المقطع لم تكن دعاءً وإنما كانت إقراراً
وإخباراً، «إِلَى مَغْفِرَتِكَ وَفَدْتِ...»، ولَمَّا أَرَادَ عليه السلام أَنْ يَبْدَأَ بِالسُّؤَالِ فِي خَتَامِ
تلك الكلمات ابتداءً أولاً بالصلاة ثم قال: «وَتَفَضَّلَ عَلَيَّ».

محاوَر أربعة للأخلاق:

العقل والمنطق والنيّة والعمل هي محاور أربعة يجب أن تخضع
للبعد الأخلاقي، وذلك يعني أن الجانب الأخلاقي يستوعب كل وجود
الإنسان، وهذا من روائع الكشوفات في هذا الدعاء العظيم.

«أَنْطِقْنِي بِالْهُدَى»:

النطق فيما يحكيه عن فكرة ورأي يجب أن يكون نطقاً خاضعاً
للهدى وليس منطلقاً من الهوى، «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى» (النجم: ٣)،
إنّ النطق الصحيح هو الذي ينبثق عن فكرة صحيحة، ولهذا فإنّ الدعاء
بالمَنطق السليم الصحيح يعني الدعاء بالعقل والرؤية السليمة.

(١) مصباح المتهدّد: ٨٤٦ / ح (٢٥/٩١٠).

١٨٤ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

حينما يقول أهل المنطق: (الإنسان حيوان ناطق)، فإنهم يشيرون بذلك للبُعد العقلي لدى الإنسان، وإن كلمة ناطق تعني بحسب جوهر دلالتها معنى كلمة عاقل.

الإمام علي عليه السلام يصف المتقين في خطبته المعروفة فيقول: «فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ، مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ، وَمَلْبَسُهُمُ الْإِقْتِصَادُ، وَمَشِيهِمُ التَّوَاضُّعُ»^(١).

والقرآن الكريم حينما يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ (الأحزاب: ٧٠ و٧١)، يقول المفسرون في ذلك: إن المقصود هو الاعتقادات الصحيحة التي يُعبر عنها القول السديد.

إن معنى «أَنْطِقْنِي بِالْهُدَى» أنطقني بالاعتقادات الصحيحة والرؤى والاجتهادات التي تنطلق من الهدى الإلهي وليس الهدى الشيطاني، في كل الأمور، وكل الممارسات الحياتية الفردية والاجتماعية، السياسية والقضائية، مع الصديق ومع العدو ومع القريب ومع البعيد.

صدق الحديث:

إن فكرة (النطق بالهدى) تتلخص في صدق الحديث.
صدق الحديث في كل المجالات، وبكل ما يُعبر عنه ذلك من تطابق مع الحقيقة، وتعامل مع الوجدان.
فالإنسان الذي لا تتطابق رؤاه مع الحق والحقيقة لا يكون صادق الحديث.

(١) نهج البلاغة: ٣٠٣ / الخطبة ١٩٣.

والإنسان الذي لا يتفاعل وجدانياً مع ما يقول لا يكون أيضاً صادق الحديث.

وهكذا فإنَّ صدق الحديث يعني مدلولاً واسعاً يُعبّر عن جوهر الإسلام ومجمل حركته وتأثيره على سلوك الإنسان.

ولهذا جاءت الأحاديث الشريفة لتقول عن أبي عبد الله عليه السلام: «لا تغتروا بصلاتهم ولا بصيامهم، فإنَّ الرجل ربَّما لهج بالصلاة والصوم حتَّى لو تركه استوحش، ولكن اختبروهم عند صدق الحديث وأداء الأمانة»^(١).

كما جاء في حديث آخر: «إنَّ علياً عليه السلام إنَّما بلغ ما بلغ به عند رسول الله صلى الله عليه وآله بصدق الحديث وأداء الأمانة»^(٢).

لا شكَّ أنَّ هناك ناساً كثيرين يصدقون في حديثهم ويؤدِّون الأمانات، لكن المقصود هنا هو المعنى الأعمق والأشمل لصدق الحديث وأداء الأمانة، وهو ما جاءت الدعوة إليه في القرآن الكريم: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة: ١١٩).

عن الليثي، عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، قال: «امتحنوا شيعتنا عند ثلاث: عند مواقيت الصلاة كيف محافظتهم عليها، وعند أسرارهم كيف حفظهم لها عند عدونا، وإلى أموالهم كيف مواساتهم لإخوانهم فيها»^(٣).

النطق بالذكر والنطق بالحق:

إنَّ بعض الأدعية تقول: «وَأَجْعَلْ لِسَانِي بِذِكْرِكَ لَهْجاً»^(٤)، ولكن

(١) الكافي ٢: ١٠٤ / باب الصدق وأداء الأمانة / ح ٢.

(٢) الكافي ٢: ١٠٤ / باب الصدق وأداء الأمانة / ح ٥.

(٣) الخصال: ١٠٣ / ح ٦٢.

(٤) مصباح المتهجد: ٨٥٠ / ح (٢٥/٩١٠).

١٨٦ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

المقصود هنا في قوله: «وَأَنْطِقْنِي بِالْهُدَى» هو أشمل وأوسع من ذلك، بمعنى أن اللسان يجب أن يكون ناطقاً بالحق والهدى حتى في البيع والشراء والمحادثات مع الناس جميعها.

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ (الأنعام: ١٥٢)، ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (النساء: ٥٨)، والعجيب أن هذا الأمر جاء بعد الأمر بأداء الأمانة حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ الأمر الذي يسمح لنا بالقول: إن الإسلام هو كلمتان: أحدهما أداء الأمانة، والثانية القول الصادق العادل.

«وَأَلْهَمْنِي التَّقْوَى»:

ما معنى إلهام التقوى؟ الإلهام هو وحي في القلب، وقذف في الفؤاد، والعلم هو «نور يقذفه الله في قلب من يشاء»^(١)، والحكمة عطاء إلهي ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ (ص: ٢٠).

والتقوى بمعنى أن يكون الإنسان خائفاً من الله، طالباً مرضاته، بعيداً من تأثيرات الشيطان في القلب، ونقيّاً من تجاذب الأهواء الباطلة، التقوى بمعنى إصابة الحق ومخافة الباطل.

التقوى بهذا المعنى ليست معرفة نظرية يستطيع أن يصل إليها الإنسان من خلال الجهد العلمي، بل هي إلهام إلهي يقذفه الله تعالى في قلوب المخلصين له، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت: ٦٩).

وجاء في الحديث النبوي الشريف المعروف: «من أخلص لله أربعين يوماً فجر الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»^(٢).

(١) الوافي ١: ١٠.

(٢) عدّة الداعي: ٢١٨.

ولذا فإنه لا بدّ من الدعاء والطلب من الله تعالى أن يُلهمنا حالة التقوى ومواقف التقوى ولا يتركنا إلى علومنا واجتهاداتنا. التقوى هي حالة في القلب تجعله خاشعاً خاضعاً لله باحثاً عن مرضاته بعيداً عن الجدل والرياء والمرء.

التقوى صفة الشيعة:

عن جابر، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: قال لي: «يا جابر، أيكثفي من ينتحل التشيع أن يقول بحبنا أهل البيت؟ فوالله ما شيعتنا إلاّ من اتقى الله وأطاعه، وما كانوا يُعرفون يا جابر إلاّ بالتواضع والتخشع والأمانة وكثرة ذكر الله والصوم والصلاة والبرّ بالوالدين والتعاهد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين والأيتام وصدق الحديث وتلاوة القرآن وكفّ الألسن عن الناس إلاّ من خير، وكانوا أمناء عشائريهم في الأشياء».

قال جابر: فقلت: يا ابن رسول الله، ما نعرف اليوم أحداً بهذه الصفة.

فقال: «يا جابر، لا تذهبنّ بك المذاهب، حسب الرجل أن يقول: أحبُّ عليّاً وأتولّاه، ثمّ لا يكون مع ذلك فعلاً؟ فلو قال: إني أحبُّ رسول الله فرسول الله ﷺ خير من علي عليه السلام ثمّ لا يتبع سيرته ولا يعمل بسنته ما نفعه حبه إياه شيئاً، فاتّقوا الله واعملوا ما عند الله، ليس بين الله وبين أحد قرابة، أحبُّ العباد إلى الله ﷻ [وكرمهم عليه] أتقاهم وأعملهم بطاعته. يا جابر، والله ما يُتقرب إلى الله تبارك وتعالى إلاّ بالطاعة وما معنا براءة من النار ولا على الله لأحد من حجّة، من كان لله

١٨٨ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

مطيعاً فهو لنا وليّ ومن كان لله عاصياً فهو لنا عدوّ، وما تنال ولايتنا إلا بالعمل والورع»^(١).

الدعاء في هذه الكلمة «وَأَهْمُنِي التَّقْوَى» دعاء لصلاح القلب وسلامة النية.

مقياس لمعرفة سلامة القلب:

عن جابر الجعفي، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: «إذا أردت أن تعلم أن فيك خيراً فانظر إلى قلبك، فإن كان يُحِبُّ أهل طاعة الله ويبغض أهل معصيته فبيك خير والله يُحِبُّك، وإن كان يبغض أهل طاعة الله ويُحِبُّ أهل معصيته فليس فيك خير والله يبغضك، والمرء مع من أحب»^(٢).

التقوى هي دعوة الأنبياء:

لا يوجد شيء أهم من التقوى لصلاح الدنيا وصلاح الآخرة، وإن التقوى هي خلاصة دعوة الأنبياء.

﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ (النساء: ١٣١).

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا عَمْرًا﴾ (الشعراء: ١٠٧ و١٠٨).

جاءت هذه الكلمة على لسان نوح، وهود، وشمود، ولوط، وشعيب وغيرهم.

(١) الكافي ٢: ٧٤ و٧٥ / باب الطاعة والتقوى / ح ٣.

(٢) الكافي ٢: ١٢٦ و١٢٧ / باب الحب في الله والبغض في الله / ح ١١.

التقوى هي مفتاح كل خير:

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق: ٢ و ٣).

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ (الطلاق: ٤).

ومن هنا كان علينا الاهتمام بهذا الرزق الإلهي العظيم وهو التقوى، والإلاحاح على الله تعالى أن يلهمنا التقوى في قلوبنا.

«اللَّهُمَّ اَمَلًا قَلْبِي حُبًّا لَكَ، وَخَشْيَةً مِنْكَ...»^(١).

وحتى العلوم والمعرفة هي تبعٌ للتقوى، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ (البقرة: ٢٨٢).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٩٦).

«وَوَفَّقَنِي لِلَّتِي هِيَ أَزْكَىٰ»:

ماذا يقصد عَلَيْهِ السَّلَام بقوله: «وَوَفَّقَنِي لِلَّتِي هِيَ أَزْكَىٰ»؟

هناك عدّة احتمالات في تفسير هذه الجملة:

الأوّل: وَّفَّقَنِي للأعمال التي هي أَزْكَىٰ، ولأنّ كلمة (الأعمال) مؤنّث مجازي فقد جاء بكلمة (التي)، ولو قال: (للعمل) لكان عليه أن يقول: الذي هو أَزْكَىٰ.

الثاني: وَّفَّقَنِي للنفس والنيّة التي هي أَزْكَىٰ، فالمقصود هو النفس والنيّة وليس العمل، وبما أنّ النفس والنيّة مؤنّث مجازي استعمل كلمة (التي).

(١) الكافي ٢: ٥٨٦ / باب دعوات موجزات لجميع الحوائج / ح ٢٤.

١٩٠ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

الثالث: وفَّقني للطريقة التي هي أذكى، بمعنى المنهج والمذهب الصالح الصحيح.

وكلُّ هذه الاحتمالات مقبولة وصحيحة، ولعلَّ الأقرب من تلك الاحتمالات هو الاحتمال الأوَّل حيث إنَّ التوفيق يقترن دائماً بالأعمال وليس بالقلوب والنفوس، كما أنَّ الاحتمال الثاني ليس ببعيد كما جاء في الدعاء: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَمتَّعِنِي بِهُدَى صَالِحٍ لَا أَسْتَبْدِلُ بِهِ، وَطَرِيقَةٍ حَقٌّ لَا أَزِيعُ عَنْهَا، وَنِيَّةٍ رُشِدٍ لَا أَشْكُ فِيهَا»، فالنِّيَّةُ الصالحة تحتاج إلى توفيق.

إنَّنا نسأل الله تعالى معرفة صحيحة ينشأ عنها منطق صحيح، وقلباً متّقياً تنشأ عنه مواقف صحيحة، وأعمالاً زاكيةً تتناسب مع ذلك القلب.

«وَاسْتَعْمِلْنِي بِمَا هُوَ أَرْضَى»:

إنَّ النِّيَّةَ الزاكية يجب أن يتبعها عمل صحيح، فبعد أن سأل الله تعالى أن يُوفِّقه للنِّيَّة التي هي أذكى _ بناءً على الاحتمال الثاني _ يسأله تعالى أن يُوفِّقه بعدئذٍ للعمل الذي يرضيه.

وكلمة «بِمَا هُوَ أَرْضَى» بمعنى بما هو أرضى لك وعندك.

وهذه الجملة تشبه ما جاء في بداية دعاء مكارم الأخلاق حينما قال: «وَاسْتَعْمِلْنِي بِمَا تَسَأَلُنِي غَدًا عَنْهُ».

فهذا الذي يرضاه الله تعالى هو نفسه الذي يسألنا عنه يوم القيامة.

الله تعالى يسأل يوم القيامة عن الصلاة والصيام والزكاة والرحم والولاية...، فهذا نحن ندعوه أن يجعل أبداننا وجوارحنا وأعضاءنا مستعملة في تلك الأمور لا في غيرها.

«اللَّهُمَّ اسْلُكْ بِي الطَّرِيقَةَ الْمُثَلَّى»:

إننا حين ندعو الله تعالى أن يجعل منطلقنا هدى، ويملاً قلوبنا تقوى، ويجعل نيّاتنا زكية، وأعمالنا مرضيةً فإننا نريد أن يكون ذلك هو منهجنا طول حياتنا وفي كلِّ أحوالنا وليس حالة مؤقتة، بل يكون هو طريقتنا في الحياة.

والطريقة المثلى هي الطريقة الأفضل.

وهذا المعنى هو نفسه الذي سيتكرّر بقوله: «وَطَّرِيقَةَ حَقِّ لَا أَزِيغُ عَنْهَا»، إنَّ بعض الناس قد يصيرون الموقف الصحيح أحياناً وفي فترة زمنية مؤقتة ثمَّ ينحرفون عن الجادة، لماذا؟ لأنَّ اتّجاههم وسمتهم غير صحيح، ونحن نسأل الله أن يجعل اتّجاهنا وسمت حركتنا صحيحاً حتّى تكون إصابة الحقّ دائمية.

إننا نريد أن تكون حياتنا كلّها مطابقة للحقّ وللطريقة الصحيحة.

ما هي الطريقة المثلى؟

الطريقة المثلى في الحياة وفي الوصول إلى الله تعالى هي طريقة محمد وآل محمد عليهم السلام، «قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي» (يوسف: ١٠٨).

وجاء في زيارة عاشوراء: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ مَحْيَايَ مَحْيَا مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَمَمَاتِي مَمَاتَ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ»^(١).

«وَاجْعَلْنِي عَلَى مِلَّتِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا»:

إننا نسأل الله تعالى أن يجعل مماننا على هذه الطريقة أيضاً.

(١) كامل الزيارات: ٣٣٠ و٣٣١/ح (٩/٥٥٦).

١٩٢ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

أعينوني بورع واجتهاد:

وإذا كنا لا نستطيع أن نكون مثلهم فإنَّ الإمام علياً عليه السلام يقول:
«أَلَا وَإِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ وَلَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ وَعِفَّةٍ
وَسَدَادٍ»^(١).

* * *

(١) نهج البلاغة: ٤١٧/ ح ٤٥.

المقطع الثالث عشر

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَتَعَنِّي
بِالْاِقْتِصَادِ، وَاجْعَلْنِي مِنْ أَهْلِ السَّدَادِ، وَمِنْ أَدَلَّةِ
الرِّشَادِ، وَمِنْ صَالِحِي الْعِبَادِ، وَارْزُقْنِي فَوْزَ الْمَعَادِ،
وَسَلَامَةَ الْمِرْصَادِ.

اللَّهُمَّ خُذْ لِنَفْسِكَ مِنْ نَفْسِي مَا يُخَلِّصُهَا، وَأَبْقِ
لِنَفْسِي مِنْ نَفْسِي مَا يُصْلِحُهَا، فَإِنَّ نَفْسِي هَالِكَةٌ أَوْ
تَعْصِمُهَا. اللَّهُمَّ أَنْتَ عُدَّتِي إِنْ حَزَنْتُ، وَأَنْتَ مُتَّجِعِي
إِنْ حُرِمْتُ، وَبِكَ اسْتِغَاثَتِي إِنْ كَرِهْتُ، وَعِنْدَكَ مِمَّا
فَاتَ خَلْفٌ، وَمِمَّا فَسَدَ صِلَاحٌ، وَفِيمَا أَنْكَرْتَ تَغْيِيرٌ،
فَأَمُنْ عَلَيَّ قَبْلَ الْبَلَاءِ بِالْعَافِيَةِ، وَقَبْلَ الْطَلَبِ بِالْحِدَّةِ،
وَقَبْلَ الضَّلَالِ بِالرِّشَادِ، وَاكْفِنِي مَوْوَنَةَ مَعَرَّةِ الْعِبَادِ،
وَهَبْ لِي أَمْنًا يَوْمَ الْمَعَادِ، وَأَمْنَحْنِي حُسْنَ الْإِرْشَادِ».

الموجز:

هذا المقطع يؤكد أساس طبيعة العلاقة مع الله كما أشير إليها سابقاً، ثم يبيّن على هذا الأساس التضرّع بطلب: الاقتصاد، والرشاد، والسداد، والصلاح، والفوز في النهاية. وقبل ذلك العافية، والغنى، وهي الصورة الكاملة للمؤمن كما ينبغي أن يكون.

من الأدعية الجامعة:

هذا المقطع من الدعاء هو من الأدعية الجامعة، التي توجز مطالب الدنيا والآخرة بكلمات صغيرة مثل دعاء: «اللهم اجعل النور في بصري، والبصيرة في ديني، واليقين في قلبي، والإخلاص في عملي...» الوارد في تعقيب الصلوات^(١).

ودعاء: «اللهم إني أسألك من كل خير أحاط به علمك، وأعوذ بك من كل شر أحاط به علمك» الوارد في تعقيب الصلوات أيضاً^(٢).
ودعاء: «اللهم إني أسألك العفو والعافية والمعافاة في الدنيا والآخرة»^(٣)، وغيرها من الأدعية الجامعة.

هذا المقطع من الدعاء يعود من التفصيل الذي جاء في المقاطع السابقة إلى الإجمال والإيجاز والتعبير بعبارة كلية جامعة، فهو يسأل الله تعالى أن يأخذ إليه كل ما من شأنه أن يُخلص أنفسنا ويُنجيها، وأن يحتفظ لأنفسنا كل ما يصلحها. إننا قد لا نعرف ما هي أخطاؤنا وأمراضنا الباطنية بالتفصيل، لذا نسأل الله سؤالاً عاماً ونقول له: خلصنا من تلك الأمراض، وإننا قد لا نعرف أيضاً ما هي الصفات الحسنة الموجودة لدينا والتي يُحبُّها الله تعالى، ومن هنا نسأل سؤالاً عاماً إجمالياً فنقول: أبق لنا تلك الصفات التي تنفعنا في صلاح أنفسنا.

وهذا المقطع يشبه _ من بعض النواحي _ ما جاء في دعاء أبي حمزة الثمالي: «فَاغْفِرْ لِي مَا خَفِيَ عَلَيَّ مِنَ الْآدَمِيِّينَ مِنْ عَمَلِي، وَأَدِّمْ لِي مَا بِهِ سَتَرْتَنِي»^(٤).

(١) بحار الأنوار ٨٣: ٦.

(٢) مصباح المتهجد: ٥٠ / ح (٤١ / ٦٨).

(٣) المصباح للكفعمي: ٢٥.

(٤) الصحيفة السجادية: ٢٢٨.

فنحن لا نعلم لماذا وبماذا ستر الله علينا؟ هل لعمل صالح قدّمناه، أو دعاء الأبوين لنا، أو عبادة مقبولة، أو صدقة بسيطة، أو كلمة نافعة... كل ذلك ممكن.

الاقتصاد المالي والسلوكي:

«وَمَتَّعِنِي بِالْاِقْتِصَادِ»:

الاقتصاد في اللغة يحمل معنى الاعتدال والابتعاد عن حالة الإفراط والتفريط.

وهذا المعنى حينما يُستعمل في جوانب الصرف المالي يكون دالاً على الاعتدال بين البخل وبين الإسراف والبذخ.

وهذا المعنى جاء قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان: ٦٧)، أي قائماً بين الحالتين.

وهذا المعنى جاء قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسِطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (الإسراء: ٢٩).

وهذا المعنى أيضاً قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصف المتقين: «مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ، وَمَلْبَسُهُمُ الْاِقْتِصَادُ، وَمَشِيهِمُ التَّوَاضُّعُ»^(١)، لكن القرآن الكريم يستعمل هذه الكلمة في مواضع سلوكية أخرى حيث قال تعالى: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٦٦)، وقال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ (فاطر: ٣٢).

والمعنى في هاتين الآيتين هو التوسط في السلوك بعيداً عن التورط في المعاصي ودون التسابق نحو الخيرات التي يصطلح عليها القرآن الكريم بعبارة ﴿السَّابِقُونَ﴾.

(١) نهج البلاغة: ٣٠٣ / الخطبة ١٩٣.

١٩٦ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

والاقتصاد بهذا المعنى يتطابق عملياً مع «أصحاب اليمين» الذين هم ليسوا من السابقين ولا من أصحاب الشمال. ويظهر أن مقصود الدعاء «وَمَتَّعْنِي بِالْاِقْتِصَادِ» هو هذا المعنى، وليس هو البعد المالي المصطلح عليه اليوم بالاقتصاد. وليس معنى الدعاء أن تكون من المقتصدين لا من السابقين، لأن الاقتصاد هي حالة وسطية يمكن أن يعبرها الإنسان ويصعد إلى حالة السابقين المسارعين في الخيرات، فالدعاء هنا كما لو قلت: اللهم اجعلني من أصحاب اليمين، أو اللهم أعطني كتابي بيمينتي، فإنه لا يعني أننا لا نريد أن نكون من السابقين، لأن السابقين هم أيضاً من أصحاب اليمين ولكنهم درجة أعلى من السابقين.

الاقتصاد في العبادة:

عقد الشيخ الكليني في كتابه الكافي باباً تحت هذا العنوان (الاقتصاد في العبادة) وأورد ستة أحاديث شريفة، منها:
عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «مرَّ بي أبي _ الإمام الباقر عليه السلام _ وأنا بالطواف وأنا حدث وقد اجتهدت في العبادة، فرآني وأنا أتصابُّ عرقاً، فقال لي: يا جعفر، يا بني، إنَّ الله إذا أحبَّ عبداً أدخله الجنة ورضي عنه باليسير»^(١).

أدلة الرشاد:

«وَأَجْعَلْنِي مِنْ أَهْلِ السَّادِ، وَمِنْ أَدِلَّةِ الرَّشَادِ»:
الدليل في اللغة بمعنى العلامة التي تشير إلى شيء ما، فالمعنى أن نكون من العلامات الدالة والمؤشرة نحو الرشاد.

(١) الكافي ٢: ٨٦ / باب الاقتصاد في العبادة / ح ٤.

ولا بدّ أن نعرف أنّ الأنبياء والأئمّة عليهم السلام هم بالأصل أدلّة الرشاد، كما نقرأ ذلك في القرآن الكريم حينما يقول: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الصف: ١٠)، فسيكون النبي في ضوء ذلك هو دليل على هذه التجارة التي هي الدين.

وهكذا حينما نقرأ في الزيارة الجامعة للأئمّة الأطهار عليهم السلام: «وَالْأَدِلَاءَ عَلَىٰ مَرْضَاةِ اللَّهِ»، «وَأَدِلَاءَ عَلَىٰ صِرَاطِهِ»^(١).

ونقرأ في زيارة الإمام الرضا عليه السلام: «وَالدَّلِيلِ عَلَىٰ مَنْ بَعَثَتْ بِرِسَالَتِكَ»^(٢)، جاء هذا التعبير عن الأئمّة عليهم السلام واحداً بعد واحد كما جاء عن رسول الله ﷺ.

إذن، فما معنى أن ندعو الله تعالى بأن يجعلنا من أدلّة الرشاد؟ والجواب: أنّ الدلالة على الله ودينه وأحكامه يجب أن يكون هدفاً للجميع لأنّه هو الهدف المقدّس إلّا أن المسألة نسبية، فالأنبياء والأئمّة عليهم السلام قد وصلوا هذه المرتبة بشكل كامل وآخرون بشكل دون ذلك. ولأجل ذلك يُعلّمنا القرآن الكريم أن ندعو بالقول: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان: ٧٤)، فنحن جميعاً يجب أن نعمل ونسعى لأن نكون من أئمّة التقى رغم أنّ الإمامة بمعناها الخاصّ مخصوصة بالأئمّة من أهل البيت عليهم السلام.

الدالّ على الخير:

عن ابن القدّاح، عن أبي عبد الله عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام، قال: قال

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٣٠٦ / ح ١.

(٢) كامل الزيارات: ٥١٥ / ح (٢/٨٠١).

١٩٨ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

رسول الله ﷺ: «كُلُّ معروف صدقة، والدالُّ على الخير كفاعله، والله
عَلَيْكَ يُحِبُّ إِغَاثَةَ اللَّهْفَانِ»^(١).

وهذا الحديث يدفعنا دائماً أن نكون من أدلة الخير بأيِّ مستوى
أمكن من المستويات.

الله هو الدليل الأكبر:

نقرأ في دعاء أبي حمزة الثمالي: «بِكَ عَرَفْتُكَ وَأَنْتَ دَلَّتَنِي عَلَيْكَ
وَدَعَوْتَنِي إِلَيْكَ وَلَوْلَا أَنْتَ لَمْ أَدْرِ مَا أَنْتَ»^(٢).

فضل الدلالة على الله:

يقول رسول الله ﷺ في وصيته للإمام علي عليه السلام: «يا علي، لا
تقاتلنَّ أحداً حتَّى تدعوه، وأيم الله لأن يهدي الله على يديك رجلاً خيراً
لك ممَّا طلعت عليه الشمس وغربت...»^(٣).

المسألة ممكنة:

ولا يتصور البعض أنَّ المسألة معقَّدة، وهي خاصَّة بالعلماء
ومراجع الدين، بل إننا جميعاً نستطيع أن نكون من أدلة الرشاد بدءاً من
البيت والأسرة، ثم الجيران والمحلَّة، ثمَّ لما هو أوسع من ذلك.
قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ
نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ (التحریم: ٦).

(١) الكافي ٤: ٢٧ / باب فضل المعروف / ح ٤.

(٢) الصحيفة السجادية: ٢١٤.

(٣) الكافي ٥: ٢٨ / باب وصية رسول الله ﷺ / ... ح ٤.

﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾:

هذه الآية جاءت في قصة موسى وفرعون حيث يقول الله تعالى في عرض القصة: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ (طه: ٤٠) (١).

زوجة زهير بن القين:

لقد كان زهير بن القين عثماني الهوى ولكن زوجته هي التي دلته ودفعته للخير العظيم حينما صار أحد أنصار الحسين عليه السلام واستشهد معه (٢).

(١) قال الطبرسي رحمته الله في مجمع البيان (ج ٧ / ص ٢٢): إن أم موسى اتخذت تابوتاً، وجعلت فيه قطناً، ووضعت موسى عليه السلام فيه، وألقته في النيل، وكان يشرع من النيل نهر كبير في باغ - بستان - فرعون، فيبنا هو جالس على رأس البركة مع امرأته آسية، إذ التابوت يجيء على رأس الماء، فأمر بإخراجه، فلمّا فتحوا رأسه إذا صبي به من أحسن الناس وجهاً، فأحبه فرعون بحيث لا يتمالك، وجعل موسى يبكي ويطلب اللبن، فأمر فرعون حتى أتته النساء اللاتي كنّ حول داره، فلم يأخذ موسى من لبن واحدة منهنّ، وكانت أخت موسى واقفة هناك إذ أمرتها أمها أن تتبع التابوت، فقالت: إني آتي بامرأة ترضعه، وذلك قوله: ﴿فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾ أي: أدلكم على امرأة تربيته وترضعه وهي ناصحة له، فقالوا: نعم، فجاءت بالأُمّ فقبل ثديها، فذلك قوله: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ برويتك وبقائك.

(٢) قال ابن نما في مشير الأحران (ص ٣٣): قال جماعة من فزارة وبجيلة: كنّا مع زهير بن القين نساير الحسين عليه السلام ناحية، فنزلنا منزلاً لا نجد بداً من أن ننازله فيه، فبينما نحن نتعدى من طعام لنا إذ أقبل رسول الحسين عليه السلام حتى سلّم وقال: يا زهير بن القين، إنّ أبا عبد الله بعثني إليك لتأتيه، فطرح كلّ إنسان ما في يده حتى كأنّما على رؤوسنا الطير، فقالت له زوجته ديلم بنت عمرو: سبحان الله، يبعث إليك ابن رسول الله ثم لا تأتيه؟ فلو أتيته وسمعت من كلامه. فمضى إليه، وما لبث أن جاء مستبشراً قد أشرق وجهه، فأمر بفسطاطه فقوّض وثقله ومتاعه فحوّل إلى الحسين عليه السلام.

٢٠٠ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

«وَمِنْ صَالِحِي الْعِبَادِ»:

لقد كان ذلك هو دعاء إبراهيم عليه السلام حينما قال: «تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ» (يوسف: ١٠١)، «رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ» ٨٣ «وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ» ٨٤ «وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ» ٨٥ (الشعراء: ٨٣ _ ٨٥).

إن (الصلاح) في أنفسنا وفي دياننا وآخرتنا وفي مجتمعنا هو غاية ما نرجوه.

قال الإمام الحسين عليه السلام: «إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي وأبي» (١).

وقال تعالى على لسان سليمان حينما مرَّ على وادي النمل: «وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ» (النمل: ١٩).

خيار العباد:

سُئِلَ الإمام الباقر عليه السلام عن خيار العباد، فقال: «الذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أسأؤوا استغفروا، وإذا أعطوا شكروا، وإذا ابتلوا صبروا، وإذا غضبوا غفروا» (٢).

الولاية شرط الصلاح:

عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبيه، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام _ في حديث طويل نأخذ منه موضع الحاجة _، قال: «إنكم لا تكونون صالحين حتى تعرفوا، ولا تعرفوا حتى تصدقوا، ولا

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.

(٢) الكافي ٢: ٢٤٠ / باب المؤمن وعلاماته وصفاته / ح ٣١.

المقطع الثالث عشر ٢٠١

تصدقوا حتّى تُسَلِّمُوا، أبواباً أربعة^(١) لا يصلح أولها إلا بآخرها، ضلّ أصحاب الثلاثة وتاهوا تيهاً بعيداً...»، إلى أن قال: «هيهات هيهات فات قوم وماتوا قبل أن يهتدوا وظنّوا أنّهم آمنوا، وأشركوا من حيث لا يعلمون. إنّ من أتى البيوت من أبوابها اهتدى، ومن أخذ في غيرها سلك طريق الردى، وصل الله طاعة وليّ أمره بطاعة رسوله، وطاعة رسوله بطاعته، فمن ترك طاعة ولاة الأمر لم يطع الله ولا رسوله...»^(٢).

خير البرية:

كما أنّ القرآن الكريم يستعرض صفات هؤلاء الصالحين الذين هم خير البرية ويُلخّصها بالإيمان والعمل الصالح فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ (البينة: ٧).

خير الرجال:

عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بخير رجالكم؟»، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «إنّ من خير رجالكم النقي، النقي، السمح الكفين، النقي الطرفين، البرّ بالديه، ولا يُلجئ عياله إلى غيره»^(٣).
«وَأَرْزُقْنِي فَوْزَ الْمَعَادِ»:

إنّ (الاقتصاد) و(أهل السداد) و(أدلة الرشاد) و(صالحى العباد) هي جوانب أخلاقية في سلوك الإنسان، ولكن نتيجة هذه الجوانب

(١) وهي: الصلاح، ثمّ المعرفة، ثمّ التصديق، ثمّ التسليم. والمقصود بالمعرفة معرفة الإمام والحق. (المؤلّف).

(٢) الكافي ١: ١٨١ - ١٨٣ / باب معرفة الإمام والردّ إليه / ح ٦.

(٣) الكافي ٢: ٥٧ / باب المكارم / ح ٧.

٢٠٢ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

الأخلاقية هي ربح الدار الآخرة، ولهذا عقب عليه السلام قائلاً: «وَارْزُقْنِي فَوْزَ الْمَعَادِ، وَسَلَامَةَ الْمِرْصَادِ».

من هم الفائزون؟

القرآن الكريم يتحدث عن الفائزين فيقول: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرًا أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (التوبة: ٢٠).

ويقول في آية أخرى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ الَّذِي يَتَّقُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (النور: ٥٢).

إن الفوز الحقيقي هو الفوز في الدار الآخرة الذي يقول عنه القرآن الكريم: ﴿وَفِيهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (غافر: ٩).

كما أن الروايات عن رسول الله ﷺ تؤكد أن شيعة الإمام علي عليه السلام هم أصحاب هذا الفوز، فقد جاء في الحديث عن محمد بن علي، قال: سألت أم سلمة زوج النبي ﷺ عن علي، فقالت: سمعت النبي ﷺ يقول: «إِنَّ عَلِيًّا وَشِيعَتَهُ هُمُ الْفَائِزُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

«وَسَلَامَةَ الْمِرْصَادِ»:

المرصاد هي الآخرة التي تترصد قدومنا عليها ووفودنا إليها.

خصال منجية و خصال مهلكة:

«اللَّهُمَّ خُذْ لِنَفْسِكَ مِنْ نَفْسِي مَا يُخَلِّصُهَا»:

ومن المفيد أن نعرف هنا بعض الخصال التي تؤدّي للنجاة،

(١) فضائل أمير المؤمنين لابن عقدة: ١٠١.

المقطع الثالث عشر ٢٠٣

وبعض ما يؤدي إلى الهلاك، لأننا إنما نبحث عن نجات أنفسنا وصلاح ذواتنا، فما هي الصفات التي يجب أن نتمثل بها؟ وما هي التي يجب أن نتجنبها؟

جاء في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ، قال: «ثلاث مهلكات، وثلاث منجيات، فالمنجيات: خشية الله ﷻ في السر والعلانية، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الرضا والغضب. والثلاث المهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه»^(١).

خصال يجب اجتنابها:

إنَّ كلَّ الصفات الذميمة يجب اجتنابها، لكن بعض الصفات تلون النفس وتجعلها بنحو متميز، وقد جاء في القرآن والسنة الإشارة إلى عدد من تلك الصفات، والنفوس المتصفة بها. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: ٩).

فيُعرف من ذلك أنَّ النفس الشحيحة والبخيلة هي تجرُّ صاحبها إلى الهلاك، وإذا خلص الإنسان نفسه من هذه الصفة فقد فُلِح. والشح هنا هو شحُّ بالمال والعمل والكلمة والدم والأولاد والوقت وغير ذلك، فإنَّ أصل كلِّ معصية هو شحُّ النفس، وأصل كلِّ طاعة هو كرم النفس.

وجاء في الأدعية الشريفة: «اللهم إني أعوذ بك من نفسٍ لا تقنع...» الوارد في تعقيبات الصلاة^(٢).

(١) الخصال: ٨٤ / ح ١١.

(٢) مصباح التهجد: ١٠٥ / ح (١٧٢/١٤٥).

٢٠٤ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

خصال إيجابية: «اللَّهُمَّ فَاجْعَلْ نَفْسِي مُطْمَئِنَّةً بِقَدْرِكَ، رَاضِيَةً بِقَضَائِكَ، مُوَلَّعَةً بِذِكْرِكَ وَدُعَائِكَ، مُجَبَّةً لِرِصْفَةِ أَوْلِيَائِكَ، مُحَبَّوبَةً فِي أَرْضِكَ وَسَائِكَ، صَابِرَةً عَلَى نُزُولِ بَلَائِكَ...» كما جاء في زيارة أمين الله^(١)، فهذه النفس هي نفس فائزة حينما تتصف بالاطمئنان، والرضا، والولع للذكر، والصبر على البلاء...

هذه الخصال هي التي يجب التحلي بها، وتلك الخصال الأولى يجب الاجتناب عنها.

صفات أخرى للنفس:

إن نصوصاً أخرى من الأدعية تُنبه إلى صفات أخرى للنفس يجب الحذر منها، كقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِلَهِي إِلَيْكَ أَشْكُو نَفْسًا بِالسُّوءِ أَمَّارَةً، وَإِلَى الْخَطِيئَةِ مُبَادِرَةً، وَبِمَعَاصِيكَ مُوَلَّعَةً، وَلِسَخَطِكَ مُتَعَرِّضَةً، تَسْلُكُ بِي مَسَالِكَ الْمَهَالِكِ، وَتَجْعَلُنِي عِنْدَكَ أَهْوَنَ هَالِكٍ، كَثِيرَةَ الْعَلَلِ، طَوِيلَةَ الْأَمَلِ، إِنَّ مَسَهَا الشَّرُّ تَجَزَعُ، وَإِنْ مَسَهَا الْحَيْرُ تَمْنَعُ...»^(٢).

نفوسنا يجب أن تكون محزونة:

قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في وصف المتقين: «نَزَلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلَاءِ كَأَلَّتِي نَزَلَتْ فِي الرَّخَاءِ...، قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ»^(٣).

لماذا تكون نفوس المؤمنين محزونة؟ ولماذا تكون وجلة خائفة كما قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ (النور: ٣٧)،

(١) مصباح المتهجد: ٧٣٨/ح (٩٨/١٢٩).

(٢) الصحيفة السجادية: ٤٠/ في مناجاة الشاكين.

(٣) نهج البلاغة: ٣٠٣/ الخطبة: ١٩٣.

المقطع الثالث عشر ٢٠٥

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾
(المؤمنون: ٦٠)؟

إنَّ سبب الخوف والوجل هو مخاطر يوم القيامة وأهواله وعدم
الاطمئنان بالنجاة منها.

النفوس هي التي تُحشر يوم القيامة:

إنَّ النفوس هي التي تُحشر يوم القيامة، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ
كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ (غافر: ١٧)، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا
كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (المدثر: ٣٨).

والنفوس في عالم الدنيا غير مكشوفة بشكل كامل لأنها متلبسة بالأبدان
البشرية، أمَّا يوم القيامة فإنَّ النفس تُحشر وتُعرض على حقيقتها الواقعية،
فبعض الناس يُحشرون على صورة الخنازير، وبعضهم على صورة الكلاب،
ويُحشر المتكبرون لضآلة وحقارة نفوسهم التي كانت سبب تكبرهم في الدنيا
على صورة الذرّ فيطأها الناس، كما جاء عن داود بن فرقد، عن أخيه، قال:
سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: «إنَّ المتكبرين يُجعلون في صور الذرّ،
يتوطأهم الناس حتّى يفرغ الله من الحساب»^(١)، ولهذا نقرأ في الدعاء: «اللَّهُمَّ لَا
تُبَدِّلْ اسْمِي وَلَا تُغَيِّرْ جِسْمِي»^(٢).

إذن في يوم القيامة هناك أسماء أُخرى وأجسام أُخرى هي غير
الأسماء البشرية والأجسام الإنسانية والعياذ بالله.

ومن هنا كان علينا الاهتمام بنفوسنا وحالاتها وصفاتها كما نهتمُّ
بالأعمال وشروط صحَّتها وقبولها.

(١) الكافي ٢: ٣١١ / باب الكبير / ح ١١.

(٢) مصباح المتهدّد: ٨٣٠ / ح (٥ / ١٩٠).

نار الأعمال والصفات والاعتقادات:

إنَّ العلماء العرفاء يذكرون _ استناداً إلى نصوص من القرآن والسُّنة _ أنَّ النار والجنة يوم القيامة على قسمين^(١):

الأوَّل: نار الأعمال وجنة الأعمال، بمعنى عقاب الأعمال وثوابها.

الثاني: نار الصفات النفسية وجنة الصفات.

ذلك أنَّ النفس الإنسانية تتشكَّل وتتلبَّس ببعض الصفات بحيث تكون ملتحمة معها.

مثال ذلك الكبر والحسد والشحَّ والعُجب، فهذه صفات نفسية تصبغ النفس بلونها سواء صدر منها عمل أو لم يصدر، وهذه النفس تُحسَّر يوم القيامة بما يتناسب مع هذه الحالة.

والنصوص الشريفة تؤكد أنَّ ثواب وعقاب الصفات النفسية هو أشدَّ بكثير من ثواب وعقاب الأعمال.

جاء في الأحاديث الشريفة عن زرارة، عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام، قالاً: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر»^(٢).

وعن ابن بكير، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إنَّ في جهنم لوادياً للمتكبرين يقال له: سقر، شكا إلى الله عزَّ وجلَّ شدة حرِّه وسأله أن يأذن له أن يتنفس فتنفس فأحرق جهنم»^(٣).

الثالث: نار الاعتقادات:

وهي أشدَّ من الأولى والثانية، ولذا فإنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يغفرُ أن يُشركَ به ويغفرُ ما دُونَ ذلكَ لِمَن يَشَاءُ (النساء: ٤٨).

(١) راجع: الأربعون حديثاً للإمام الخميني رحمته الله. (المؤلَّف).

(٢) الكافي ٢: ٣١٠ / باب الكبر / ح ٦.

(٣) الكافي ٢: ٣١٠ / باب الكبر / ح ١٠.

هلاك النفس وضرورة الاعتصام:

«إِنَّ نَفْسِي هَالِكَةٌ أَوْ تَعَصِمُهَا»:

النص الأخير في هذا المقطع من الدعاء الذي يقول: «إِنَّ نَفْسِي هَالِكَةٌ أَوْ تَعَصِمُهَا»، يتحدث عن مفهوم إسلامي عن النفس الإنسانية، ويتلخص هذا المفهوم في أن النفس الإنسانية تتجه نحو الضلال والانحراف لو لا الاعتصام بالله تعالى وعناياته.

هذا المعنى هو الذي يظهر مما قاله القرآن الكريم على لسان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ حين قال: ﴿وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ (يوسف: ٥٣).

نظريات في النفس الإنسانية:

هذا الأمر يجرنا للحديث عن نظريات حول النفس الإنسانية.

النظرية الأولى: إن النفس تميل بطبعها نحو الشر، فهي بالأصل شريرة الاتجاه، ولا بد من التربية والقانون لأجل كبح جماحها وتعديل اتجاهها، وهذه النظرية هي التي تبنتها بعض المدارس الغربية في علم النفس.

النظرية الثانية: إن النفس الإنسانية حيادية من حيث الخير والشر، فهي في حد ذاتها طاقة يمكن أن تخضع لتأثيرات إيجابية فتصبح خيرة، أو تأثيرات سلبية فتصبح شريرة، أو أنها ذات دوافع خيرة وأخرى شريرة، ودور التربية والقانون هو الموازنة الجيدة والصحيحة بين هذه الدوافع.

النظرية الثالثة: إن النفس خيرة بالطبع، وجميع الدوافع التي فيها هي دوافع خيرة، لكن هذه الدوافع لأنها تتزاحم فيما بينها تتحول إلى

٢٠٨ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

شرّ، مثال ذلك شهوة الأكل فإنّها خيرّة بالأصل، ولكن إذا تجاوزت حدودها تحوّلت إلى شرّ.

فالشرّ لا وجود له في أصل النفس البشرية وإنّما ينشأ من تجاوز الحدود للدوافع الخيريّة، وهنا لا بدّ من التربية والقانون وتعليم تلك الحدود والتزامها، ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ (الطلاق: ١)، إنّ علماء الأخلاق الإسلاميّة يميلون لهذه الرؤية.

وقد يستشهدون لذلك بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين: ٤).

كما يستدلّون على ذلك بما دلّ من الآيات الكريمة على أنّ التوحيد هو ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (الروم: ٣٠)، والتوحيد يعني في أحد مداليه سلامة الاتجاه، ونقاء النفس الإنسانية.

إذن كيف تُفسّر هذه النظرية وقوع الضلال والشرور؟ وكيف تُفسّر قوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ (يوسف: ٥٣)؟

وكيف تُفسّر قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ (الأنبياء: ٣٧)، و﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً﴾ (١٩) إذا مسّه الشرُّ جزوعاً ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾ (المعارج: ١٩ - ٢١)؟

وكيف تُفسّر قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: ٧٢)؟ والجواب: أنّ العجلة والهلع والجهل هي نقاط ضعف في النفس البشرية، لا نريد أن ندّعي الكمال للنفس البشرية، بل نريد القول: إنّ النفس ليست شريرة بالذات ولا حيادية، وذلك لا يتنافى مع كونها على درجة كبيرة من نقاط الضعف التي يجب العمل على إزالتها.

أَمَّا مَنْ أَيْنَ يحدث الشرّ والظلم؟ فالجواب: أنه يحدث لا من خلال الدوافع الذاتية للإنسان وإنما من خلال إغراء الشيطان وخداعه، ولو لا الشيطان لما ضلَّ أحدٌ من البشر، ولأجل ذلك كان الإنسان بحاجة إلى عناية الله وعصمته ورحمته حتى ينجو من مكائد الشيطان.

والحال هنا تماماً كما هو الحال في بدن الإنسان، فلا شك أن البدن يسير بحالة من التماسك والتواصل والنظام بحيث لو لا الأوبئة الخارجية وسوء التغذية لما تعرّض إلى الأمراض، فالأمراض هي حالة طارئة من الخارج، وكان الإنسان يحتاج إلى دواء لدفع تلك الأوبئة الطارئة، فهكذا النفس البشرية ﴿لَأَمَّا رَةٌ بِالسُّوءِ﴾ بفعل إغواء الشياطين ﴿إِلَّا مَا رَجَمَ رَبِّي﴾.

إننا هنا _ لسنا بصدد مناقشة هذه النظريات، وإنما بصدد معرفة عمق المعنى في قوله ﷺ: «إِنَّ نَفْسِي هَالِكَةٌ أَوْ تَعَصِمَهَا»، فلا بد من الاعتقاد بأنه لا يمكن الاعتماد على أنفسنا في المواجهة مع الاغواءات الخارجية أو الداخلية _ بناءً على النظرية الثانية _، بل نحتاج بشكل مطلق إلى رحمة الله وعنايته، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (آل عمران: ١٠١)، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْنَا وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء: ٨٣).

عود على بدء:

ثمّ يعود الإمام ﷺ بعد أن يؤكّد الحقيقة السابقة في ضعف النفس وحاجتها إلى الإصلاح والعناية الإلهية...، يعود الإمام لتأكيد حالة التوكّل والثقة والانقطاع المطلق إلى الله تعالى الذي سبق أن أكّده في مقاطع سابقة فيقول:

٢١٠ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

«اللَّهُمَّ أَنْتَ عُدَّتِي إِنْ حَزَنْتُ، وَأَنْتَ مُتَّجِعِي (ملاذي) إِنْ حُرِمْتُ، وَبِكَ اسْتِغَاثِي إِنْ كَرِهْتُ (أصابتني كارثة)، وَعِنْدَكَ مِمَّا فَاتَ خَلْفُ، وَمِمَّا فَسَدَ صِلَاحُ، وَفِيهَا أَنْكَرْتُ (واستوحشت منه) تَغْيِيرٌ».

وإذا كان الحال كذلك فإني أسألك يا الله قائلًا: «فَأَمْنُنْ عَلَيَّ قَبْلَ الْبَلَاءِ بِالْعَافِيَةِ، وَقَبْلَ الطَّلَبِ بِالْجِدَّةِ (بالغنى)، وَقَبْلَ الضَّلَالِ بِالرِّشَادِ، وَاكْفِنِي مَوْوَنَةَ مَعَرَّةِ الْعِبَادِ، وَهَبْ لِي أَمْنًا يَوْمَ الْمَعَادِ، وَامْنَحْنِي حُسْنَ الْإِرْشَادِ».

* * *

المقطع الرابع عشر

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَادْرَأْ عَنِّي بِلُطْفِكَ،
وَاعْزِدْنِي بِنِعْمَتِكَ، وَأَصْلِحْ لِي بِكَرَمِكَ، وَدَاوِنِي بِصُنْعِكَ،
وَأَظِلَّنِي فِي ذَرَاكَ، وَجَلِّ لِي رِضَاكَ، وَوَقِّفْنِي إِذَا اشْتَكَلْتُ عَلَيْ
الْأُمُورَ لِأَهْدَاهَا، وَإِذَا تَشَابَهَتِ الْأَعْمَالُ لِأَزْكَاهَا، وَإِذَا
تَنَاقَضَتِ الْمِلَلُ لِأَرْضَاهَا».

الموجز:

هذا هو المقطع الرابع عشر من دعاء مكارم الأخلاق، ويتضمن
ست دعوات ثم يختتمها بطلب التوفيق:

- ١ _ دفع المخاطر.
 - ٢ _ الاستفادة من النعم.
 - ٣ _ إصلاح النفس.
 - ٤ _ مداواة البدن.
 - ٥ _ الاستظلال بظل الله.
 - ٦ _ التكريم بالرضى الإلهي.
 - ٧ _ التوفيق لأهدى الأمور، وأزكى الأعمال، وأرضى الملل.
- «وَادْرَأْ عَنِّي بِلُطْفِكَ»:

بمعنى اُدفع عني ما أخطر وأخاف مما نعلم ومما لا نعلم بلطفك
وإحسانك.

٢١٢ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

هذا هو لطف من الله تبارك وتعالى أن يدفع عنا البلاءات والمخاطر المحيطة بنا، ولولا لطف الله تبارك وتعالى وإحسانه إلينا لم نكن قادرين على أن نواصل الحياة ولا لحظة واحدة.

الحقيقة أن الإحسان الإلهي ليس هو فقط في ما يعطينا، بل هو وبشكل أكبر هو بما يدفع عنا من البلايا المحيطة بنا.

نحن لا نستطيع أن نُحصي كم هي البلايا والمخاطر التي يدفعها عنا في أموالنا أو أبداننا أو ديننا أو في ذريتنا أو في أهلنا أو في جيراننا أو في مجمل حركتنا، إن كل ذرة من ذرات بدننا وكل لحظة من لحظاتنا هي محفوفة بالمخاطر التي يدفعها الله عنا، ولولا ذلك لهلكنا.

إن توقّف خلية من خلايا الدماغ تُسبّب لنا كارثة، إن زلّة قدم واحدة تُسبّب لنا فاجعة، إن ارتفاع في ضغط الدم أو ارتفاع في نسبة السكر قد يُسبّب لنا العمى، وهكذا نجد أننا نعيش في محيط من البلاء.

مخطئ من يتصور أنه قادر على أن يدفع البلايا المحيطة به في داخله وفي خارجه وفي ذرات بدنه ودقات قلبه.

إن توقّف القوّة العضلية في البدن تعني أنك غير قادر على أيّ حراك وحتى لا تستطيع أن تفتح عينيك.

ولأجل هذا نجد أن الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفه يقول: «فَأَيُّ أَنْعُمِكَ يَا إِلَهِي أَحْصِي عَدَدًا أَوْ ذِكْرًا، أَمْ أَيُّ عَطَايَاكَ أَقْوَمُ بِهَا شُكْرًا، وَهِيَ يَا رَبِّ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصِيهَا الْعَادُّونَ، أَوْ يَبْلُغَ عِلْمًا بِهَا الْحَافِظُونَ، ثُمَّ مَا صَرَفْتَ وَذَرَأْتَ عَنِّي اللَّهُمَّ مِنَ الضَّرِّ وَالضَّرَّاءِ أَكْثَرَ مِمَّا ظَهَرَ لِي مِنَ الْعَافِيَةِ وَالسَّرَّاءِ»^(١).

(١) إقبال الأعمال ٢: ٧٦.

هذا هو الذي نقرؤه أيضاً في الدعاء: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَصْبَحْتُ فِي حِمَاكَ
الذي لا يستباح، وأمست في ذمَّتِكَ التي لا تخفر، وجوارك الذي لا
يضام. وأسألك اللَّهُمَّ بعزَّتِكَ وقدرتك أن تجعلني في حرزك وجوارك،
وأمنك وعيادك، وعدتك وعقدك، وحفظك وأمانك، ومنعك الذي لا
يرام، وعزَّكَ الذي لا يستطيع من غضبك، وسوء عقابك وسطوتك،
وسوء حوادث النهار، وطوارق الليل إلا طارقاً يطرق بخير، يا
رحمن»^(١)، طوارق الليل والنهار غير مترقبة ولا المحتسبة ولا المحتملة،
لكنَّك تفاجأ بطارقٍ يطرقك في ليل أو نهار.

هذا أيضاً هو ما نقرؤه في دعاء يوم الأحد حين يقول الإمام
السَّجَّادُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «بِكَ أَسْتَجِيرُ يَا ذَا الْعَفْوِ وَالرِّضْوَانِ مِنَ الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ
وَمِنْ غَيْرِ الزَّمَانِ وَتَوَاتُرِ الْأَحْزَانِ وَطَوَارِقِ الْحُدُوثَانِ»^(٢)، الحدثان هما
الليل والنهار، إذن كما نسأل الله تبارك وتعالى أن يلطف بنا في العطايا
والنعم نسأله أن يدرأ عنا تلك المخاطر التي لا نعلمها أو تلك التي
نعلمها.

«وَأَغْذِي بِنِعْمَتِكَ»:

أُغْذِي هُنَا لَيْسَ بِمَعْنَى: أَطْعَمَنِي، وَإِنَّمَا بِمَعْنَى طَلْبِ الْإِنْمَاءِ
والتَّغْنِيَةِ، فَنَحْنُ نَنْمُو وَنَكْبُرُ وَنَزْدَادُ عَمْرًا وَقَابِلِيَّةً بِنِعْمِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى،
أُغْذِي بِمَعْنَى: زِدْ فِي عَطَايَاكَ الَّتِي تَنْمِينِي، وَلَعَلَّ مِنْ هُنَا جَاءَتْ كَلِمَةُ
غِذَاءٍ، الْغِذَاءُ هُوَ مَا يَدْعُو الْبَدْنَ لِلنَّمُو، الْحَقِيقَةُ أَنَّ كُلَّ نَمُو عِنْدَنَا هُوَ مِنْ
عِنْدِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَمِنْ نِعْمِهِ عَلَيْنَا الظَّاهِرَةُ وَنِعْمِهِ الْبَاطِنَةُ الَّتِي لَا

(١) الصحيفة السَّجَّادِيَّة/ أَبْطَحِي: ٦٠ و٦١، دَعَاؤُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْمَعْرُوفُ بِالْحَرِزِ الْكَامِلِ.

(٢) الْمَصْبَاحُ لِلْكَفَعْمِيِّ: ١٠٨.

٢١٤ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

تعدّ ولا تُحصَى، والتي جاءت الإشارة إليها في دعاء الإمام الحسين عليه السلام في المقطع السابق الذي ذكرناه آنفاً من دعاء عرفة، حيث يتحدّث عليه السلام عن النعم أولاً، ويتحدّث عن ما درأ عنا من البلايا ثانياً.

«وَأَصْلِحْني بِكَرَمِكَ»:

المخاطر التي يدرؤها الله عنا، والنعم التي يمنحنا إيّاها، كلّها قد يسلك الإنسان بها سلوكاً منحرفاً، فرغم كلّ اللطف الإلهي وكلّ النعم الإلهية لكن قد يُبدّد الإنسان تلك النعم ويجعلها وبالاً عليه، ولذا لا بدّ من طلب الإصلاح باستمرار، الإصلاح هو نوع من الكرم الإلهي، ولولا هذا الكرم ما صلحنا.

المسارعة في الخيرات:

وهنا نستذكر قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خاشِعِينَ﴾ (الأنبياء: ٩٠).

هذا النصّ القرآني الذي جاء في قصّة زكريا حين سأل الله تبارك وتعالى الذريّة، وكانت زوجته غير قادرة على الإنجاب، هنا قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾، لكن لاحظوا أنّ هذا الإصلاح الذي تفضّل الله تعالى به على زوجة زكريا لم يكن بدون استحقاقات لهذا الإصلاح.

لقد أشارت الآية القرآنية إلى عدّة شروط أو استحقاقات لهذا

الإصلاح:

أولاً: المسارعة في الخيرات.

وثانياً: الدعاء.

وثالثاً: الخشوع، يقول تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾.

هذه ثلاثة عوامل يجب أن تتوفر حيننا ننتظر من الله تبارك وتعالى أن يصلح حالنا.

قصة زكريا:

إنَّ زكريا عليه السلام كان نبياً عظيماً من أنبياء بني إسرائيل، وهو شيخ كبير لم يكن له ولد، وكانت امرأته عاقراً، فنادى ربه نداءً خفياً مستتراً عن أعين الناس، قال: رَبِّ إِنِّي ضَعَفْتُ قُوَايَ وَوَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي، واضطرم المشيب في سواد رأسي، ويا ربِّ إِنِّي خَفْتُ مِنْ أَبْنَاءِ عَمِّي مِنْ بَعْدِي، فَأَعْظِنِي مِنْ وَاسِعِ فَضْلِكَ وَعَظْمِ جُودِكَ وَعَطَائِكَ وَلِدًا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ، واجعله ربِّ رضيعاً.

فاستجاب الله تبارك وتعالى دعاءه وتولَّى تسمية الولد بنفسه فقال: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾ (مريم: ٧)، فلمَّا سمع هذه البشري صار متعجباً، فقال: من أيِّ وجه كان لي ولد وامرأتي عاقرة، وقد ضعفت من الكبر؟ وقال الله تعالى في ردِّ كلامه: يا زكريا، إِنِّي إِذَا أَرَدْتُ شَيْئًا كَانَ دُونَ أَنْ يَتَوَقَّفَ عَلَيَّ الْأَسْبَابُ الْعَادِيَةِ الَّتِي رَسَمْتَهَا لِلْحَمْلِ وَالْوَلَادَةِ. يا زكريا، ليس خلق هذا الغلام الذي وعدتك بأعجب من خلق البشر جملةً من العدم.

قال زكريا: يا ربِّ، اجعل لي علامة تدلني على تحقق المسؤل.

فقال الله تبارك وتعالى: علامتك على وجود المبشَّر به وحصول الحمل ألا تقدر على تكلم الناس بكلامهم المعروف ثلاث ليال وأنت صحيح الجسم ليست بك علة ولا مرض.

الدعاء بإصلاح الذرية:

يقول القرآن الكريم: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي دُرِّيَّتِي﴾ (الأحقاف: ١٥)، الدعاء بالتوفيق للعمل الصالح، وطلب الإصلاح لأنفسنا ولزوجاتنا ولذرياتنا.

«وَدَاوِنِي بِصُنْعِكَ»:

الدواء من الله تبارك وتعالى والعافية من الله تبارك وتعالى، والإنسان يجب أن يكون جاداً وملحاً بطلب العافية، وقد جاء في الأدعية الجامعة: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ وَالْمَعَاوَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(١).

السؤال الآن هل الإنسان مريض حتى يسأل الله العافية؟

الجواب: نعم، ليس هذا الدعاء فقط للمرضى، وإنما الإنسان دائماً يحتاج إلى طلب العافية من الله تعالى.

نستطيع أن نقول: إن الإنسان دائماً هو في محنة مرضية إن كان في بدنه أو في قلبه طالما هو في معركة مع الشيطان، ولهذا نجد الإمام علي عليه السلام في دعاء الصباح يقول: «إِلَهِي قَلْبِي مَحْجُوبٌ، وَنَفْسِي مَعْيُوبٌ، وَعَقْلِي مَغْلُوبٌ، وَهُوَائِي غَالِبٌ»^(٢)، هذا اعتراف واضح بأن الإنسان مهما بلغ في مستويات الكمال لكنه يعاني من عيب الذات والنقص الوجودي الذي يحتاج إلى دواء، والدواء من عند الله تبارك وتعالى.

«وَأَظْلِنِي فِي ذَرَاكَ»:

وأظلني في ذراك بمعنى: في حماك وفي كنفك وفي ملاذك، الإنسان

(١) المصباح للكفعمي: ٢٥.

(٢) بحار الأنوار ٨٤: ٣٤١ / ح ١٩.

يوم القيامة كما هو في الدنيا لا يستطيع أن يعيش بعيداً عن ظلّ الله تبارك وتعالى وحمايته.

جاء في الحديث النبوي الشريف: «سبعة يظلّهم الله ﷻ في ظلّه يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله ﷻ، ورجل قلبه متعلّق بالمسجد إذا خرج منه حتّى يعود إليه، ورجلان كانا في طاعة الله ﷻ فاجتمعا على ذلك وتفرّقا، ورجل ذكر الله ﷻ خالياً ففاضت عيناه من خشية الله ﷻ، ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال، فقال: إني أخاف الله ﷻ، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتّى لا تعلم شماله ما يتصدّق بيمينه»^(١).

علينا أن نسأل أين نحن من هؤلاء السبعة؟

أرض القيامة:

هناك رواية عن عبد الرحمن بن زيد، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: قال رسول الله ﷺ: «أرض القيامة نار ما خلا ظلّ المؤمن فإن صدقته تظلّه»^(٢)، هناك في القيامة نار نحتاج منها إلى ظلّ، والصدقة هي التي تُظلّل علينا، وكلّ عمل صالح هو صدقة، فقد ورد في الحديث النبوي الشريف: «الكلمة الطيبة صدقة»^(٣).

«وَجَلَلَنِي رِضَاكَ»:

بمعنى غطني برضائك، فنحن نحتاج إلى هذا الغطاء، غطاء الرضا من الله تبارك وتعالى.

(١) الخصال: ٣٤٢ و ٣٤٣ / ح ٧.

(٢) الكافي ٤: ٣ / باب فضل الصدقة / ح ٦.

(٣) مكارم الأخلاق: ٤٦٧.

٢١٨ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

«وَوَفَّقَنِي إِذَا اشْتَكَلْتُ عَلَيَّ الْأُمُورُ لِأَهْدَاهَا»:

التوفيق هو ما لا يمكن للإنسان أن يستغني عنه مهما كان ذكياً ثرياً قوياً، لكنّه بدون توفيق الله تبارك وتعالى يفشل في حياته، ولهذا الدعاء هنا وفي مواضع كثيرة يؤكّد على سؤال التوفيق من الله سبحانه وتعالى.

الإمام الصادق عليه السلام يقول: «لا يستغني المؤمن عن خصلة وبه الحاجة إلى ثلاث خصال، توفيق من الله عز وجل، وواعظ من نفسه، وقبول ممن ينصحه»^(١).

من هي الفرقة الناجية؟

رسول الله ﷺ يقول: «ستفترق أمتي على نيف وسبعين فرقة كلهم في النار إلا فرقة واحدة»^(٢).

كيف نعرف تلك الفرقة الناجية؟

هنا نحتاج إلى توفيق من الله تبارك وتعالى.

رسول الله ﷺ شخّص الطريق فعن أبي ليلى الغفاري، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكون بعدي فتنة، فإذا كان ذلك فالزموا علي بن أبي طالب، فإنه أول من يراني، وأول من يصافحني يوم القيامة، هو الصديق الأكبر، وهو فاروق هذه الأمة، يُفرّق بين الحقّ والباطل»^(٣).

التوفيق وحده هو القادر على أن يكشف لنا الظلمات، ويدلّنا على الطريق

(١) المحاسن ٢: ٦٠٤ / ح ٣٣.

(٢) تفسير الرازي ١: ٢١٠.

(٣) الاستيعاب ٤: ١٧٤٤ / ح ٣١٥٧.

الصحيح، ويفتح قلبنا لالتزام التوصيات الدينية، ولهذا يقول الدعاء: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَأَرِنِي الْحَقَّ حَقًّا فَاتَّبِعْهُ، وَالْبَاطِلَ بَاطِلًا فَاجْتَنِبْهُ، وَلَا تَجْعَلْهُ عَلَيَّ مُتَشَابِهًا فَاتَّبِعْ هَوَايَ بِغَيْرِ هُدًى مِنْكَ»^(١).

القرآن الكريم أيضاً يقول على لسان الأنبياء: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ (الأعراف: ٤٣)، لولا هداية الله لم يمكن للإنسان أن يهتدي.

قصة الدكتور التيجاني:

ومن الجميل أن نستعرض هنا قصة الدكتور التيجاني كما ينقلها في مقدمة كتابه (ثم اهتديت) حين يقول: إنه وفد إلى زيارة الإمامين الكاظمين عليهما السلام فلما نظر إلى القبَّتين يقول: (لم أكن بعد أعرف وجهة المكان المقصود، حتى تراءت لي قباب ومآذن ذهبية يأخذ إشعاعها بالأبصار)، ومع ذلك كان يتساءل عن معنى زيارة القبور وزيارة هؤلاء الموتى، ثم انتقل إلى زيارة الإمام علي عليه السلام بنفس الشكوك المحيطة به، ثم انتقل إلى زيارة الإمام الحسين عليه السلام، وما زال يُحدث نفسه يتقدم تارةً ويتأخر أخرى، ولدى خروجه من مرقد الإمام الحسين عليه السلام سمع خطيباً يقصُّ قصَّة الحرِّ الرياحي وكيف كان يرتجف، وحين سُئِلَ قال: (أخيراً نفسي بين الجنة والنار)، هنا يقول الدكتور التيجاني: (لم أتمالك عند سماع هذا أن سقطت على الأرض باكياً، وكأني أمثل دور الحرِّ وأطلب من الحسين: هل من توبة يا بن رسول الله^(٢)).

* * *

(١) بحار الأنوار ٩٩: ٢٢ / ح ١١.

(٢) راجع: ثم اهتديت: ٢٤٧ - ٣٤٢.

المقطع الخامس عشر

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَتَوَجَّنِي بِالْكَفَايَةِ،
وَسُئِنِي حُسْنَ الْوِلَايَةِ، وَهَبْ لِي صِدْقَ الْهُدَايَةِ، وَلَا
تَنْفِتْنِي بِالسَّعَةِ، وَأَمْنَحْنِي حُسْنَ الدَّعَةِ، وَلَا تَجْعَلْ
عَيْشِي كَدًّا كَدًّا، وَلَا تَرُدَّ دُعَائِي عَلَيَّ رَدًّا، فَإِنِّي لَا
أَجْعَلُ لَكَ ضِدًّا، وَلَا أَدْعُو مَعَكَ نِدًّا».

«وَتَوَجَّنِي بِالْكَفَايَةِ»:

هناك تفسيران لهذه العبارة الواردة في الدعاء:

الأول: «تَوَجَّنِي بِالْكَفَايَةِ» بمعنى الكفاءة واللياقة والقدرة، بمعنى:

اجعلني من ذوي القدرة في العمل والأداء وخدمة الدين والمجتمع.

وأصل الكلمة (الكفاءة) لكنها تُقرأ (الكفاية) للتخفيف، من

قبيل الولاية حيث أصل الكلمة الولاءة مثل البراءة، وكذلك الهداية.

«وَسُئِنِي حُسْنَ الْوِلَايَةِ» بمعنى: ارزقني حُسن الإدارة والتدبير

لمن تولَّيت أمره، وكلمة سُمني من السُّوم بمعنى المعاملة والاستعمال.

«وَهَبْ لِي صِدْقَ الْهُدَايَةِ» بمعنى: هب لي الصدق في عملية هداية

الآخرين وتوجيههم وإرشادهم.

فيكون مجموع الدعاء: أن أكون كفوءاً، حَسَنَ الإدارة، صادق

العمل والنية في إرشاد وهداية الآخرين.

٢٢٢ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

الثاني: «تَوَجَّني بِالْكِفَايَةِ» بمعنى: ارزقني الكفاية في العيش والرزق، فلا أكون فقيراً وعبلاً على الآخرين، ومنه (كفاية المؤمنة).
«وَسَمِّنِي حُسْنَ الْوِلَايَةِ» بمعنى: تولَّ يا إلهي حالي، وكُنْ أنت وليي بأحسن الولاية والرعاية، ولا تتركني لغيرك، ولا تجعل غيرك هو وليي وذلك هو سوء الولاية.

«وَهَبْ لِي صِدْقَ الْهُدَايَةِ» بمعنى: اجعلني من المهتمدين بالهداية الصادقة وليس الهداية الضالَّة التي هي هداية الشيطان وأصحابه، فهناك هدى الله وهناك هدى الشيطان والذي هو الضلال نفسه.

قال تعالى: ﴿أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ (الصافات: ٢٢ و ٢٣).
هذا التفسير الثاني للعبارة هو التفسير الأظهر، ولنقف عنده قليلاً.

حالتان للكفاية:

الكفاية والغنى في العيش وعدم الافتقار للآخرين يحصل في حالين:
الأول: الوفرة في المال والولد والعافية.
الثاني: القناعة النفسية، وعفاف النفس وشعورها بالغنى الذاتي عن الآخرين والثقة المطلقة بالله تعالى وعطائه وتقديره.
ولذا جاء في الدعاء: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ غِنَايَ فِي نَفْسِي»^(١).

حُسن الولاية:

«وَسَمِّنِي حُسْنَ الْوِلَايَةِ»:

الولاية ولايتان:

(١) إقبال الأعمال ٢: ٧٨.

الأولى: ولاية الله، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (البقرة: ٢٥٧)،
﴿إِنَّ وَلِيَّيَ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٦).
الثانية: ولاية الشيطان، قال تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّنْ
قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾
(النحل: ٦٣)، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ (البقرة: ٢٥٧).
ولا شك أن ولاية الله هي الولاية الحسنیٰ حيث ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ
الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، وولاية الشيطان هي الولاية السيئة حيث
﴿يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾.

هذا المعنى هو ما تجده في دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام في يوم
عرفة حيث يقول: «وَتَوَلَّيْنِي بِمَا تَتَوَلَّىٰ بِهِ أَهْلَ طَاعَتِكَ، وَالزَّلْفَىٰ لَدَيْكَ،
وَالْمَكَانَةَ مِنْكَ»^(١).

شرط الولاية:

ماذا نعمل من أجل أن يكون الله تعالى هو ولينا ويتولى أمورنا؟
القرآن الكريم يقول: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ (البقرة: ٢٥٧)،
فالإيمان هو الشرط من أجل تحقيق تلك الولاية.

لكن الإيمان هو الإيمان الصادق الحقيقي المقرون بذكر الله
والتوكل على الله، والاستعاذة به من الشيطان الرجيم.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ
مُشْرِكُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ (النحل: ٩٩ و ١٠٠).

(١) الصحيفة السجادية: ٣٢٦.

٢٢٤ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾
(الأنفال: ٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠١).

فهذه الأمور الثلاثة هي التي تؤكد صدق الإيمان وحقيقته.

ومع توفر هذه الأمور يكون المؤمن قد دخل في ولاية الله.

هذا هو الشرط الأول للدخول في ولاية الله وهو الإيمان.

والقرآن الكريم يتحدث عن شرط آخر وهو التقوى، حيث

يقول: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ (الأنفال: ٣٤).

فالإيمان إذا لم تقترنه التقوى _ بما تعنيه من التزام الطاعة والابتعاد

عن المعصية _ لا يكفي للدخول في ولاية الله تعالى.

وهناك شرط ثالث وهو (الصلاح) للدخول في ولاية الله، حيث

يقول تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٦).

هذه الشروط الثلاثة (الإيمان، التقوى، الصلاح) ترجع

بجوهرها إلى حقيقة واحدة وهي الإيمان، ولكن القرآن الكريم يذكر

العناوين الأخرى لأهميتها ولاعتبارها صفات ضرورية لتحقيق الإيمان.

بشرطها وشروطها:

لَمَّا وافى الإمام الرضا عليه السلام نيسابور وهو في طريقه من المدينة

المنورة إلى مدينة مرو بخراسان _ حينما جلبه المأمون العباسي _، وأراد

أن يخرج منها إلى المأمون اجتمع عليه أصحاب الحديث فقالوا له: يا بن

رسول الله، ترحل عنا ولا تُحدثنا بحديث فنستفيده منك؟ وكان قد قعد

في العمارة فأطلع رأسه وقال: «سمعت أبي موسى بن جعفر يقول:

سمعت أبي جعفر بن محمد يقول: سمعت أبي محمد بن علي يقول:
سمعت أبي علي بن الحسين يقول: سمعت أبي الحسين بن علي يقول:
سمعت أبي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: سمعت النبي
صلى الله عليه وآله يقول: سمعت الله عز وجل يقول: «لا إله إلا الله حصني فمن دخل
حصني أمن من عذابي»، قال: فلما مرّت الراحلة نادانا: «بشروطها، وأنا
من شروطها»^(١).

ومعنى هذا الحديث الشريف أن أحد شروط الدخول في ولاية
الله الدخول في ولاية أوليائه والاتباع لهم.

متى يخرج المؤمن من ولاية الله؟

جاء في الحديث عن مفضل بن عمر، قال: قال لي أبو عبد الله
الصادق عليه السلام: «من روى علي مؤمن رواية يريد بها شينه وهدم مروءته
ليسقط من أعين الناس أخرجه الله من ولايته إلى ولاية الشيطان فلا
يقبله الشيطان»^(٢).

ثمرة الولاية:

ماذا يفعل الله تعالى بنا إذا أدخلنا في ولايته؟

روى الراوندي في (الخرائج والجرائح)^(٣): أن أبا عبد الله الصادق
عليه السلام كان عنده غلام يُمسِكُ بغلته إذا هو دخل المسجد، فبينما هو جالس
ومعه بغلة إذ أقبلت رفقة من خراسان، فقال له رجل من الرفقة: هل

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٤٤ و ١٤٥ / ح ٤.

(٢) الكافي ٢: ٣٥٨ / باب الرواية على المؤمنين / ح ١.

(٣) الخرائج والجرائح ١: ٣٩٠ و ٣٩١؛ بحار الأنوار ٥٠: ٨٧ / ح ٣.

٢٢٦ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

لك يا غلام أن تسأله أن يجعلني مكانك، وأكون له مملوكاً، وأجعل لك مالي كله؟ فإنني كثير المال من جميع الصنوف، اذهب فاقبضه وأنا أقيم معه مكانك. فقال: أسأله ذلك. فدخل على أبي عبد الله عليه السلام فقال: جعلت فداك، تعرف خدمتي، وطول صحبتي، فإن ساق الله إليّ خيراً تمنعني؟ قال: «أعطيك من عندي، وأمنعك من غيري!»، فحكى له قول الرجل، فقال: «إن زهدت في خدمتنا ورغب الرجل فينا قبلناه وأرسلناك». فلماً ولى عنه دعاه، فقال له: أنصحك لطول الصحبة، ولك الخيار، إذا كان يوم القيامة كان رسول الله ﷺ متعلقاً بنور الله، وكان أمير المؤمنين عليه السلام متعلقاً بنور رسول الله، وكان الأئمة متعلقين بأمر المؤمنين، وكان شعيتنا متعلقين بنا يدخلون مدخلنا، ويردّون موردنا». فقال له الغلام: بل أقيم في خدمتك وأوثر الآخرة على الدنيا.

عن حاكم كيف أنصرف وهو اكم لي به شرف
سيدي لا بقيت يوم أرى على سوى بابكم أقف

صدق الهداية:

«وَهَبْ لِي صِدْقَ الْهُدَايَةِ»:

الهداية الإلهية إذا شملت العبد فهي هداية صادقة دائماً، ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ (الزمر: ٣٧).

إذن فهل يوجد لدينا هداية صادقة وهداية كاذبة؟

الهداية الشكلية والهداية الحقيقية:

قد يبدو بعض الناس مهتدياً ولكن قلبه لا يعرف نور الإيمان، هؤلاء لديهم هداية شكلية أمّا واقع الهداية فإنهم يفقدوه.

مثال هؤلاء مثال الخوارج _ وهم موجودون في كل زمان _
الذين وصفهم الإمام علي عليه السلام قائلاً: «يقرؤون القرآن فلا يتجاوز
ترافيقهم»^(١)، أي لا يصل إلى قلوبهم وصدورهم، والترقوة هي عظم
الكتف.

ومثال هؤلاء مثال المنافقين والذين في قلوبهم مرض والذين قال
فيهم القرآن: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ
لِقَوْلِهِمْ﴾ (المنافقون: ٤)، لماذا؟ لأنهم في الظاهر من المسلمين والمؤمنين
ولكن قلوبهم لم تذوق طعم الإيمان.

الهداية الحقيقية هي التي يصاحبها خشوع القلب، وخشوع
الجوارح، «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خُشُوعَ الْإِيمَانِ قَبْلَ خُشُوعِ الدُّلِّ فِي
النَّارِ»^(٢)، وقد يخشع البدن ولا يخشع القلب وذلك هو النفاق كما جاء في
بعض الروايات الشريفة^(٣).

الهداية المؤقتة والهداية الدائمة:

وقد تكون الهداية وقتية وتزول من الإنسان بعد حين بسبب
أفعال الإنسان ومعاصيه، ولذا جاء في الدعاء القرآني: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ
قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (آل
عمران: ٨).

وهذا الدعاء هو دعاء من سمّاهم القرآن (أولوا الألباب) حيث

(١) الفتوح ٤: ٢٧٢.

(٢) مصباح المتهجد: ٥٩٨ / ح (٦٨/٦٩٢).

(٣) عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إياكم وخشوع المنافق، يخشع البدن ولا يخشع القلب».

(كنز العمال ٧: ٥٢٧ / ح ٢٠٠٩٠).

٢٢٨ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

قال: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧٠﴾ رَبَّنَا...﴾ (آل عمران: ٧ و ٨)، ولكن كيف تزيغ القلوب بعد هدايتها؟

الجواب: أن القلوب تزيغ وتنحرف عن الطريق من خلال التورط في المعاصي والإدمان عليها فيُسَلَب المؤمن حينئذٍ نور الإيمان. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ...﴾ (الصف: ٥). بعض الأحاديث الشريفة تُقسّم الإيمان إلى قسمين:

١ _ الإيمان المستقرّ.

٢ _ الإيمان المستودع.

يقول الإمام علي عليه السلام: «فَمَنْ الْإِيمَانِ مَا يَكُونُ ثَابِتًا مُسْتَقَرًّا فِي الْقُلُوبِ، وَمِنْهُ مَا يَكُونُ عَوَارِيًّا (عارية) بَيْنَ الْقُلُوبِ وَالصُّدُورِ إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ»^(١).

﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾:

ومن أجل أن تكون هدايتنا حقيقية ودائمة ماذا يجب أن نفعل؟ القرآن شرح لنا طريق ذلك وهو أن نكون مع الصادقين. جاء في تفسير هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة: ١١٩) عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «مع علي بن أبي طالب»^(٢).

وجاء عن أبي عمر يعني (مع محمد وأهل بيته عليهم السلام)^(٣).

(١) نهج البلاغة: ٢٧٩ / ح ١٨٩.

(٢) تفسير فرات الكوفي: ١٧٣ / ح (٦/٢٢١).

(٣) تفسير الميزان ٩: ٤٠٨.

ولا يخفى أن الآية تفيد أكثر من معنى:
 الأوّل: أن نكون من الصادقين.
 الثاني: أن نكون مع الصادقين.
 والصادقون هم علي وشيعته.
 «وَلَا تَفْتِنِّي بِالسَّعَةِ»:

السعة في الرزق، والرفاه في العيش، أمر مطلوب لكنّه ربّما كان فتنة، ﴿أَتَمَّ أَمْوَالِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ فَتَنَةً﴾ (الأنفال: ٢٨)، ولذا وجب الانتباه والحذر من السقوط في هذا الامتحان.

إنّ القرآن الكريم يُنبّهنا إلى خطر (الاستدراج) كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ (آل عمران: ١٧٨)، وقال: ﴿فَدَرْنِي وَمَنْ يُكَدِّبُ بِهِذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (القلم: ٤٤).

الرفاه المحبوب والرفاه المبعوض:

ليس كلّ رفاه مبعوض، وليس كلّ رفاه محبوب أيضاً.
 الرفاه المبعوض هو الذي يتحقّق من خلال الشحّ، والبخل، والحرام.

يقول الإمام عليّ عليه السلام: «ما رأيت نعمة موفورة إلّا وإلى جانبها حقٌّ مضيع»، وقال عليه السلام: «ما جمّع مالٌ إلّا من شحٍّ أو حرام»^(١)، يقصد المال المكتنز.

حين يكون الرفاه المعيشي على حساب الآخرين، وبعيداً عن هموم الناس، ومشاكلهم، وتقديم الخدمة لهم، هنا يأتي قوله تعالى: ﴿إِنَّ

(١) روائع نهج البلاغة: ٢٣٣.

٢٣٠ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ» (القصص: ٧٦)، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (لقمان: ١٨).

وأما الرفاه والغنى حينما يكون مضحوباً بالكرم، وصلة الرحم، وأداء حقوق الناس فهو أمر مرغوب محبوب.

وهنا يأتي حديث الإمام علي عليه السلام الوارد في نهج البلاغة حين دخل على العلاء بن زياد الحارثي فلما رأى سعة داره قال: «مَا كُنْتَ تَصْنَعُ بِسَعَةِ هَذِهِ الدَّارِ فِي الدُّنْيَا وَأَنْتَ إِلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ كُنْتَ أَحْوَجَ، وَبَلَىٰ إِنْ شِئْتَ بَلَغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ تَقْرِي فِيهَا الضَّيْفَ وَتَصِلُ فِيهَا الرَّحِمَ وَتَطْلُعُ مِنْهَا الْحُقُوقَ مَطَالِعَهَا، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ بَلَغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ»^(١).
«وَأَمْنَحْنِي حُسْنَ الدَّعَةِ»:

الدعة بمعنى الراحة والاستقرار والأمان، ولكن هذه (الدعة في المعيشة) حينما تكون مستثمرة بالعمل الصالح بكل صورته فهي حسنة، وأما حين تكون مصروفة في اللهو واللعب، أو الحرام والمنكرات والمعاصي فإنها ستكون سيئة، ولذا قال في الدعاء: «وَأَمْنَحْنِي حُسْنَ الدَّعَةِ»، فربَّ دعة تكون نقمة على صاحبها، وربَّ بلاءٍ يكون رحمة لصاحبه كما قال يوسف عليه السلام: «رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ» (يوسف: ٣٣)، فقد آثر يوسف السجن والبلاء على الدعة والراحة والرخاء.

من سعادة المرء خمس:

عن الإمام الصادق عليه السلام: «خمس خصال من فقد واحدة منهن لم

(١) نهج البلاغة: ٣٢٤ و٣٢٥/ح ٢٠٩.

المقطع الخامس عشر ٢٣١

يزل ناقص العيش، زائل العقل، مشغول القلب: فأولها صحّة البدن، والثانية: الأمن، والثالثة السعة في الرزق، والرابعة: الأنيس الموافق، قلت: وما الأنيس الموافق؟ قال: «الزوجة الصالحة، والولد الصالح والخليط الصالح. والخامسة وهي تجمع هذه الخصال الدعة»^(١).
«وَلَا تَجْعَلْ عَيْشِي كَدًّا كَدًّا»:

قد يكون الإنسان معذباً في حياته، سقيماً في عمره، ويكون عيشه كدّاً كدّاً، وعناءً فوق عناء، من خلال المرض، والفقر، وجار السوء، وسوء الحياة الزوجية، وسوء الأولاد، والابتلاء بأصدقاء السوء، وعدم توفّر فرص العمل، أو عدم الاستقرار على حالٍ واحدٍ، والتغرّب عن الوطن، وفقد الأحبة، وما شاكل ذلك من أنواع العناء.

ولا يخفى أن أكثر هذه الأمور المنعّصة للمعيشة هي خارجة عن إرادة الإنسان واختياره، ونحن _ مع الأسف _ غافلون عن النعم التي نعيش فيها وابتلى الله تعالى بها غيرنا أو ابتلانا ببعضها دون بعض. وعلى كلّ حال فإنّ الأمور بيد الله، ولا بدّ أن نسأل الله تعالى أن يعصمنا من كلّ تلك المشاكل والمعاناة، «وَلَا تَجْعَلْ عَيْشِي كَدًّا كَدًّا».

جاء في أدعية شهر رجب: «وَأَخِينِي مَا أَحْيَيْتَنِي مَوْفُورًا، وَأَمْتِنِي مَسْرُورًا وَمَغْفُورًا»^(٢).

أن يكون الإنسان موفوراً في حياته بالرزق، والعافية، والزوج الصالح، والولد الصالح، والمكان الصالح، والعمل الصالح، ذلك كلّهُ هدية من الله تعالى.

(١) الخصال: ٢٨٤ / ح ٣٤.

(٢) مصباح المتهجّد: ٨٠٣ / ح (٨/١٦٥).

٢٣٢ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

إِنَّ جُهْدَ الْإِنْسَانِ وَسَعِيَهُ لَا يُشَكِّلُ إِلَّا جُزْءًا ضَيْئًا مِنْ عَوَامِلِ السَّعَادَةِ،
ولكن القسم الأكبر هي أمور خارجة عن إرادة الإنسان وجُهدِهِ، قال تعالى:
﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ...﴾ (الرعد: ٢٦).

ولذا جاء في المناجاة الشعبانية للإمام علي عليه السلام: «إِلَهِي إِنْ حَرَمْتَنِي
فَمَنْ ذَا الَّذِي يَرْزُقُنِي...»^(١).

صلاة أمير المؤمنين عليه السلام لقضاء الحاجات:

روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: «من صَلَّى مِنْكُمْ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ
صَلَاةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ وَقُضِيَتْ
حَوَائِجُهُ، يَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكَعَةٍ الْحَمْدَ مَرَّةً وَخَمْسِينَ مَرَّةً ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾،
وهناك دعاء بعد هذه الصلاة»^(٢).

زيارة عاشوراء ودعاء علقمة:

وهي من أهمّ الزيارات، وقد جاء التأكيد عليها وعلى التزامها،
وهي واردة عن الإمام الباقر عليه السلام، وقد جاء في رواية علقمة عن الإمام
الباقر عليه السلام استحباب الدعاء بعدها بالدعاء المعروف بدعاء علقمة، قال
الصادق عليه السلام: «تعاهد هذه الزيارة وادعُ بهذا الدعاء وزر به، فإنّي ضامن
على الله تعالى لكلّ من زار بهذه الزيارة ودعا بهذا الدعاء من قرب أو بعد

(١) إقبال الأعمال ٣: ٢٩٦.

(٢) مصباح المنتهجد: ٢٩٢/ ح (١٥/٤٠٣)، والدعاء هو: «سبحان من لا تبيد معالمه،
سبحان من لا تنقص خزائنه، سبحان من لا اضمحلل لفخره، سبحان من لا ينفد ما
عنده، سبحان من لا انقطع لمدته، سبحان من لا يشارك أحداً في أمره، سبحان من لا
إله غيره».

أنَّ زيارته مقبولة وسعيه مشكور وسلامه واصل غير محبوب وحاجته مقضية من الله بالغاً ما بلغت...»^(١).

«وَلَا تَرُدُّ دُعَائِي عَلَيَّ رَدًّا»:

الاستجابة للدعاء يقينية لأنَّ الله تعالى قال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: ٦٠)، وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة: ١٨٦)، لكن هذه الإجابة قد تتأخر، وقد تؤجل إلى الآخرة، وقد يثاب الإنسان على الدعاء ولا يستجاب له لأنَّه ليس من مصلحته، ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ (الإسراء: ١١).

إلا أنَّ أهمَّ شرط في الدعاء المستجاب هو خلوص النيَّة، وتمام اليقين بالله والثقة بالدعاء، وكمال التضرُّع إليه والتوجُّه له وحده لا شريك له، وذلك هو حقيقة الدعاء، كما حينما تدعو أحداً وأنت تشاهده وتعرف أنَّه يسمعك وتوجُّه الخطاب إليه بالدقَّة والوضوح فتقول له: يا فلان بن فلان، بمثل هذه الدرجة وهذا المستوى حينما يكون الدعاء لله تعالى فإنَّه سيقع مستجاباً.

إلا أنَّ المشكلة هي أنَّ معظم أدعيتنا مخلوطة بالشكِّ والشرك. أمَّا الشكُّ فإنَّنا نشكُّ باستماع الله لنا، وحضوره معنا، ومشاهدته لحالنا، وقدرته على حلِّ مشاكلنا.

أمَّا الشرك فإنَّنا في معظم حالات الدعاء لا نخلص الدعاء لله تعالى وحده بل ننتظر تحقُّق ما نريده من خلال الآخرين، فنحن لا نصرف نظرنا بالكامل عمَّا سوى الله تعالى، بل نأمل من هذا وذاك أن يُحقِّق ما نصبو إليه، وهذا هو درجة من درجات الشرك.

(١) مصباح المتهجِّد: ٧٨١/ح (٧/١٥٢).

٢٣٤ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

وأنت حينما توجه الدعاء إلى الله في الظاهر ولكنك ترجو من غيره في الباطن فإن الله تعالى سوف يكلك إلى الآخرين لأنك لم تخلص الدعاء.

ولذا قال تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر: ٦٠)، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي ... فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ (البقرة: ١٨٦).

فالآية تدعو إلى الإيمان بالله تعالى مع أن الخطاب والحديث فيها عن المؤمنين والعباد الصالحين ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي ...﴾، فما معنى ذلك؟ قد يكون واضحاً في أن المطلوب في الدعاء هو درجة عالية من الإيمان بالله والتخلص من أنواع الشرك والشك والوسوسة. جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا دعوت فظن أن حاجتك بالباب»^(١).

ولعل إلى هذا المعنى يشير المقطع الأخير من هذا النص: «وَلَا تَرُدَّ دُعَائِي عَلَيَّ رَدًّا، فَإِنِّي لَا أَجْعَلُ لَكَ ضِدًّا، وَلَا أَدْعُو مَعَكَ نِدًّا».

* * *

(١) الكافي ٢: ٤٧٣ / باب اليقين في الدعاء / ح ١.

المقطع السادس عشر

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَامْنَعْنِي مِنَ السَّرْفِ،
وَاحْصِن رِزْقِي مِنَ التَّلْفِ، وَوَفِّرْ لِي مَلِكِي^(١) بِالْبَرَكَاتِ فِيهِ،
وَأَصِبْ بِي سَبِيلَ الْهُدَايَةِ لِلْبِرِّ فِيمَا أَنْفَقْتُ مِنْهُ».

الموجز:

هذا المقطع يُخصِّصه الإمام عليه السلام للرزق، كيف نتعامل معه، وأين نصرفه، فيسأل الله تعالى أن يمنعه من الإسراف، وأن يُحصِّنه من التلف، وأن يُنزل عليه البركة فيما يملكه، ويُوفِّقه لإنفاقه في سبيل البرِّ والمعروف.

«وَأَمْنَعْنِي مِنَ السَّرْفِ»:

السَّرْفُ والإسراف بمعنى واحد وهو بذل الشيء وصرفه في غير موضع الاستفادة منه.

وقد جاء النهي المؤكَّد في الشريعة الإسلامية عن السَّرْفِ في كلِّ مواضعه ومجالاته _ كما سوف نشرح ذلك بإذن الله تعالى _، قال الله تعالى: «إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ» (الأنعام: ١٤١)، «إِنَّ الْمُبَدِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ» (الإسراء: ٢٧)، «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ

(١) هكذا في بعض النسخ، وفي بعضها الآخر: (ملكتي)، والأوَّلُ أوفق بسياق العبارة ومدلولها، وبناءً على قراءة (ملكتي) كان الأصحَّ لغوياً أن يقال: (فيها) و(منها)، كما أن قوله بعدئذٍ: (فيما أنفق منه) شاهد على أن المقصود هو الملك وليس الملكة، والله العالم. (المؤلَّف).

٢٣٦ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ (غافر: ٢٨)، ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ
بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ (طه: ١٢٧)، ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾
(غافر: ٣٤).

الإسراف في المال:

إنَّ الإسراف في المال هو واحد من صور الإسراف، وهو منهيٌّ
عنه في الشريعة الإسلامية، وهو صفة ذميمة بحكم العقل والوجدان
أيضاً، ولذا فإنَّ كلَّ القوانين البشرية والأنظمة الوضعية تنهى عنه
أيضاً. لكن الإسلام يختلف عن تلك القوانين من حيث الخلفيات
الفلسفية التي ينطلق منها ومن حيث تحديده لمصطلح الإسراف.

المال مال الله:

فمن ناحية فلسفية يرى الإسلام أنَّ المال وكلَّ ثروات الطبيعة هي
مُلك الله تعالى وهبها لعباده ليتمتعوا بها، ويُعمروا بها حياتهم ومعيشتهم
ويواصلوا بها وجودهم وتكاملهم في طاعة الله، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ
اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ
ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (لقمان: ٢٠)، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ
مَا فِي الْأَرْضِ﴾ (الحج: ٦٥).

وإذا كان الأمر كذلك، فإنَّ أيَّ تصرف في المال _ بمختلف
أشكاله _ هو تصرف في ملك الله تعالى، ولا بدَّ أن لا يتجاوز الحدود
التي وضعها المالك للتصرف.

كما أنَّ النظرة الأخلاقية للمال سوف تختلف، حيث يجب احترام
هذه الهدية الإلهية وتقديرها تبعاً لاحترام وتقدير معطيها.

بل إنَّ النظرة الأخلاقية سوف تتعمَّق فيها حالة الاحترام إذا عرفنا أنَّ جميع هذه الوجودات ذات إدراك وارتباط وعبادة لله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ (الإسراء: ٤٤)، فإنَّ من الواجب حينئذٍ تقدير هذه النعم حتَّى ما هو الجماد منها كالماء والشجر والثمر فضلاً عن الطير والسمك والأنعام.

ومن هنا فإنَّ النهي عن الإسراف لم يكن فقط من منطلقات اقتصادية وبهدف التوفير والاحتفاظ بالإمكانات الطبيعية كما هو في فهم القوانين المادية والأنظمة الوضعية، بل إنَّ الإسراف هو تجاوز أخلاقي على حدود المالك الحقيقي، واحتقار وقتل لهذه الوجودات المسخرة للإنسان والتي خلقها الله تعالى وهي تسير نحو هدف تكاملي كما يسير نحوه الإنسان نفسه، فكلُّ هدر وإسراف فيها هو اعتداء عليها أيضاً، كمن يقطع الأشجار ويقتل الحيوانات لغير هدف عقلائي.

تحديد المصطلح:

ومن ناحية ثانية فإنَّ الإسلام حدَّد مصطلح الإسراف بحدَّين:

الأوَّل: وجود الهدف المشروع والتكامل من الصرف.

الثاني: عدم تضييع حقوق الآخرين.

إنَّ صرف المال بدون هدف يُحقَّق للحياة الإنسانية تكاملها هو إسراف غير جائز حتَّى إذا كان في أموال الإنسان نفسه، وحتَّى إذا لم يكن مضرّاً بالآخرين.

ومن هنا لا يجوز للإنسان أن يهدر ثرواته ويتلفها، بينما يجوز له أن ينفقها جميعاً في خدمة الآخرين ولا يُعتبر ذلك إسرافاً.

٢٣٨ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

إنَّ القوانين الوضعية الحديثة تعتبر الحالة الأولى حقاً طبيعياً للإنسان لأنَّه يملك أمواله، فمن حقّه أن يتصرّف بها كيف يشاء طالما لم يكن في ذلك ضررٌ على الآخرين، أمّا الإسلام فهو يعتقد أن سلطة الإنسان على أمواله محدودة.

هناك قانونان في الإسلام: أحدهما قانون «الناس مسلّطون على أموالهم»، وثانيهما قانون ﴿... وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ (النساء: ٥)، حيث تُعتبر التصرفات في المال بدون هدف تصرفات سفیهة يُمنع منها صاحبها. كما أن هدر الأموال حينما يكون تجاوزاً على حق الآخرين في ثروات الطبيعة هو أمر غير مسموح به، لأن ثروات الطبيعة هي بالأصل مشتركة لكل العباد، وهذا الاشتراك يبقى محفوظاً حتّى مع التملك الشخصي لتلك الثروات.

يقول الإمام عليّ عليه السلام: «ما رأيت نعمة موفورة إلا وإلى جانبها حقٌّ مضيعٌ»^(١).

ويقول القرآن الكريم: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلنَّسَائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ (المعارج: ٢٤ و ٢٥)، إذن فالآخرون لهم حق في هذه الأموال، والتصرف فيها حينما يُضيع ذلك الحق يكون تجاوزاً وتعدياً على حقوق الآخرين، ويكون إسرافاً محرّماً، بينما القوانين الوضعية لا تعتبر ذلك إسرافاً.

مجالات أخرى للإسراف:

إنَّ النظرة الإسلامية أعطت للإسراف معنى أعمق وأشمل وأوسع.

(١) روائع نهج البلاغة: ٢٣٣.

المقطع السادس عشر ٢٣٩

فالإسراف لم يكن مختصاً بالمال، والثروات الطبيعية، بل قد يكون الإسراف في طاقات الإنسان ومواهبه التي وهبها الله تعالى إِيَّاه، حينما يُضَيِّعها ولا يستفيد منها، فلا يستفيد بشكل صحيح من سمعه وبصره وعقله ويده ورجله...

وقد يكون الإسراف في العمر حينما يُضَيِّع الإنسان فرصة عمره القصيرة ولا يصرفها في الطاعات، وفي السعي لإعمار الدار الآخرة، «الدنيا مزرعة الآخرة»^(١).

الإسراف في الكلام والنوم والطعام:

يقول أهل السير والسلوك إلى الله تعالى: إِنَّ أَوَّلَ خَطْوَةٍ فِي السُّلُوكِ هِيَ الْإِبْتِعَادُ عَنِ الْإِسْرَافِ فِي الْكَلَامِ وَالنَّمَامِ وَالطَّعَامِ. وعلى ذلك يكون قلة الطعام، وقلة الكلام، وقلة المنام هي في صفات العارفين السالكين إلى الله تعالى.

قال تعالى: ﴿كَأْتُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ (الذاريات: ١٧ و ١٨).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «ما من رجل طاب مطعمه ومشربه وملبسه إلا طال وقوفه بين يدي الله عز وجل يوم القيامة»^(٢).

الإسراف على النفس:

إن الإسلام يعتبر المعاصي، وصرف أيام العمر في اللهو واللعب، وتبذير المواهب والنعمة الإلهية هو ظلم للنفس وإسراف عليها، كما

(١) عوالي اللئالي ١: ٢٦٧ / ح ٦٦.

(٢) بحار الأنوار ٤٢: ٢٧٦.

٢٤٠ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

أشارت إلى ذلك الآيات السابقة وكما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ (الزمر: ٥٣).

وهذا أروع مفهوم يُقدِّمه الإسلام للإسراف بحيث يتحوَّل الإسراف إلى حالة اعتداء على النفس وتجاوز لحقوقها وليس فقط لحقوق الطبيعة وحقوق الآخرين، قال تعالى عن أصحاب الأنبياء: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٧).

إنَّ عدم الاستفادة من وجود الأنبياء، والصالحين، والعلماء، هو إسراف في الأمر.

إنَّ عدم الاستفادة من القرآن الكريم هو إسراف وتضييع أيضاً.

ثلاثة يشكون إلى الله:

ولذا فقد ورد في الحديث الشريف عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «ثلاثة يشكون إلى الله ﷻ: مسجد خراب لا يُصلي فيه أهله، وعالم بين جهال، ومصحف معلق قد وقع عليه الغبار لا يُقرأ فيه»^(١).

«وَحَصَّنْ رِزْقِي مِنَ التَّلْفِ»:

ضياع المال من غير استفادة دينية أو دنيوية هو التلف، والتلف قد

يحصل لأحد ثلاث حالات:

١ _ الإسراف والتبذير.

٢ _ الخسارة في عمل تجاري.

(١) الكافي ٢: ٦١٣ / باب قراءة القرآن في المصحف / ح ٣.

٣ _ نزول بليّة على المال بسبب المعاصي .

وقد يكون التلف في حالة رابعة وهي حالة الابتلاء الإلهي للإنسان .

الإسلام يُفسّر كثيراً من الحوادث الطبيعية المأساوية كالزلازل، والغرق، والحريق، ودمار الزرع، باعتبارها ناشئة من فعل الغضب الإلهي الناشئ من تراكم المعاصي .

قال تعالى: ﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (العنكبوت: ٣٩ و ٤٠) .

على أن ذلك لا يعني نكران الأسباب الطبيعية، ولا يعني بالضرورة أن كل الحوادث الطبيعية تعبير عن الغضب الإلهي الناشئ من المعاصي .

قصة صاحبي الجنة:

القرآن الكريم يستعرض قصة في هذا الشأن: ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهُمَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَافَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ ﴾ .

٢٤٢ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

إلى أن يقول: ﴿وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَقَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ (الكهف: ٣٢ _ ٤٢).

والمفسرون يذكرون في شأن هذه القصة أنها نزلت في ابني ملك كان في بني إسرائيل توفي وترك ابنين وترك مالا جزيلا فأخذ المؤمن حقه وأنفقه لله تعالى والثاني اشترى به ضياعاً^(١).

الحجر الغصب:

إن أحاديث أخرى تقول عن علي عليه السلام: «الْحَجَرُ الْعَصِيبُ^(٢) فِي الدَّارِ رَهْنٌ عَلَى خَرَابِهَا»^(٣).

خوف علي من الغصب:

ويقول الإمام علي عليه السلام: «وَاللَّهِ لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتِ أَفْلَاقِهَا عَلَيَّ أَنْ أَعْصِيَ اللَّهَ فِي نَمَلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ»^(٤).

«وَوَفَّرَ مُلْكِي بِالْبَرَكَاتِ فِيهِ»:

البركة عبارة عن تنامي فوائد المال أو المكان أو الزمان أو الأشخاص، وتضاعف ثمارها.

فقد يكون المكان مباركا كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٩٦).

(١) راجع: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٥: ٩٧.

(٢) هكذا في نهج البلاغة المطبوع، وفي شرح نهج البلاغة لابن ميثم: (الغصب).

(٣) نهج البلاغة: ٥١٠ / ح ٢٤٠؛ شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٥: ٣٦٢.

(٤) نهج البلاغة: ٣٤٧ / ح ٢٢٤.

المقطع السادس عشر ٢٤٣

وقد يكون الزمان مباركاً كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ﴾ (الدخان: ٣).

وكما جاء في حديث رسول الله ﷺ عن شهر رمضان قائلاً: «أيها الناس، إنّه قد أقبل إليكم شهر الله بالبركة والرحمة والمغفرة، شهر هو عند الله أفضل الشهور، وأيامه أفضل الأيام، ولياليه أفضل الليالي، وساعاته أفضل الساعات...»^(١).

وقد يكون الشخص مباركاً كما قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (مريم: ٣١).

وقد يكون الشجر مباركاً كما قال تعالى: ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ (النور: ٣٥).

وقد يكون العمر والوقت مباركاً كما نقرأ في دعاء أيام شهر رجب: «وَبَارِكْ لَنَا فِيهَا كَتَبْتَهُ لَنَا مِنْ أَعْمَارِنَا»^(٢).

البركة ماذا تعني؟

تعني أنّ عوامل غيبية غير منظورة ولا داخلية في الحسابات المادية تؤدي إلى ظهور الربح ومزيد الفائدة والخير في الشيء مالمّا كان أو مكاناً أو شخصاً أو زماناً أو غير ذلك.

وطالما كانت تلك العوامل خارجة عن الحسابات المادية، وخاضعة فقط لإرادة الله تعالى وليس لإرادة الإنسان وفعله وتخطيطه

(١) أمالي الصدوق: ١٥٤ / ح (٤ / ١٤٩).

(٢) مصباح المتهدّد: ٨٠٤ / ح (٩ / ٨٦٦).

٢٤٤ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

إذن كان من الحق أن نسأل الله تعالى جعل البركة في أموالنا وأهلنا وأولادنا وجميع أعمالنا.

قصة العقد المبارك:

عن عمرو بن هارون، عن الصادق جعفر بن محمد، عن أبيه، عن آباءه، عن علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: «لقد هممت بتزويج فاطمة بنت محمد صلوات الله عليهما حيناً، ولم أتجرأ أن أذكر ذلك للنبي ﷺ، وإن ذلك اختلج في صدري ليلاً ونهاراً حتى دخلت على رسول الله ﷺ، فقال: يا علي، قلت: لبيك، يا رسول الله. قال: هل لك في التزويج؟ قلت: رسول الله أعلم. وإذا هو يريد أن يزوجني بعض نساء قريش، وإني لخائف على فوت فاطمة، فما شعرت بشيء إذ أتاني رسول رسول الله ﷺ، فقال لي: أجب النبي وأسرع، فما رأينا رسول الله ﷺ أشد فرحاً منه اليوم».

قال: «فأتيته مسرعاً، فإذا هو في حجرة أم سلمة، فلما نظر إليّ تهلّل وجهه فرحاً وتبسّم حتى نظرت إلى بياض أسنانه يبرق، فقال: أبشر يا علي، فإن الله ﷻ قد كفاني ما قد كان همّني من أمر تزويجك. فقلت: وكيف ذلك، يا رسول الله؟ قال: أتاني جبرئيل ومعه من سنبل الجنة وقرنفلها فناولنيهما، فأخذتهما وشممتهما، فقلت: ما سبب هذا السنبل والقرنفل؟ فقال: إنّ الله تبارك وتعالى أمر سكّان الجنان من الملائكة ومن فيها أن يزيّنوا الجنان كلّها بمغارسها وأشجارها وثمارها وقصورها، وأمر ريحها فهبت بأنواع العطر والطيب، وأمر حور عينها بالقراءة فيها بسورة طه وطواسين ويس وحم عسق. ثم نادى منادٍ من

تحت العرش: أَلَا إِنَّ الْيَوْمَ يَوْمَ وَلِيْمَةَ عَلِي بْنِ أَبِي طَالِبٍ، أَلَا إِنِّي أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ زَوَّجْتُ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ مِنْ عَلِي بْنِ أَبِي طَالِبٍ رِضًا مَنِّي بَعْضُهُمَا لِبَعْضٍ، ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَحَابَةَ بِيضَاءٍ، فَقَطَّرَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ لَوْلُوهَا وَزَبْرَجِدهَا وَيَوَاقِيتهَا، وَقَامَتِ الْمَلَائِكَةُ فَنَشَرَتْ مِنْ سَنَبِلِ الْجَنَّةِ وَقَرْنَفَلِهَا، هَذَا مِمَّا نَشَرَتْ الْمَلَائِكَةُ، ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَلَكًا مِنْ مَلَائِكَةِ الْجَنَّةِ يَقَالُ لَهُ: رَاحِيلُ، وَلَيْسَ فِي الْمَلَائِكَةِ أَبْلَغُ مِنْهُ، فَقَالَ: أَلْخَطِبُ يَا رَاحِيلُ. فَخَطِبَ بِخُطْبَةٍ لَمْ يَسْمَعْ بِمِثْلِهَا أَهْلُ السَّمَاءِ وَلَا أَهْلُ الْأَرْضِ، ثُمَّ نَادَى مُنَادٍ: أَلَا يَا مَلَائِكَتِي وَسَكَّانَ جَنَّتِي، بَارِكُوا عَلَيَّ عَلِي بْنِ أَبِي طَالِبٍ حَبِيبِ مُحَمَّدٍ، وَفَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، فَقَدْ بَارَكْتَ عَلَيْهِمَا، أَلَا إِنِّي زَوَّجْتُ أَحَبَّ النِّسَاءِ إِلَيَّ مِنْ أَحَبِّ الرِّجَالِ إِلَيَّ بَعْدَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ. فَقَالَ رَاحِيلُ الْمَلِكُ: يَا رَبِّ، وَمَا بِبِرْكَتِكَ فِيهِمَا بِأَكْثَرِ مِمَّا رَأَيْنَا لَهُمَا فِي جَنَّاتِكَ وَدَارِكَ؟ فَقَالَ ﷻ: يَا رَاحِيلُ، إِنَّ مِنْ بِرْكَتِي عَلَيْهِمَا أَنْ أَجْمَعُهُمَا عَلَيَّ مَحَبَّتِي، وَأَجْعَلُهُمَا حِجَّةً عَلَيَّ خَلْقِي، وَعَزَّتِي وَجَلَالِي لِأَخْلَقَنَّ مِنْهُمَا خَلْقًا، وَلَا نَشَأَنَّ مِنْهُمَا ذُرِّيَّةً أَجْعَلُهُمْ خَزَائِنِي فِي أَرْضِي، وَمَعَادِنَ لِعِلْمِي، وَدَعَاةً إِلَيَّ دِينِي، بِهِمْ أَحْتَجُّ عَلَيَّ خَلْقِي بَعْدَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ. فَأَبْشُرْ يَا عَلِي، فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ أَكْرَمَكَ كِرَامَةً لَمْ يَكْرَمْ بِمِثْلِهَا أَحَدًا، وَقَدْ زَوَّجْتُكَ ابْنَتِي فَاطِمَةَ عَلَيَّ مَا زَوَّجْتُكَ الرَّحْمَنَ، وَقَدْ رَضِيَتْ لَهَا بِمَا رَضِيَ اللَّهُ لَهَا، فَدُونِكَ أَهْلُكَ فَإِنَّكَ أَحَقُّ بِهَا مِنِّي، وَلَقَدْ أَخْبَرَنِي جِبْرَائِيلُ أَنَّ الْجَنَّةَ مُشْتَاقَةٌ إِلَيْكُمْ، وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ ﷻ قَدَّرَ أَنْ يُخْرِجَ مِنْكُمْ مَا يَتَّخِذُهُ عَلَيَّ الْخَلْقُ حِجَّةً لِأَجَابِ فِيكُمْ الْجَنَّةَ وَأَهْلِهَا، فَنَعَمْ الْأَخُ أَنْتَ، وَنَعَمْ الْخَتَنُ أَنْتَ، وَنَعَمْ الصَّاحِبُ أَنْتَ، وَكَفَاكَ بَرِضًا اللَّهُ رِضًا».

قال علي ﷻ: «فقلت: يا رسول الله، بلغ من قدرتي حتى إنني

٢٤٦ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

ذُكرت في الجنة، وزوجني الله في ملائكته! فقال ﷺ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَكْرَمَ وَلِيَّهَ وَأَحَبَّهُ، أَكْرَمَهُ بِمَا لَا عَيْنَ رَأَتْ وَلَا أُذُنَ سَمِعَتْ، فَحَبَّاهَا اللَّهُ لَكَ يَا عَلِيَّ. فقال علي ﷺ: «رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ» [النمل: ١٩]، فقال رسول الله ﷺ: آمين^(١).

قصة صاحب الدرهمين مع رسول الله ﷺ:

عن أبي بصير، قال: سمعت أبا جعفر ﷺ يقول: «كان عليّ عهد رسول الله ﷺ مؤمناً فقير شديد الحاجة من أهل الصفة، وكان ملازماً لرسول الله ﷺ عند مواقيت الصلاة كلها لا يفقده في شيء منها، وكان رسول الله ﷺ يرق له ينظر إلى حاجته وغرته فيقول: يا سعد، لو قد جئني شيء لأغنيتك، قال: فأبطأ ذلك عليّ رسول الله ﷺ، فاشتدَّ غمّ رسول الله ﷺ لسعد، فعلم الله سبحانه ما دخل عليّ رسول الله من غمّه لسعد، فأهبط عليه جبرئيل ﷺ ومعه درهمان فقال له: يا محمد، إِنَّ اللَّهَ قَدْ عَلِمَ مَا قَدْ دَخَلَكَ مِنَ الْغَمِّ لِسَعْدٍ، أَفَتَحَبُّ أَنْ تُغْنِيَهُ؟ فقال: نعم، فقال له: فهالك هذين الدرهمين فأعطهما إياه ومره أن يتجر بهما».

قال: «فأخذ رسول الله ﷺ ثمَّ خرج إلى صلاة الظهر وسعد قائم عليّ باب حجرات رسول الله ﷺ ينتظره، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: يا سعد، أتحسن التجارة؟ فقال له سعد: والله ما أصبحت أملك مالا أتجر به، فأعطاه النبيُّ ﷺ الدرهمين وقال له: اتجر بهما وتصرف لرزق الله، فأخذهما سعد ومضى مع النبيِّ ﷺ حتى صلىّ معه الظهر والعصر، فقال له النبيُّ ﷺ: قم فاطلب الرزق فقد كنت بحالك مغتماً يا سعد».

(١) أمالي الصدوق: ٦٥٣ - ٦٥٥ / ح (١/٨٩٠).

قال: «فأقبل سعد لا يشتري بدرهم شيئاً إلا باعه بدرهمين، ولا يشتري شيئاً بدرهمين إلا باعه بأربعة دراهم، فأقبلت الدنيا على سعد، فكثرت متاعه وماله وعظمت تجارته، فأتخذ على باب المسجد موضعاً وجلس فيه فجمع تجارته إليه، وكان رسول الله ﷺ إذا أقام بلال الصلاة يخرج وسعد مشغول بالدنيا لم يتطهر ولم يتهياً كما كان يفعل قبل أن يتشاغل بالدنيا، فكان النبي ﷺ يقول: يا سعد، شغلتك الدنيا عن الصلاة، فكان يقول: ما أصنع أضيع مالي؟ هذا رجل قد بعته فأريد أن أستوفي منه، وهذا رجل قد اشتريت منه فأريد أن أوفيه».

قال: «فدخل رسول الله ﷺ من أمر سعد غم أشد من غمه بفقره، فهبط عليه جبرئيل عليه السلام فقال: يا محمد، إن الله قد علم غمك بسعد، فأيا أحب إليك حاله الأولى أو حاله هذه؟ فقال له النبي ﷺ: يا جبرئيل، بل حاله الأولى، قد أذهبت دنياه بأخرته، فقال له جبرئيل عليه السلام: إن حب الدنيا والأموال فتنة ومشغلة عن الآخرة، قل لسعد يرد عليك الدرهمين اللذين دفعتهما إليه فإن أمره سيصير إلى الحالة التي كان عليها أولاً».

قال: «فخرج النبي ﷺ فمرَّ بسعد فقال له: يا سعد، أما تريد أن ترد عليّ الدرهمين اللذين أعطيتكهما؟ فقال سعد: بلى ومائتين، فقال له: لست أريد منك يا سعد إلا الدرهمين، فأعطاه سعد درهمين».

قال: «فأدبرت الدنيا على سعد حتى ذهب ما كان جمع وعاد إلى حاله التي كان عليها»^(١).

(١) الكافي ٥: ٣١٢ و٣١٣/ باب النوادر/ ح ٣٨.

بعض أسباب البركة:

تشير النصوص الإسلامية إلى وجود أسباب عديدة تستنزل البركة في

الشيء، مثل:

- ١ _ الصدقة^(١).
- ٢ _ القرض^(٢).
- ٣ _ تلاوة القرآن^(٣).
- ٤ _ الاستغفار^(٤).
- ٥ _ صلة الرحم^(٥).

(١) قال الله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ (البقرة: ٢٤٥)، وعن غياث بن إبراهيم، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إِنَّ الصَّدَقَةَ تَقْضِي السُّدُورَ وَتَحْلِفُ بِالْبَرَكَةِ». (الكافي ٤: ٩ / باب في أَنَّ الصَّدَقَةَ تَزِيدُ فِي الْمَالِ / ح ١).

(٢) عن إبراهيم بن السندي، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «قَرْضُ الْمُؤْمِنِ غَنِيمَةٌ وَتَعْجِيلُ خَيْرٍ...». (الكافي ٤: ٣٤ / باب القرض / ح ٥).

(٣) عن ابن القَدَّاحِ، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «الْبَيْتُ الَّذِي يُقْرَأُ فِيهِ الْقُرْآنُ وَيُذَكَّرُ اللَّهُ فِيهِ تَكْثُرُ بَرَكَتُهُ، وَتَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، وَتَهْجُرُهُ الشَّيَاطِينُ، وَيُضَيِّقُ لِأَهْلِ السَّمَاءِ كَمَا تُضَيِّقُ الْكَوَاكِبُ لِأَهْلِ الْأَرْضِ...». (الكافي ٢: ٦١٠ / باب البيوت التي يُقْرَأُ فِيهَا الْقُرْآنُ / ح ٣).

(٤) قال الله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبِّي إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١٠١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِيئٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٠٢﴾﴾ (نوح: ١٠ - ١٢)، وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «أَكْثَرُوا اسْتَغْفَارًا تَجْلِبُوا الرِّزْقَ». (الخصال: ٦١٥ / حديث أربعائة).

(٥) عن أبي حمزة، قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «صَلَةُ الْأَرْحَامِ تُرَكِّي الْأَعْمَالَ، وَتُنَمِّي الْأَمْوَالَ، وَتُدْفَعُ الْبَلْوَى، وَتُسِّرُ الْحِسَابَ، وَتُنَسِّي فِي الْأَجْلِ». (الكافي ٢: ١٥٠ / باب صلة الرحم / ح ٤).

٦ _ التهجد بين الطلوعين^(١).

٧ _ الوضوء على المائدة^(٢).

الإنفاق في البر:

«وَأَصِْبْ بِ سَبِيلِ الْهُدَايَةِ لِلدَّبْرِ فِيمَا أَنْفَقُ مِنْهُ»:

بمعنى أن تكون نفقاتي في طريق البر، والهداية إلى البر، والمشاريع والأعمال الدالة والمؤدية إلى البر، وكلمة (أَصِْبْ) من تسديد الرمية واصابتها للهدف.

إن الإسلام يدعو إلى الإنفاق وينهى عن اكتناز المال وادخاره، لكن المطلوب هو أن يكون الإنفاق في الخيرات والباقيات الصالحات، بدلاً من أن يكون الإنفاق على تحقيق شهوات النفس وأهوائها حتى ما كان منها حلالاً جائزاً.

* * *

(١) عن الحسين بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: قلت له: جعلت فداك، إنهم يقولون: إن النوم بعد الفجر مكروه لأن الأرزاق يُقسَّم في ذلك الوقت؟ فقال: «الأرزاق موزونة مقسومة، والله فضل يُقسَّمه من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، وذلك قوله: ﴿وَسْئَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢]»، ثم قال: «وذكر الله بعد طلوع الفجر أبلغ في طلب الرزق من الضرب في الأرض». (تفسير العياشي ١: ٢٤٠ / ح ١١٩).

(٢) عن السكوني، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «من سره أن يُكثر خير بيته فليتوضأ عند حضور طعامه». (الكافي ٦: ٢٩٠ / باب صفة الوضوء قبل الطعام / ح ٤).

المقطع السابع عشر

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاكْفِنِي مَوْنَةَ
الْإِكْتِسَابِ، وَارْزُقْنِي مِنْ غَيْرِ احْتِسَابٍ، فَلَا أَشْتَغِلَ
عَنْ عِبَادَتِكَ بِالطَّلَبِ، وَلَا أَحْتَمِلُ إِضْرَ تَبَعَاتِ
الْمَكْسَبِ. اللَّهُمَّ فَاطِلْبِنِي بِقُدْرَتِكَ مَا أَطْلُبُ، وَأَجْرِنِي
بِعِزَّتِكَ مِمَّا أَرْهَبُ».

فضل الاكتساب:

تؤكد الثقافة الإسلامية من خلال النصوص الشريفة فضل
الكسب والعمل وثوابه حتى لقد ورد عن الحلبي، عن أبي عبد الله
الصادق عليه السلام، قال: «الكادُّ على عياله كالمجاهد في سبيل الله»^(١).
كما قد ورد عن عمرو بن أبي المقدم، عن أبي عبد الله الصادق
عليه السلام، قال: «في حكمة آل داود عليه السلام: أنَّ على العاقل أن لا يكون ظاعناً
إلا في ثلاث: تزوّد لمعاد، أو مرمة لمعاش، أو لذة في غير محرّم»^(٢).
إذن ما معنى قوله عليه السلام: «وَاكْفِنِي مَوْنَةَ الْإِكْتِسَابِ»؟ فهل
الاكتساب حالة ذميمة حتى يدعو الإمام التخلّص منها؟ ولماذا لم يقل:
اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي ثَوَابَ الْإِكْتِسَابِ وَالْمَعُونَةَ عَلَيْهِ؟

(١) الكافي ٥: ٨٨ / باب من كدَّ على عياله / ح ١.

(٢) من لا يحضره الفقيه ٢: ٢٦٥ / ح ٢٣٨٦.

العمل والكسب:

«وَكَفِنِي مَوْتَةَ الْاِكْتِسَابِ»:

نستطيع من خلال تتبع النصوص أن نكتشف النظرية التالية في

الإسلام:

أولاً: فضل الكسب من أجل تأمين المعيشة، والتخلص من حالة الفقر، وتوفير حالة الاكتفاء الذاتي للإنسان بدلاً عن أن يكون عيالاً على الآخرين.

ولذا فقد ورد الذم على من يضع نفسه عيالاً على الآخرين، فعن سليمان بن معلى بن خنيس، عن أبيه، قال: سأل أبو عبد الله عليه السلام عن رجل وأنا عنده فقيل له: أصابته الحاجة، قال: «فما يصنع اليوم؟»، قيل: في البيت يعبد ربه، قال: «فمن أين قوته؟»، قيل: من عند بعض إخوانه، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «والله للذي يقوته أشد عبادةً منه»^(١).

ثانياً: وحينما يكون الإنسان غنياً، وغير محتاج إلى الكسب والتجارة، فإنَّ الاكتساب سوف لا يكون له رجحان شرعي بعنوان الكسب وطلب المعيشة، لأنَّ هذا الإنسان غير محتاج إلى ذلك حسب الفرض.

إلا أنَّ هاهنا شيئاً آخر وهو أن يكون الإنسان وجوداً نافعاً في المجتمع، وشخصاً مفيداً مثمراً، ومن أجل ذلك ندب الإسلام للعمل واستثمار فرصة العمر، والاستفادة من الطاقة البشرية بدلاً من هدرها وتضييعها، وهذا الأمر هو قضية أخرى غير قضية اكتساب المعيشة وتحصيل الرزق.

(١) الكافي ٥: ٧٨ / باب الحث على الطلب والتعرض للرزق / ح ٤.

إذن فلدينا مفهومان: أحدهما الكسب، والآخر العمل والفائدة.
والأول ليس مستحباً بنحو مطلق، ومن هنا فقد قال الإمام عليه السلام:
«وَإَكْفِينِي مَوْوَنَةَ الْإِكْتِسَابِ»، فالإكتساب هو مؤونة وعناء وجهد رغم
ما فيه من لذة، ولكن الإنسان إذا استطاع أن يستغني عنه فهو الأفضل.
ولذا قال عليه السلام: «وَأَرْزُقْنِي مِنْ غَيْرِ احْتِسَابٍ».
وقال عليه السلام: «فَلَا أَشْتَغِلْ عَنْ عِبَادَتِكَ بِالطَّلَبِ» بمعنى: لا
يشغلني طلب المعيشة والرزق عن عبادتك.
وقال: «وَلَا أَحْتَمِلْ إِضْرَ تَبِعَاتِ الْمَكْسَبِ»، بمعنى: ولا أحتمل
مشقة وعناء لوازم الكسب وضروراته.
لكن هذا كله لا يعني بالضرورة أن يكون الإنسان عاطلاً عن
العمل، بل ينبغي أن يستفيد من وقته وعافيته وقدراته في إنجاز أي عمل
وفائدة يحتاجها المجتمع، ولذا قال رسول الله ﷺ: «إِنْ قَامَتْ عَلَى
أَحْدَكُمُ الْقِيَامَةُ وَفِي يَدِهِ فَسِيلَةٌ فَلْيَغْرِسْهَا»^(١).

نظرية الإسلام في الرزق:

والإسلام يعتقد أن الله تعالى هو الرازق الحقيقي، وأن الأرزاق
مقدرة عند الله تعالى لا تزيد ولا تنقص، ولكن الجهد والسعي والعمل
مطلوب لاعتباره أحد عوامل الرزق، وأحد الأسباب التي وضعها الله
تعالى له.

الحياة قائمة على أساس قانون الأسباب والمسببات، والعمل هو
أحد الأسباب، وفي نفس الوقت فهو ليس كل شيء في الأمر، فقد يكون

(١) مسند أحمد ٣: ١٨٤.

٢٥٤ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

الإنسان مرزوقاً محظوظاً دون جُهدٍ جدير، وقد يكون الإنسان غير موفقٍ ولا محظوظٍ رغم كلِّ جهوده وأتعبه، إنَّ هذه الحقيقة المشاهدة والواضحة لدى الجميع يُفسِّرُها الإسلام على أساس القسمة الإلهية، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ (الرعد: ٢٦).

التقوى أحد الأسباب:

إنَّ التقوى والورع هي أحد أسباب الرزق قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ۗ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق: ٢ و ٣).
وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٩٦).

إنَّ الأمطار، والرياح، والشمس، وخصوبة الأرض، ومعادن الأرض، وأمور كثيرة من عطاءات الطبيعة وخيراتها هي خارجة عن إرادة الإنسان، ورغم أن الله تعالى قد بذلها للإنسان ولكنه تعالى يقول: إنَّ هذه الخيرات ستضاعف وتملأ كلَّ حاجات الإنسان إذا أصبحت الأمم صالحة وذات تقوى.

الإعانة الإلهية في تحقيق الأهداف:

«اللَّهُمَّ فَاطِلْبِنِي بِقُدْرَتِكَ مَا أَطْلُبُ»:

وحيثما تكون الأمور كلها بيد الله تعالى، لذا قال ﷺ: «اللَّهُمَّ فَاطِلْبِنِي بِقُدْرَتِكَ مَا أَطْلُبُ»، بمعنى: حقق طلبي بقدرتك.

الرزق والعافية والولد والتجارة الرابحة ودفع البلياء وغير ذلك يمكن أن تتحقق فقط بقدره الله تعالى وليس بطلب الإنسان وجهده.

«وَأَجْرُنِي بِعِزَّتِكَ مِمَّا أَرْهَبُ»:

الأُمور التي نخافها في حياتنا المعيشية خاصَّة، المرض والسرقة وكساد السوق والغرق والحرق وتلف الزرع وجفاف الأرض وانقطاع المطر وحوادث الطريق وما شاكل ذلك، هذه كلُّها لا يدفعها إلا الله تعالى.

الانقطاع للعبادة:

«فَلَا أَشْتَغِلْ عَنْ عِبَادَتِكَ بِالطَّلَبِ»:

طلب الرزق هو أيضاً عبادة، فما معنى أن يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فَلَا أَشْتَغِلْ عَنْ عِبَادَتِكَ بِالطَّلَبِ»؟
والجواب: أن هناك عبادتين:

١ _ عبادة بالأصل وهي العبادات المرسومة في الشريعة كالصلاة والصوم.

٢ _ عبادة بالتبع وهي مختلف الأعمال الدنيوية إذا أتى بها الإنسان بنية الخدمة للآخرين والتقرب إلى الله تعالى من خلال الإنفاق على العيال، وشفاء المرضى، وغير ذلك. ولكن هذا القسم الثاني مشوب بالدنيا وأهواء النفس والنظر لمصالحها في الغالب، كما أنه بطبعه لا يحمل لذَّة الأُنس بالعلاقة مع الله تعالى، ومن هنا كان الإمام يطلب النوع الأوَّل من العبادة.

بعض أحكام الكسب:

من أجل الحذر والخلاص من المشاكل الشرعية في الكسب كان لا بدَّ من التفقه ومعرفة أحكام الشريعة في الكسب.

٢٥٦ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

وقد ورد عن الأصمغ بن نباتة، قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول على المنبر: «يا معشر التجار، الفقه ثم المتجر، الفقه ثم المتجر، الفقه ثم المتجر، والله للربا في هذه الأمة أخفى من ديب النمل على الصفا، شوبوا أيانكم بالصدق، التاجر فاجر والفاجر في النار إلا من أخذ الحق وأعطى الحق»^(١).

إن هناك أحكاماً وآداباً للكسب قد يغفل عنها كثيرون ونحن نذكر بعضها:

١ - وجوب الخمس في أرباح المكاسب، قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ (الأنفال: ٤١).

٢ - حرمة التطيف، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ (المطففين: ١ - ٣).

٣ - حرمة الربا، قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ (البقرة: ٢٧٥).

٤ - حرمة الغش والتدليس، فعن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «ليس منّا من غشّنا»^(٢).

* * *

(١) الكافي ٥: ١٥٠ / باب آداب التجارة / ح ١.

(٢) الكافي ٥: ١٦٠ / باب الغش / ح ١.

المقطع الثامن عشر

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَصُنْ وَجْهِي بِالْيَسَارِ،
وَلَا تَبْتَدِلْ جَاهِي بِالْإِقْتَارِ فَأَسْتَرْزِقَ أَهْلَ رِزْقِكَ، وَأَسْتَعْطِيَ
شِرَارَ خَلْقِكَ، فَأَفْتِنَنِي بِحَمْدِ مَنْ أَعْطَانِي، وَأُبْتَلِيَ بِدَمِّ مَنْ
مَنْعَنِي، وَأَنْتَ مِنْ دُونِهِمْ وَلِيُّ الْإِعْطَاءِ وَالْمَنْعِ».

«وَصُنْ وَجْهِي بِالْيَسَارِ»:

هذا المقطع هو تأكيد لما يعتبره الإسلام من أولويات الإنسان وهو الكرامة والعزة، بمعنى أن يكون الإنسان عزيزاً وليس ذليلاً، ولهذا ورد عن سماعه، قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ عَلَيْكَ فَوَّضَ إِلَى الْمُؤْمِنِ أُمُورَهُ كُلَّهَا وَلَمْ يُفَوِّضْ إِلَيْهِ أَنْ يَذَلَّ نَفْسَهُ»^(١).

من هنا يقول الإمام عليه السلام: «وَصُنْ وَجْهِي بِالْيَسَارِ»، صيانة الوجه وحفظ ماء الوجه هي قضية في غاية الأهمية، ولهذا نجد أن الإمام الحسين عليه السلام حينما يسأله المستعطي يدفع إليه الإمام برّه وصدقته من وراء الباب ويقول له:

خذاها فإني إليك معذر
لو كان في سيرنا الغداة عصا
واعلم بأني عليك ذو شفقه
لكن ريب الزمان ذو غير
أمست سمانا عليك مندفته
والكفّ منّي قليلة النفقه^(٢)

(١) الكافي ٥: ٦٣ / باب كراهة التعرّض لما لا يطيق / ح ٢.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٢٢؛ بحار الأنوار ٤٤: ١٩٠ / ح ٢.

لاحظوا إنَّ الإمامَ عليه السلام يجهد في المحافظة على صيانة وجه السائل وحفظ كرامته، هذه قضية في غاية الأهمية، ولهذا حتَّى على مستوى القيامة نحن نعوذ بالله تعالى من الخزي كما نعوذ به من العذاب. كما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ (الشعراء: ٨٧)، وكما جاء في الأدعية الواردة في تعقيبات الصلاة: «وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ خِزْيِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الآخِرَةِ»^(١).

وورد في الأدعية الشريفة: «يا حَنَّانُ يا مَنَّانُ يا رَحِيمُ يا رَحْمَنُ يا جَبَّارُ يا فَهَّارُ يا غَفَّارُ يا سَتَّارُ نَجِّنِي بِرَحْمَتِكَ مِنْ عَذَابِ النَّارِ وَفَضِيحَةِ العارِ إذا امتازَ الأَخيارُ مِنَ الأَشْرارِ»^(٢).

إذن العذاب في القيامة ليس فقط هو حرُّ النارِ إنّما هو الافتضاح والخزي وذهاب ماء الوجه.

«وَلَا تَبْتَذِلْ جَاهِي بِالِإِقْتَارِ»:

الإقتار في مقابل اليسار، اليسار بمعنى اليسر كما نقرأ في دعاء شهر رجب: «وَأَحْيَيْتَنِي مَوْفُورًا، وَأَمْتَنَيْتَنِي مَسْرُورًا وَمَغْفُورًا»^(٣).
وها هو الإمام عليه السلام يسأل الله تعالى أن يحفظ له جاهه، ولا يستذله بالفقر والإقتار.

الفرق بين حبّ الجاه وحبّ العلوّ:

وقد تسأل: أليس قد ورد النهي عن حبّ الجاه في الآداب الإسلامية؟

(١) مصباح المتهجّد: ٥١ / ح (٤١ / ٦٨)، في التعقيبات العامة.

(٢) الصحيفة السجّادية / أبطحي: ٤٠٥، في مناجاة الخائفين.

(٣) مصباح المتهجّد: ٨٠٣ / ح (٨ / ١٦٥).

الجواب: أن المنهي عنه في الآداب الإسلامية هو حبّ العلوّ، والاستعلاء على الآخرين، فقد ورد في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص: ٨٣)، روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحت هذه الآية»^(١).

ولكن العلوّ هو غير الجاه، العلوّ هو تمّني التفوّق على الآخرين، تمّني أن يكون الآخرون دوننا في الغنى أو المنزلة أو الشرف، هذا هو حبّ الاستعلاء وهو فرع من شجرة الكبر، ولهذا فهو مذموم أن يطلب الإنسان العلو على الآخرين بخلاف أن يطلب الواجهة وأن يكون وجهياً كما يتمّني للآخرين أيضاً أن يكونوا وجهاء. ولأجل ذلك نقرأ في زيارة الإمام الحسين عليه السلام: «اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي عِنْدَكَ وَجِيهًا بِالْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

نعم، البحث عن الجاه بعيداً عن رضی الله تعالى وحبّاً للدنيا وزينتها هو مذموم أيضاً، لأنّه من شُعب حبّ الدنيا.

أيهما أحبّ في الدين الفقر أم الغنى؟

لا شكّ أن الغنى هو المحبوب، ولهذا كانت الأدعية مليئة بطلب الغنى والسعة في الرزق، «اللَّهُمَّ اعْطِنِي السَّعَةَ فِي الرِّزْقِ» كما هو في دعاء أبي الحمزة الثمالي للإمام زين العابدين عليه السلام^(٢).

(١) مصباح المتهجّد: ٧٧٤/ ح (٢/٨٤٧).

(٢) الصحيفة السجّادية: ٢٣٠.

٢٦٠ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

وحينئذٍ نسأل عن معنى قول رسول الله ﷺ: «الفقر فخري»^(١).

هنا يقف العرفاء ويقولون: هو الفقر إلى الله تبارك وتعالى وليس هو الفقر المادّي والفاقة والمسكنة، رغم أنّ ثقافتنا الدينية تؤكّد على حُبّ المساكين، بل إنّ رسول الله ﷺ كان يسأل الله أن يرزقه حُبّ المساكين ويحشره مع المساكين^(٢)، إلا أنّ هذا شيء آخر غير الفقر المادّي والإقتار الذي هو واقع يجهد الإنسان الابتعاد عنه مهما استطاع.

عوامل في سعة الرزق:

في الثقافة الدينية عدّة عوامل لسعة الرزق:

أولها: الجهد والعمل والسعي والكسب وطلب الرزق الحلال، وقد جاءت الدعوة الحثيثة لطلب الرزق كما في الحديث الشريف عن الحلبي، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «الكادُّ على عياله كالمجاهد في سبيل الله»^(٣).

والثاني: الدعاء والسؤال من الله تبارك وتعالى أن يُوسّع علينا رزقنا.

والعامل الثالث: هو العامل الأخلاقي مثل صلة الرحم، فقد جاءت في الأحاديث الشريفة أنّ صلة الأرحام تزكّي الأعمال، وتممّي الأموال، وتدفع البلوى، وتيسّر الحساب، وتنسى في الأجل^(٤).

(١) عدّة الداعي: ١١٣؛ بحار الأنوار ٦٩: ٤٩.

(٢) عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «اللهمّ أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرنني في زمرة المساكين». (مشكاة الأنوار للطبرسي: ٢٢٨ / ح ٦٣٩).

(٣) الكافي ٥: ٨٨ / باب من كدّ على عياله / ح ١.

(٤) الكافي ٢: ١٥٠ / باب صلة الرحم / ح ٤، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام.

والعامل الرابع في زيادة الرزق: هو الصدقة والإنفاق، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ (سبأ: ٣٩)، بل إن الله تبارك وتعالى تولى الإعطاء بضعف ما يعطيه الإنسان كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ (البقرة: ٢٤٥).

قصة عنقود العنب:

من الجميل أن نستذكر هنا قصة يرويها الشيخ الكليني رحمته الله بسنده عن مسمع بن عبد الملك، قال: كنا عند أبي عبد الله الصادق عليه السلام بمنى، وبين أيدينا عنب نأكله، فجاء سائل فسأله، فأمر بعنقود فأعطاه، فقال السائل: لا حاجة لي في هذا إن كان درهم، قال: «يسع الله عليك»، فذهب ثم رجع فقال: ردّوا العنقود، فقال: «يسع الله لك» ولم يعطه شيئاً.

ثم جاء سائل آخر فأخذ أبو عبد الله عليه السلام ثلاث حبات عنب فناولها إياه، فأخذ السائل من يده ثم قال: الحمد لله رب العالمين الذي رزقني، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «مكانك»، فحشا ملء كفيه عنباً فناولها إياه، فأخذها السائل من يده ثم قال: الحمد لله رب العالمين، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «مكانك، يا غلام أي شيء معك من الدراهم؟»، فإذا معه نحو من عشرين درهماً فيما حزرناه أو نحوها، فناولها إياه فأخذها، ثم قال: الحمد لله هذا منك وحدك لا شريك لك، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «مكانك»، فخلع قميصاً كان عليه فقال: «البس هذا»، فلبسه ثم قال: الحمد لله الذي كساني وسترني يا أبا عبد الله، أو قال: جزاك الله خيراً، لم

٢٦٢ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

يدعُ لأبي عبد الله عليه السلام إلا بذا، ثم انصرف فذهب، قال: فظننا أنه لو لم يدعُ له لم يزل يعطيه، لأنه كلما كان يعطيه حمد الله أعطاه^(١).

لاحظوا الحمد يجب أن يكون متمحّضاً لله تبارك وتعالى، وهذا لا يعني أن الإنسان لا يحمد من أعطاه ولا يشكره، لكن الإسلام يريد أن يؤكد على أن الله هو الرزاق وهو المعطي وهو الأوّل والأخير الذي يستحقُّ الشكر، كما أن ابن آدم يستحقُّ الشكر إذا أعطى وأحسن، فقد ورد في الحديث الشريف عن محمود بن أبي البلاد، قال: سمعت الرضا عليه السلام يقول: «من لم يشكر المنعم من المخلوقين لم يشكر الله عز وجل»^(٢)، إلا أن الإمام هنا على ما يبدو يريد أن يُثقف على قصّة تركز الذهن نحو الله تبارك وتعالى، وأن العبد مهما كان متفضّلاً إلا أنه وسيلة والمعطي الأوّل هو الله تبارك وتعالى، والحمد كلُّ الحمد له تبارك وتعالى.

إذن في الفقرة الثانية هكذا نقرأ: «وَلَا تَبْتَذِلْ جَاهِي بِالِإِقْتَارِ»، هذا الأمر يُذكرنا بحرص الدين على أن يبتعد المؤمن عن الذلّ وجميع صور الذلّ، ومن أجل هذا كان الإمام الحسين عليه السلام يقول: «وَهَيْهَاتَ مِنَّا الذَّلَّةُ، يَا أَبِي اللَّهِ ذَلِكَ لَنَا وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ، وَحُجُورٌ طَابَتْ وَطَهَّرَتْ»^(٣).

المسألة هنا ليست فقط مسألة دين، وإنما مسألة كرامة، فالله تبارك وتعالى يأبى للمؤمنين الذلّ والهوان.

(١) الكافي ٤: ٤٩ / باب النوادر / ح ١٢.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٧ / ح ٢.

(٣) الملهوف على قتلى الطفوف: ٥٩.

الجاه الممدوح والجاه المذموم:

وهنا يستحقُّ أن نشير إلى الفرق بين طلب الجاه الممدوح شرعاً وبين طلب الجاه المذموم شرعاً، فنحن نقرأ في زيارة عاشوراء عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي عِنْدَكَ وَجِيهاً بِالْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(١).

إذن ها نحن نطلب الجاه والوجهة، هذا أمر ممدوح، فما هو الأمر المذموم؟

أن يكون الإنسان وجيهاً عند الله شيء مطلوب، كما أن يكون الإنسان وجيهاً عند الناس هو الآخر شيء مطلوب، أن يكون وجيهاً في الدنيا بين الناس وأن يكون وجيهاً في الآخرة عند الله تبارك وتعالى، لكن هناك طلب جاه مذموم، عندما يكون هذا الطلب على حساب الدين وعلى حساب الالتزام بالقيم الدينية، يطلب الإنسان الجاه لأجل الدنيا بعيداً عن استذكار الآخرة، هذا هو المنهي عنه لا ذلك الجاه الذي هو جاه وفقاً للقيم الدينية.

«فَأَسْتَرْزُقْ أَهْلَ رِزْقِكَ»:

الاستعطاء والاستجداء والاسترزاق من الآخرين هو أمر غير مرغوب، بل هو أمر مذموم، نحن في عقيدتنا الإسلامية الرزاق هو الله تبارك وتعالى، وهو وحده الذي يستحقُّ أن نمدَّ له الأيدي ونطلب منه الرزق، ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (الذاريات: ٢٢)، لا بدَّ من التأكيد على الفرق بين الاستعطاء والاسترزاق من الآخرين، وبين أن نتكسَّب ونطلب الرزق بجهدنا وعرق جبيننا، هذا ليس استعطاءً وليس استجداءً من الخلق وإنما هذا هو حقُّ اليد العاملة وحقُّ الجهد، ولهذا ليس فيه مهانة وليس فيه مذلة، بل على العكس من ذلك أن يجلس

(١) مصباح المتهجد: ٧٧٤ / ح (٢ / ٨٤٧).

٢٦٤ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

الإنسان في بيته ولا يطلب الرزق ولا يعمل للتكسب، ذلك هو الأمر المنهي عنه، ولهذا جاء في الحديث الشريف عن جعفر بن إبراهيم، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: «أربعة لا تستجاب لهم دعوة: رجل جالس في بيته يقول: اللهم ارزقني، فيقال له: ألم أمرك بالطلب؟...»^(١).
«وَأَسْتَعْطِي شِرَارَ خَلْقِكَ»:

أن نمداً أيدينا مستعطين من الخلق والعباد بشكل عام هذا أمر مذموم، وسيكون أكثر مذموماً حينما نمداً الأيدي إلى شرار الناس.
«فَأَفْتِنَ بِحَمْدِ مَنْ أَعْطَانِي»:

هذه إشارة ثانية إلى بعد آخر في قصة الإقتار ومد اليد للآخرين، أنه سترتب عليه امتحان آخر، للإنسان أن يؤدي حق المتفضل عليه بالحمد والثناء والشكر، أو لا يؤدي ذلك، ربما يغفل الإنسان فيمد يده ويستعطي ثم ينال طلبته، لكنه ينسى بعد ذلك الشكر والحمد لمن أعطاه، إذن هو الآن في معرض امتحان ومعرض فتنة أن يحمد أو لا يحمد.

«وَأُبْتَلَىٰ بِذَمِّ مَنْ مَنَعَنِي»:
هذا ابتلاء آخر أن من يمنحك قد تجد في نفسك عليه غلاماً، وقد تبلى بذمه والطعن بشخصيته، وهذا ربما يكون ذنباً ومعصيةً، وبالتالي فنفس الإنسان حينما تعيش حالة الإقتار ثم مد اليد للآخرين ستتعرض

(١) عن جعفر بن إبراهيم، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: «أربعة لا تستجاب لهم دعوة: رجل جالس في بيته يقول: اللهم ارزقني، فيقال له: ألم أمرك بالطلب؟ ورجل كانت له امرأة فدعا عليها، فيقال له: ألم أجعل أمرها إليك؟ ورجل كان له مال فأفسده فيقول: اللهم ارزقني، فيقال له: ألم أمرك بالاعتقاد؟ ألم أمرك بالإصلاح؟»، ثم قال: «﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]»، ورجل كان له مال فأدانه بغير بيئة، فيقال له: ألم أمرك بالشهادة؟». (الكافي ٢: ٥١١ / باب من لا تستجاب لهم دعوة / ح ٢).

لابتلاء هو أقسى من أصل قضية الفقر والإقتار، هذا هو الابتلاء المعنوي والأخلاقي، أن نضطرّ نحمد الآخرين وشكرهم أو نذمّ من منعنا ونطعن بهم، هذا خطر آخر يتعرّض له الإنسان في الجانب المعنوي والأخلاقي، ولهذا كان الإمام عليه السلام يسأل الله تبارك وتعالى أن يُجنّبهُ الإقتار ويوفّر له الغنى حتّى لا يقع في امتحان حمد الآخرين أو ذمّهم.

علمه بحالي:

«وَأَنْتَ مِنْ دُونِهِمْ وَلِيّ الْإِعْطَاءِ وَالْمَنْعِ»:

وهنا يليق أن نستذكر إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام فقد أمر نمرود بجمع الخطب وأوقد النار فعجزوا عن رمي إبراهيم فعمل لهم إبليس المنجنيق فرمى به، فتلقاه جبرئيل في الهواء فقال: هل لك من حاجة؟ فقال: أمّا إليك فلا، حسبي الله ونعم الوكيل، فاستقبله ميكائيل فقال: إن أردت أخذت النار فإنّ خزائن الأمطار والمياه بيدي، فقال: لا أريد، وأتاه ملك الريح، فقال: لو شئت طيّرت النار، قال: لا أريد، فقال جبرئيل: فاسأل الله، فقال: حسبي من سؤاله بحالي^(١).

هذا هو ما يعطيه الدعاء الذي يقول: «وَأَنْتَ مِنْ دُونِهِمْ وَلِيّ الْإِعْطَاءِ وَالْمَنْعِ»، الله تبارك وتعالى هو وليّ العطاء، وهو وليّ النجاة، وهو وليّ الرزق، فلا داعي لسؤال الآخرين، وإنّما يجب أن تتّجه كلّ الأئمة وكلّ الآمال نحو الله تبارك وتعالى.

* * *

(١) بحار الأنوار ٦٨: ١٥٥ و ١٥٦ / ح ٧٠.

المقطع التاسع عشر

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَارْزُقْنِي صِحَّةً فِي
عِبَادَةٍ، وَفِرَاحاً فِي زَهَادَةٍ، وَعِلْماً فِي اسْتِعْمَالٍ، وَوَرَعاً فِي
إِجْمَالٍ. اللَّهُمَّ اخْتِمْ بَعْفُوكَ أَجَلِي، وَحَقِّقْ فِي رَجَائِ
رَحْمَتِكَ أَمَلِي، وَسَهِّلْ إِلَيَّ بُلُوغَ رِضَاكَ سُبُلِي، وَحَسِّنْ
فِي جَمِيعِ أَحْوَالِي عَمَلِي.»

طلب العافية:

يتكرَّر طلب العافية في الأدعية الشريفة كما هو في الثقافة
الإسلامية، حيث أهمية العافية وطلب العافية، ولهذا ورد عن عبد
الأعلى، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: «سلوا الله الغنى في الدنيا
والعافية، وفي الآخرة المغفرة والجنة»^(١).

هذا أيضاً هو ما نقرؤه في دعاء أبي حمزة الثمالي عن الإمام زين
العابدين عليه السلام: «اللَّهُمَّ أَعْطِنِي السَّعَةَ فِي الرِّزْقِ، وَالْأَمْنَ فِي الْوَطَنِ،
وَقُرَّةَ الْعَيْنِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ وَالْوَالِدِ، وَالْمَقَامَ فِي نِعْمِكَ عِنْدِي، وَالصَّحَّةَ
فِي الْجِسْمِ، وَالْقُوَّةَ فِي الْبَدَنِ، وَالسَّلَامَةَ فِي الدِّينِ»^(٢).

(١) الكافي ٥: ٧١ / باب الاستعانة بالدنيا على الآخرة / ح ٤.

(٢) الصحيفة السجادية / أبطحي: ٢٣٠ و ٢٣١.

السؤال عن أربع:

لكن الصَّحَّةُ المطلوبة والعافية المطلوبة يجب أن تُستثمر في العبادة وفي طاعة الله تعالى، فإنَّ الإنسان يُسأل يوم القيامة عن أربع كما جاء في الحديث النبوي الشريف: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتَّى يُسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، و[عن] شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن حبِّنا أهل البيت»^(١).

ولهذا نقرأ هنا في دعاء مكارم الأخلاق: «وَارْزُقْنِي صِحَّةً فِي عِبَادَةِ»، العبادة بالمعنى الأعمِّ بما يشمل مختلف الأعمال الصالحة التي جاء في الحديث النبوي الشريف ﷺ: «إصلاح ذات البين أفضل من عامَّة الصلاة والصيام»^(٢)، فصحَّة الإنسان يجب أن تكون مستثمرة في العبادة وفيما هو في طاعة الله تبارك وتعالى.

التأكيد على طلب العافية:

لقد جاء التأكيد على طلب العافية في الأدعية الشريفة كما نقرأ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ وَالْمُعَافَاةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(٣).
«وَفَرَاغًا فِي زَهَادَةٍ»:

الفراغ ليس بمعنى البطالة المذمومة في الشريعة الإسلامية، وإنما الفراغ بمعنى السعة في الوقت بحيث يستطيع الإنسان أن يتوجَّه لأداء فرائضه الدينية، وليس الفراغ المملوء باللهو واللعب.
إذن هناك فراغ إيجابي وهو الفراغ الذي يتوفَّر فيه الإنسان على

(١) الخصال: ٢٥٣ / ح ١٢٥.

(٢) أمالي الطوسي: ٥٢٢ / ح (٦١ / ١١٥٤).

(٣) المصباح للكفعمي: ٢٥.

العبادة، وهناك فراغ سلبي وهو الفراغ الذي يُجاسب الإنسان عليه يوم القيامة، وبهذا الخصوص نستذكر مناجاة الإمام زين العابدين عليه السلام حينما يقول: «إِلَهِي إِلَيْكَ أَشْكُو نَفْسًا بِالسُّوءِ أَمَّارَةً، وَإِلَى الْخَطِيئَةِ مُبَادِرَةً، وَبِمَعَاصِيكَ مُوَلَّعَةً، وَلِسَخَطِكَ مُتَعَرِّضَةً، تَسْلُكُ بِي مَسَالِكِ الْمَهَالِكِ، وَتَجْعَلُنِي عِنْدَكَ أَهْوَنَ هَالِكٍ، كَثِيرَةَ الْعَلَلِ، طَوِيلَةَ الْأَمَلِ، إِنْ مَسَّهَا الشَّرُّ تَجَزَّعُ، وَإِنْ مَسَّهَا الْخَيْرُ تَمْتَنِعُ، مِيَالَةً إِلَى اللَّعِبِ وَاللَّهْوِ، مَمْلُوءَةً بِالْغَفْلَةِ وَالسَّهْوِ»^(١).

وهكذا نستذكر الإمام موسى بن جعفر عليه السلام حينما كان يسأل الله تعالى ويقول: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَسْأَلُكَ أَنْ تُفَرِّغَنِي لِعِبَادَتِكَ، اللَّهُمَّ وَقَدْ فَعَلْتَ، فَلِكِ الْحَمْدُ»^(٢).

قصة ثعلبية:

هذه القصة يرويها المؤرخون، وهي أنه كان في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم رجل يقال له: ثعلبة بن حاطب، وكان من الأنصار، فقال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أَدْعُ اللَّهَ أَنْ يَرْزُقَنِي مَالًا. فَقَالَ: «يَا ثَعْلَبَةُ، قَلِيلٌ تَوَدِّي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لَا تَطِيقُهُ، أَمَا لَكَ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَرَدْتُ أَنْ تَسِيرَ الْجِبَالُ مَعِيَ ذَهَابًا وَفِضَّةً لَسَارَتْ»، ثُمَّ أَتَاهُ بَعْدَ ذَلِكَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَدْعُ اللَّهَ أَنْ يَرْزُقَنِي مَالًا، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَسُنَّ رِزْقَنِي اللَّهُ مَالًا لِأَعْطَيْتَنِي كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَقَالَ صلى الله عليه وآله وسلم: «اللَّهُمَّ ارْزُقْ ثَعْلَبَةَ مَالًا». قَالَ: فَاتَّخَذَ غَنَمًا، فَنَمَتْ كَمَا يَنْمُو الدُّودُ، فَضَاقَتْ عَلَيْهِ الْمَدِينَةُ،

(١) الصحيفة السجادية/ أبطحي: ٤٠٣، في مناجاة الشاكين.

(٢) الإرشاد ٢: ٢٤٠.

٢٧٠ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

فتنحى عنها، فنزل وادياً من أوديتها، ثم كثرت نمواً حتى تباعد عن المدينة، فاشتغل بذلك عن الجمعة والجماعة، وبعث رسول الله ﷺ إليه المصدق ليأخذ الصدقة، فأبى وبخل وقال: ما هذه إلا أخت الجزية، فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة»^(١).

«وَعِلْمًا فِي اسْتِعْمَالٍ»:

جاء في الأدعية الشريفة: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ دُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ»^(٢)، كما جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «الْعِلْمُ مَقْرُونٌ بِالْعَمَلِ فَمَنْ عِلِمَ عَمَلًا، وَالْعِلْمُ يَنْتَفُ بِالْعَمَلِ فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلَ عَنْهُ»^(٣).

هناك علم لا ينفع وهذه الحالة مرفوضة، هنا نستذكر قصة بلعم بن باعورا الذي يتحدث عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (الأعراف: ١٧٥)^(٤).

(١) تفسير مجمع البيان ٥: ٩٣ و ٩٤.

(٢) مصباح المتهجد: ٧٥ / ح (٩٦/١٢٣).

(٣) نهج البلاغة: ٥٣٩ / ح ٣٦٦.

(٤) عن الحسن بن خالد، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام، قال: «إِنَّهُ أُعْطِيَ بِلْعَمِ بْنِ بَاعُورَا الْأَسْمَ الْأَعْظَمَ، فَكَانَ يَدْعُو بِهِ فَيَسْتَجَابُ لَهُ، فَحَالَ إِلَى فِرْعَوْنَ، فَلَمَّا مَرَّ فِرْعَوْنَ فِي طَلَبِ مُوسَى وَأَصْحَابِهِ، قَالَ فِرْعَوْنَ لِبِلْعَمٍ: أَدْعُو اللَّهَ عَلَيَّ مُوسَى وَأَصْحَابَهُ لِيَحْبِسَهُ عَلَيْنَا، فَكَبَّ حِمَارَتَهُ لِيَمُرَّ فِي طَلَبِ مُوسَى وَأَصْحَابِهِ، فَامْتَنَعَتْ عَلَيْهِ حِمَارَتُهُ، فَأَقْبَلَ يَضْرِبُهَا، فَأَنْطَقَهَا اللَّهُ تعالى، فَقَالَتْ: وَيْلَكَ عَلَيَّ مَا تَضْرِبُنِي؟ أَتُرِيدُ أَجِيءُ مَعَكَ لِتَدْعُو عَلَيَّ مُوسَى نَبِيَّ اللَّهِ وَقَوْمَ مُؤْمِنِينَ؟ فَلَمْ يَزَلْ يَضْرِبُهَا حَتَّى قَتَلَهَا، وَأَنْسَلَخَ الْأَسْمَ الْأَعْظَمَ مِنْ لِسَانِهِ». (تفسير القمي ١: ٢٤٨).

«وَرَعًا فِي إِجْمَالٍ»:

الورع مطلوب جداً في حياة المؤمن حتّى أن الإمام عليّاً عليه السلام سأل رسول الله صلى الله عليه وآله في شهر رمضان قائلاً: «يا رسول الله، ما أفضل الأعمال في هذا الشهر؟»، فقال: «يا أبا الحسن، أفضل الأعمال في هذا الشهر الورع عن محارم الله صلى الله عليه وآله»^(١).

الورع هو عبارة عن الابتعاد عن المحرّمات، ولكن هذا الدعاء يقول: «وَرَعًا فِي إِجْمَالٍ» بمعنى بعيداً عن التطرّف وبعيداً عن الإسراف والإسفاف، ولهذا جاء في الحديث الشريف عن الهيثم بن واقد، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: «من رضي من الله باليسير من المعاش رضي الله منه باليسير من العمل»^(٢).

هكذا في الثقافة الإسلامية الاعتدال هو أمر مطلوب.

قصة الثلاثة:

وهنا نستذكر قصة الثلاثة الذين جاؤوا إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وآله يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وآله، فلمّا أُخبروا كأنّهم تقالّوها^(٣)، فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وآله قد غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر؟ قال أحدهم: أمّا أنا فإني أصليّ الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوّج أبداً، فجاء رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أمّا والله إنني لأخشاكم لله

(١) أمالي الصدوق: ١٥٥ / ح (٤ / ١٤٩).

(٢) الكافي ٢: ١٣٨ / باب القناعة / ح ٣.

(٣) قوله: (تقالّوها) بتشديد اللام المضمومة أي: عدّوها قليلة، وأصله: تقالّوا فأدغمت

اللام في اللام لاجتماع المثلين. (عمدة القاري في شرح صحيح البخاري ٢٠: ٦٥).

٢٧٢ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

وأتقاكم له، لكنني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(١).

وهكذا يشير القرآن الكريم إلى التطرف في الرهينة حينما يقول: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ (الحديد: ٢٧) فيعتبر ذلك بدعة، كما أن القرآن الكريم يشير إلى نفس المعنى في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ (الأعراف: ٣٢).
«اللَّهُمَّ اخْتِمْ بِعَفْوِكَ أَجَلِي»:

دائماً نحن مدعون للتفكير بالعاقبة وخاتمة أمرنا، ولهذا جاء في دعاء شهر رجب: «وَأَحْيَيْتَنِي مَا أَحْيَيْتَنِي مَوْفُورًا، وَأَمْتَنِي مَسْرُورًا وَمَعْفُورًا»^(٢)، ليس من المهم فقط أن نكون الآن من الصالحين وإنما أن نموت ونحن من الصالحين.

يقول الإمام عليه السلام: «اللَّهُمَّ اخْتِمْ بِعَفْوِكَ أَجَلِي» لا يمكن أن ننجو بدون عفو الله تبارك وتعالى، لهذا جاء في مناجاة أمير المؤمنين عليه السلام:
إِلَهِي فَإِنْ تَعَفَّوْا فَعَفْوُكَ مُنْقِذِي وَإِلَّا فَبِالذَّنْبِ الْمُدْمِرِ أَصْرَعُ^(٣)
«وَحَقَّقْ فِي رَجَاءِ رَحْمَتِكَ أَمَلِي»:

الأمل بالله تبارك وتعالى والذي يجب أن نستغرق فيه ويملاً أعماقنا، فإنه لا نجاة لنا بدون هذا الأمل، والله تعالى هو الذي لا يرد سائله ولا يخيب آمله، وفي الثقافة الإسلامية اعتبر فقد الأمل بمعنى اليأس من رحمة الله من كبائر الذنوب.

(١) صحيح البخاري ٦: ١١٦.

(٢) مصباح التهجد: ٨٠٣ / ح (٨/١٦٥).

(٣) مفاتيح الجنان: ٢٢٦.

قصة حميد بن قحطبة:

وهنا نستذكر قصة حميد بن قحطبة ذاك الذي كان من وزراء هارون الرشيد وقتل ستين علويًا فترك الصوم يائسًا من النجاة، ولكن الإمام الرضا عليه السلام قال: «إن يأسه من رحمة الله أكبر جرماً مما ارتكب من الذنوب»^(١).

(١) عن أبي الحسين أحمد بن سهل بن ماهان، قال: حدثني عبيد الله البرزاز النيسابوري وكان مسناً، قال: كان بيني وبين حميد بن قحطبة الطائي الطوسي معاملة، فرحلت إليه في بعض الأيام، فبلغه خبر قدومي، فاستحضرني للوقت وعلي ثياب السفر لم أعيرها وذلك في شهر رمضان وقت صلاة الظهر، فلما دخلت عليه رأته في بيت يجري فيه الماء، فسلمت عليه وجلست فأتي بطشت وإبريق فغسل يديه ثم أمرني فغسلت يدي وأحضرت المائدة وذهب عني أتي صائم وأني في شهر رمضان ثم ذكرت فأمسكت يدي، فقال لي حميد: ما لك لا تأكل؟ فقلت: أيها الأمير، هذا شهر رمضان ولست بمريض ولا بي علة توجب الإفطار، ولعل الأمير له عذر في ذلك أو علة توجب الإفطار، فقال: ما بي علة توجب الإفطار، وأني لصحيح البدن، ثم دمعت عيناه وبكى، فقلت له بعد ما فرغ من طعامه: ما يبكيك أيها الأمير؟

فقال: أنفذ هارون الرشيد وقت كونه بطوس في بعض الليل أن أجب، فلما دخلت عليه رأته بين يديه شمعة تنقد وسيفاً أخضر مسلولاً وبين يديه خادم واقف، فلما قمت بين يديه رفع رأسه إلي فقال: كيف طاعتك لأمر المؤمنين؟ فقلت: بالنفس والمال، فأطرق ثم أذن لي في الانصراف.

فلم ألبث في منزلي حتى عاد الرسول إلي وقال: أجب أمير المؤمنين، فقلت في نفسي: أنا لله أخاف يكون قد عزم على قتلي، وإنه لمراني استحيي مني، قعدت بين يديه فرفع رأسه إلي فقال: كيف طاعتك لأمر المؤمنين؟ فقلت: بالنفس والمال والأهل والولد، فتبسّم ضاحكاً ثم أذن لي في الانصراف.

فلما دخلت منزلي لم ألبث أن عاد إلي الرسول فقال: أجب أمير المؤمنين، فحضرت بين يديه وهو على حاله، فرفع رأسه إلي وقال لي: كيف طاعتك لأمر المؤمنين؟ فقلت: بالنفس والمال والأهل والولد والدين فضحك، ثم قال لي: خذ هذا السيف وامثل ما يأمر بك به الخادم. ←

التوازن المطلوب:

التوازن ما بين الرجاء والخوف هو ما جاءت به الروايات الشريفة عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: قلت له: ما كان في وصية لقمان؟ قال: «كان فيها الأعاجيب، وكان أعجب ما كان فيها أن قال لابنه: خف الله تعالى خيفة لو جتته ببر الثقلين لعذبك، وارحُ الله رجاءً لو جتته بذنوب الثقلين لرحمك»، ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: «كان أبي يقول: إنَّه ليس من عبد مؤمن إلا [و] في قلبه نوران: نور خيفة ونور رجاء، لو وُزِنَ هذا لم يزد على هذا، ولو وُزِنَ هذا لم يزد على هذا»^(١).

⇒ قال: فتناول الخادم السيف وناولنيه وجاء بي إلى بيت بابه مغلق ففتحه فإذا فيه بئر في وسطه وثلاثة بيوت أبوابها مغلقة ففتح باب بيت منها فإذا فيه عشرون نفساً عليهم الشعور والذوائب شيوخ وكهول وشبان مقيدون، فقال لي: إنَّ أمير المؤمنين يأمرك بقتل هؤلاء - وكانوا كلهم علوية من ولد علي وفاطمة عليهما السلام -، فجعل يُخرج إليّ واحداً بعد واحد فأضرب عنقه حتَّى أتيت على آخرهم ثم رمى بأجسادهم ورؤوسهم في تلك البئر. ثم فتح باب بيت آخر فإذا فيه أيضاً عشرون نفساً من العلوية من ولد علي وفاطمة عليهما السلام مقيدون فقال لي: إنَّ أمير المؤمنين يأمرك بقتل هؤلاء فجعل يُخرج إليّ واحداً بعد واحد فأضرب عنقه ويرمي به في تلك البئر حتَّى أتيت إلى آخرهم. ثم فتح باب البيت الثالث فإذا فيه مثلهم عشرون نفساً من ولد علي وفاطمة عليهما السلام مقيدون عليهم الشعور والذوائب، فقال لي: إنَّ أمير المؤمنين يأمرك بقتل هؤلاء أيضاً، فجعل يُخرج إليّ واحداً بعد واحد فأضرب عنقه ويرمي به في تلك البئر حتَّى أتيت على تسعة عشر نفساً منهم وبقى شيخاً منهم عليه شعر، فقال لي: تبا لك يا ميشوم، أيّ عذر لك يوم القيامة إذا قدمت على جدنا رسول الله ﷺ وقد قتلت من أولاده ستين نفساً قد ولدهم على وفاطمة عليهما السلام؟! فارتعشت يدي وارتعدت فرايصي فنظر إلى الخادم مغضباً وزبرني، فأتيت على ذلك الشيخ أيضاً فقتلته ورمي به في تلك البئر.

فإذا كان فعلی هذا وقد قتلت ستين نفساً من ولد رسول الله ﷺ فما ينفعني صومي وصلاتي، وأنا لا أشكُ أتّي مخلد في النار. (عيون أخبار الرضا عليه السلام: ١: ١٠٠ - ١٠٢ / ح ١).

(١) الكافي ٢: ٦٧ / باب الخوف والرجاء / ح ١.

الرجاء الكاذب:

الرجاء مطلوب والأمل مطلوب بالله تبارك وتعالى، لكن الثقافة الدينية الواردة عن أهل البيت عليهم السلام تنهى عن الرجاء الكاذب، فقد جاء في الحديث الشريف عن أبي حمزة، قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «من عرف الله خاف الله، ومن خاف الله سخطت نفسه عن الدنيا»^(١)، وجاء في الحديث الشريف عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: قلت له: قوم يعملون بالمعاصي ويقولون: نرجو، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم الموت.

فقال: «هؤلاء قوم يترجحون في الأمانى، كذبوا ليسوا براجين، إن من رجا شيئاً طلبه، ومن خاف من شيء هرب منه»^(٢).

«وَسَهِّلْ إِلَى بُلُوغِ رِضَاكَ سُبُلِي»:

طلب الرضا من الله تعالى هو أدب عظيم، ولكن نسأل الله تعالى أن يُسهّل لنا سبيل رضاه، وهنا يأتي فضل قراءة سورة الانشراح: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (الانشراح: ١).

قصة التاجر البغدادي:

وتأتي هنا قصة التاجر البغدادي كما يرويها صاحب كتاب (الفرج بعد الشدة)^(٣)، قال: حدّثني عبد الله بن محمد بن الحسن الصروري، قال: حدّثني أبي أنّ رجلاً حجّ وفي وسطه هميان فيه دنانير وجواهر قيمة الجميع ثلاثة آلاف دينار. وكان الهميان من ديباج أسود، فلمّا كان ببعض

(١) الكافي ٢: ٦٨ / باب الخوف والرجاء / ح ٤.

(٢) الكافي ٢: ٦٨ / باب الخوف والرجاء / ح ٥.

(٣) الفرج بعد الشدة ٢: ٢١٣ - ٢١٥.

٢٧٦ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

الطريق نزل لبيول فأنحلَّ الهميان من وسطه فسقط ولم يعلم بذلك إلا بعد أن سار عن الموضوع فراسخ. فاتَّفَق أن جاء رجل في أثره فجلس يبول في مكانه فرأى الهميان فأخذه وكان عليه دين فحفظه.

قال: وكان الرجل من أهل بلدنا، فأخبرني أنه لم يؤثر في قلبي ذهابه لأنِّي استخلفته عند الله تعالى، وكنت في طريق الله ﷻ، وكانت تجارتي عظيمة وأموالي كثيرة.

قال: فلما قضيت حجَّتي وعدت وتابعت المحن عليَّ حتَّى لم أملك شيئاً، فهربت على وجهي من بلدي، فلما كان بعد سنين من فقري وقد أفضيت إلى أن أتصدَّق على الطريق وزوجتي معي، وما أملك من تلك الليلة إلا دانقاً ونصف، وكانت الليلة مطيرة، وقد أويت في بعض القرى إلى خان خراب، فضرب زوجتي الطلق، فتحيَّرت وولدت. فقالت: يا هذا، الساعة تخرج روجي فاخرج وخذ لي شيئاً أتقوى به، فخرجت أخبط في الظلمة والمطر حتَّى جئت إلى بقال.

قال: فدققت عليه، فكلمني بعد جهد، فشرحت له حالي فرحمني وأعطاني بتلك القطع حلبة وزيتاً وأغلاهما، وأعارني غضارة جعلت ذلك فيها، وجئت أريد الموضوع، فلما مشيت بعيداً وقربت من الخان زلقت رجلي وانكسرت الغضارة وذهب جميع ما فيها.

فورد على قلبي أمر عظيم ما ورد على مثله قط، فأقبلت أبكى وألطم وأصيح، فإذا برجل قد أخرج رأسه من شبَّك في داره فقال: ويحك ما لك تبكى؟ ما تدعنا أن ننام؟ فشرحت له القصة، فقال: يا هذا، البكاء كله بسبب دانق ونصف؟ فداخطني من الغم أعظم من الغم الأول، فقلت: يا هذا، والله ما عندي قدر لما ذهب مني، ولكن بكائي

رحمةً لزوجتي ولنفسي ممّا قد وقعت إليه، فإنّ امرأتي تموت الآن
وولدي جوعاً، والله العليّ الأعلى وحلفت أيماناً غليظة لقد حججت
في سنة كذا وكذا وأنا أملك من المال شيئاً كثيراً، فذهب منّي هميان فيه
دنانير وجواهر تساوي ثلاثة آلاف دينار، فما فكّرت فيه، وهو ذا تراني
الساعة أبكى بسبب دانق ونصف فضّة فأسأل الله تعالى السلامة، ولا
تعايرني فتبليّ بمثل بلوأي.

قال: فقال لي: بالله يا رجل ما كان صفة هميانك؟

فأقبلت ألطم وقلت: ما ينفعني ما خاطبتني به وما تراه من
جهدي وقيامي في المطر حتّى تستهزئ بي أيضاً، وما ينفعني وينفعك من
صفة همياني الذي الذي ضاع منذ كذا وكذا سنة؟

قال: ومشيت فإذا الرجل قد خرج وهو يصيح بي فقال: يا رجل
خذ هذا، فظنته يتصدّق عليّ، فجئت وقلت له: أيّ شيء تريد؟

فقال لي: صف هميانك، وقبض عليّ، فلم أجد للخلاص سبيلاً
غير وصفه له فوصفته، فقال لي: أدخل، فدخلت، فقال: أين امرأتك؟
قلت: في الخان الفلاني.

قال: فأنفذ غلماناً فجاءوا بها، فأدخلت إلى حرمه، فأصلحوا شأنها
وأطعموها كلّ ما تحتاج إليه، وجاءوني بجبّة وقميص وعمامة وسراويل،
وأدخلني الحمام سحرًا، وطرح ذلك عليّ فأصبحت في عيشة راضية.

فقال: أقم عندي أياماً، فأقمت عشرة أيام، فكان يعطيني في كلّ
يوم عشرة دنانير، وأنا متحرّ في عظم برّه بعد شدّة جفائه، فلمّا كان بعد
ذلك قال لي: في أيّ شيء تتصرّف؟ قلت: كنت تاجرًا. قال: فلي غلّات
وأنا أعطيك رأس مال تتجر فيه وتشركني؟

٢٧٨ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

فقلت: أفعل، فأخرج لي مائتي دينار فقال: خذها وأنجز فيها
ها هنا.

فقلت: هذا معاش قد أغناني الله يجب أن ألزمه، فلزمته، فلمّا كان
بعد شهر ربحنا فجئته وأخذت حقي وأعطيته حقه. فقال لي: أجلس،
فجلست فأخرج إليّ همياني بعينه، وقال: أتعرف هذا؟ فحين رأيته
شهقت وأغمي عليّ، فما أفقت إلا بعد ساعة.

ثم قلت له: يا هذا؟ أملك أنت أم نبيّ؟ فقال: أنا ممتحن بحفظه
منذ كذا وكذا سنة. فلمّا سمعتك تلك الليلة تقول ما قلته وطالبتك
بالعلامة فأعطيتها أردت أن أعطيك للوقت هميانك، فخفت أن تنشق
مرارتك، فأعطيتك تلك الدنانير التي أوهمتك أنّها هبة وإنما أعطيتكها
من هميانك. والدنانير المائتان قرض فخذ هميانك واجعلني في حلّ.

قال: فشكرته ودعوت له، وأخذت الهميان وارتجع دنائيره،
ورجعت إلى بلدي فبعت الجوهر وضممت ثمنه إلى ما معي، وأنجزت
فما مضت إلا سنّيات حتّى صرت صاحب عشرة آلاف دينار،
وصلحت حالي، فأنا أعيش في فضل الله تعالى وفي فضل تلك الدنانير إلى
الآن.

«وَحَسِّنْ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِ عَمَلِي»:

في جميع الأحوال يجب أن تكون أعمالنا حسنة، على خلاف أولئك
الذين يتحدث عنهم القرآن الكريم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَى
حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ
خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الحج: ١١)، كما في
آية أخرى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا

المقطع التاسع عشر ٢٧٩

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ صُورَهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ صُرْمَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ
لِلْمُتَسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ (يونس: ١٢).

إذن نحن في جميع الأحوال يجب أن نراقب أعمالنا في حالات
الغنى والفقر والغربة والوطن والصحة والمرض والبلاء والرخاء في كل
تلك الأحوال يجب أن نكون إلهيين.

قصة الأصحاب الثلاثة:

وهنا نستذكر قصة الثلاثة الذين اتقاهم رسول الله ﷺ كما جاء
في الحديث الشريف عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: «بينما رسول الله
ﷺ في بعض أسفاره إذ لقيه ركب، فقالوا: السلام عليك يا رسول الله،
فقال: ما أنتم؟

فقالوا: نحن مؤمنون يا رسول الله.

قال: فما حقيقة إيمانكم؟

قالوا: الرضا بقضاء الله، والتفويض إلى الله، والتسليم لأمر الله.

فقال رسول الله ﷺ: علماء حكماء، كادوا أن يكونوا من الحكمة

أنبياء، فإن كنتم صادقين فلا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تجمعوا ما لا
تأكلون، واتقوا الله الذي إليه ترجعون»^(١).

* * *

(١) الكافي ٢: ٥٢ و ٥٣ / باب حقيقة الإيمان واليقين / ح ١.

المقطع العشرون

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَنَبِّهْنِي لِذِكْرِكَ فِي أَوْقَاتِ
الْغَفْلَةِ، وَاسْتَعْمِلْنِي بِطَاعَتِكَ فِي أَيَّامِ الْمُهَلَّةِ، وَانْهَجْ لِي إِلَى
مَحَبَّتِكَ سَبِيلًا سَهْلَةً، أَكْمِلْ لِي بِهَا خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

«وَنَبِّهْنِي لِذِكْرِكَ فِي أَوْقَاتِ الْغَفْلَةِ»:

الإنسان يجب أن يكون مستذكراً دائماً لحقيقة أن الحياة الدنيا هي
مزرعة للآخرة، وأن الآخرة هي دار القرار، وهي التي تنتظر الإنسان،
وحيث إننا في هذه الدنيا لا نرى بأعيننا عالم الآخرة، ولهذا قد تحكمنا
الغفلة، وقد نعيش في إهمال لما ينتظرنا من الأيام، لهذا فإن القرآن الكريم
يقول في مخاطبة الكافرين: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ
غِطَاءَكُمْ فَبَصَرُكُمُ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق: ٢٢).

الثقافة الدينية تدعو الإنسان للانتباه دائماً، بل تعتبر الإنسان في
هذه الحياة هو بمثابة النائم، كما ورد في الحديث الشريف عن أمير
المؤمنين عليه السلام: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»^(١).

فالحقيقة الكبرى هي تلك التي نراها بعد الموت، هذه الدنيا
مظاهر تخفي في باطنها ما هو الحقيقة التي نكتشفها بعد الموت، ولهذا
جاء في الأدعية الشريفة الإكثار من سؤال الله سبحانه وتعالى أن يُنبِّهنا

(١) خصائص الأئمة للشريف الرضي: ١١٢.

٢٨٢ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

من نومة الغافلين، «اللَّهُمَّ اجْعَلْ صِيَامِي فِيهِ صِيَامَ الصَّائِمِينَ، وَقِيَامِي فِيهِ قِيَامَ الْقَائِمِينَ، وَنَبِّهْنِي فِيهِ عَنِ نَوْمَةِ الْغَافِلِينَ...»^(١)، كما أن القرآن الكريم يقول: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (طه: ١٢٤).

ساعتنا الغفلة:

جاء في الحديث الشريف عن جابر، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: «إِنَّ إبليس عليه لعائن الله يَبُثُّ جنود الليل من حيث تغيب الشمس وتطلع، فأكثروا ذكر الله تعالى في هاتين الساعتين، وتعوذوا بالله من شرِّ إبليس وجنوده، وعوذوا صغاركم في تلك الساعتين، فإنَّهما ساعتنا غفلة»^(٢).

«وَاسْتَعْمِلْنِي بِطَاعَتِكَ فِي أَيَّامِ الْمُهَلَّةِ»:

الدنيا هي أيام مهلة يعني هي الفرصة التي أمهل الله تبارك وتعالى فيها الإنسان حتَّى يقترب منه ويستغلَّ فرصة العمر، كما جاء الحديث النبوي الشريف: «إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ، أَلَا فَتَعَرَّضُوا لَهَا»^(٣).

رحم الله امرءاً:

قال الإمام علي عليه السلام: «رحم الله امرءاً أقصر الأمل، وبادر الأجل، واغتتم المهل، وتزوَّد من العمل»^(٤)، فهذه أربعة أمور مطلوبة تتبعها الرحمة الإلهية للإنسان:

(١) إقبال الأعمال ١: ٢٣٠، دعاء اليوم الأوَّل من شهر رمضان.

(٢) الكافي ٢: ٥٢٢ / باب القول عند الإصباح والإساءة / ح ٢.

(٣) شرح أصول الكافي ١٠: ٣٩٠، المعجم الأوسط للطبراني ٣: ١٨٠.

(٤) عيون الحكم والمواعظ: ٢٦١.

١ _ قصر الأمل بالدنيا.

٢ _ الاستباق والاستعداد للآخرة.

٣ _ اغتنام أيام المهلة.

٤ _ التزوّد بالعمل الصالح.

من حمل يندم:

هناك قصّة عن ذي القرنين جاء فيها أنّه سلك مع أصحابه وادياً في ليل مظلم ووجد فيه خرزاً، فقال لأصحابه: من يحمل من هذا الوادي يندم ومن لا يحمل يندم، فحمل بعضهم من تلك الخرز ولم يحمل بعض آخر، فلمّا أصبح الصباح نظروا إلى ما حملوه فإذا هي أحجار كريمة ومجوهرات، فالذي لم يحمل ندم لعدم حمله شيئاً من تلك الأحجار والمجوهرات، والذي حمل أيضاً لعدم حمله أكثر ممّا حمل^(١).

هكذا هي الدنيا، من يعمل صالحاً يندم يوم القيامة لأنّه لم يكثر من ذلك العمل الصالح، ومن لم يعمل صالحاً يندم لأنّه لم يعمل صالحاً.

القرآن الكريم يقول على لسان المسرفين يوم القيامة: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾ (المؤمنون: ٩٩ و ١٠٠).

وهكذا نقرأ في المناجاة الشعبانية لأمير المؤمنين عليه السلام: «إِلٰهِي أَنْظِرْ إِلَيَّ نَظْرَ مَنْ نَادَيْتَهُ فَأَجَابَكَ وَاسْتَعْمَلْتَهُ بِمَعُونَتِكَ فَأَطَاعَكَ»^(٢).

نحن نسأل الله تعالى أن يستعملنا بطاعته فنكون من عمال الله في

الأرض.

(١) راجع: تفسير الرازي ٣٢: ٧٩.

(٢) إقبال الأعمال ٣: ٢٩٨.

لها نصف أجر شهيد:

كما جاء في الحديث الشريف أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إن لي زوجة إذا دخلت تلقتني، وإذا خرجت شيعتني، وإذا رأته مهموماً قالت: ما يهّمك؟! إن كنت تهتم لرزقك فقد تكفل لك به غيرك، وإن كنت تهتم بأمر آخرتك فزادك الله همّاً. فقال رسول الله ﷺ: «إن الله عمّالاً، وهذه من عمّاله، لها نصف أجر الشهيد»^(١).

«وَأَنْهَجْ لِي إِلَى مَحَبَّتِكَ سَبِيلًا سَهْلَةً»:

محبة الله هي الهدف الأكبر كما يقول القرآن الكريم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (البقرة: ١٦٥).

نسأل الله تبارك وتعالى أن ينهج بنا إلى محبته طريقاً سهلاً وليس طريقاً صعباً عسراً، لاحظ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٥)، وهكذا قوله تعالى على لسان موسى: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۖ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ (طه: ٢٥ و ٢٦).

الطريق إلى المحبة:

ما هو طريق المحبة المتبادلة بين الإنسان وبين الله تعالى؟ يقول القرآن الكريم: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران:

(١) من لا يحضره الفقيه ٣: ٣٨٩ / ح ٤٣٦٩.

(٣١)، يجب أن يكون حبنا الأكثر لله تبارك وتعالى، كما يقول القرآن الكريم: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة: ٢٤).

لاحظوا مستوى العشق الإلهي لدى أئمتنا عليهم السلام ما نقرؤه في مناجاة الإمام السجاد عليه السلام: «فَأَنْتَ لَا غَيْرَكَ مُرَادِي، وَلَكَ لَا لِسْوَاكَ سَهْرِي وَسُهَادِي، وَلِقَاؤُكَ قُرَّةَ عَيْنِي، وَوَضْلُكَ مُنَى نَفْسِي، وَإِلَيْكَ شَوْقِي، وَفِي مَحَبَّتِكَ وَهْيِي، وَإِلَى هَوَاكَ صَبَابَتِي، وَرِضَاكَ بُغْيَتِي، وَرِوَابَتِكَ حَاجَتِي، وَجِوَارِكَ طَلِبَتِي، وَقُرْبِكَ غَايَةَ سُؤْلِي، وَفِي مُنَاجَاتِكَ رَوْحِي وَرَاحَتِي، وَعِنْدَكَ دَوَاءُ عِلَّتِي، وَشِفَاءُ غُلَّتِي، وَبَرْدُ لَوْعَتِي، وَكَشْفُ كُرْبَتِي»^(١).

* * *

(١) الصحيفة السجادية/ أبطحي: ٤١٢، في مناجاة المریدین.

المقطع الحادي والعشرون

«اللَّهُمَّ وَصَلْ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، كَأَفْضَلِ مَا
صَلَّيْتَ عَلَيَّ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ قَبْلَهُ، وَأَنْتَ مُصَلِّ عَلَيَّ
أَحَدٍ بَعْدَهُ، وَأَتَنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً،
وَقِنِّي بِرَحْمَتِكَ عَذَابَ النَّارِ».

الدعاء يختتم بالصلاة على محمد وآل محمد وسؤال الحسنين في
الدنيا والآخرة.

فضيلة الصلاة على النبي ﷺ :

ورد في فضيلة الصلاة على النبي ﷺ روايات كثيرة سبق أن
ذكرناها في فاتحة الدعاء، فراجع^(١).

لكن الدعاء هنا يقول: «أَفْضَلِ مَا صَلَّيْتَ عَلَيَّ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ
قَبْلَهُ»، لأن الله تبارك وتعالى يُصَلِّي على جميع المؤمنين كما جاء في قوله
تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ (الأحزاب: ٤٣)،
وهكذا في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾
(البقرة: ١٥٧).

إِلَّا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَخْتَصُّ بِصَلَاةٍ خَاصَّةٍ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي هِيَ

(١) (ص ١٧).

بمعنى الرحمة والبركة من الله، فنحن نسأل لنبينا ﷺ من الله أن يُصلي عليه صلاةً هي أفضل من آية صلاة أُخرى على أحد من الأنبياء أو أحد من الخلق جميعاً.

ثلاث مرّات:

لاحظوا مثلاً في كلّ صباح ومساء يستحبُّ ذكر هذه الصلوات ثلاث مرّات: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ فِي الْأَوَّلِينَ، وَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ فِي الْآخِرِينَ، وَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى، وَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ فِي الْمُرْسَلِينَ، اللَّهُمَّ أَعْطِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالشَّرَفَ وَالْفَضِيلَةَ وَالذَّرَجَةَ الْكَبِيرَةَ، اللَّهُمَّ إِنِّي آمَنْتُ بِمُحَمَّدٍ وَلَمْ أَرَهُ فَلَا تَحْرِمْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ رُؤْيَيْتَهُ، وَارْزُقْنِي صُحْبَتَهُ، وَتَوَفَّنِي عَلَى مِلَّتِهِ، وَاسْقِنِي مِنْ حَوْضِهِ مَشْرَبًا رَوِيًّا سَائِعًا هَنِيئًا لَا أَظْمَأُ بَعْدَهُ أَبَدًا، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ كَمَا آمَنْتُ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَلَمْ أَرَهُ فَعَرَّفْنِي فِي الْجَنَانِ وَجْهَهُ، اللَّهُمَّ بَلِّغْ رُوحَ مُحَمَّدٍ عَنِّي تَحِيَّةً كَثِيرَةً وَسَلَامًا»^(١).

كيفية الصلاة على النبي وآله:

ورد عن الرسول الأكرم ﷺ أنه قال: «لا تصلّوا عليّ الصلاة البتراء».

قالوا: وما هي الصلاة البتراء يا رسول الله؟

قال: «لا تقولوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَتَمَسَّكُوا، بل قولوا: صَلِّ

عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ»^(٢).

(١) ثواب الأعمال: ١٥٦، عن الإمام الرضا عليه السلام.

(٢) كتاب الأربعين لمحمد طاهر القمي: ٤٨٢؛ ينابيع المودة ١: ٣٧ بتفاوت يسير.

لاحظوا إن الصلاة على النبي وآله شرط في صحّة الصلاة، فنحن في التشهد والتسليم في الصلاة نُصلي على محمد وآله ونقول: (اللهم صلّ على محمد وآل محمد)، ومن العجيب أن مذاهب إسلامية أخرى تحذف ذكر الآل في الوقت الذي لا تصحّ الصلاة إلا بذكر الآل في الصلوات.

قصة عبد الله بن الزبير:

وهنا نستذكر قصة عبد الله بن الزبير الذي امتنع عن الصلاة على النبي ﷺ لمدة أربعين جمعة حتى التاث عليه الناس، فقال: إن له أهل بيت سوء إذا صلّيت عليه أو ذكرته أتلعوا أعناقهم واثربوا ذكره وفرحوا بذلك، فلا أحبُّ أن أقرّ عينهم بذكره^(١).

«وَأَتْنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً»:

جاء في الروايات الشريفة أن الحسنة هي ولاية أهل البيت عليهم السلام كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ (الشورى: ٢٣)^(٢).

ومهما يكن الأمر في هذه الآية: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (البقرة: ٢٠١)، فلا شك أن ولاية أهل البيت عليهم السلام هي أفضل الحسنات، لأنها تجسيد لولاية الله ﷻ وولاية رسوله ﷺ.

(١) مقاتل الطالبين: ٣١٥؛ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٩: ٩٢ بتفاوت يسير.

(٢) عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يَفْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾، قال: «الاقتراف التسليم لنا، والصدق علينا، وألا يكذب علينا». (الكافي ١: ٣٩١/ باب التسليم وفضل المسلمین/ ح ٤).

وعن جابر، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قول الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يَفْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾، قال: «من تولّى الأوصياء من آل محمد وأتبع آثارهم، فذلك يزيد ولاية من مضى من النبيين والمؤمنين الأولين حتى تصل ولايتهم إلى آدم عليه السلام...». (الكافي ٨: ٣٧٩/ ح ٥٧٤).

٢٩٠ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

ومهما يكن فإن هذه الآية التي تضمّنها الدعاء تؤكد على أكثر من حقيقة:

الحقيقة الأولى: أن طلب الدنيا حينما يكون منفرداً وبعيداً عن الآخرة فإنه طلب مرفوض، والله تعالى يقول: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن خَلَقٍ﴾ (البقرة: ٢٠٠).

الحقيقة الثانية: أن الصحيح هو رفض الدنيا حينما تكون بعيدة عن الآخرة، وحينما لا تُوظَّف للآخرة بالعمل الصالح مثل الصدقة وصلة الرحم وإدخال السرور على المؤمنين وما شاكل ذلك.

وهنا نستذكر قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٢).

الحقيقة الثالثة: الصحيح هو أن تجمع بين حسنة الدنيا والآخرة، الحسنة حينما تكون في طريق الله ليست تلك المذمومة التي هي لهو ولعب، والتي هي مضادة للآخرة كما جاء في الحديث النبوي الشريف: «الدنيا والآخرة ضرّتان»^(١)، يعني هذه الدنيا التي تتقاطع مع الآخرة مرفوضة والتي تكون في طريق الآخرة هي دنيا مطلوبة.

اشترى داراً:

نستذكر هنا قصة العلاء بن زياد الحارثي الذي عاده أمير المؤمنين عليه السلام، فلما رأى سعة داره قال:

«مَا كُنْتُ تَصْنَعُ بِسَعَةِ هَذِهِ الدَّارِ فِي الدُّنْيَا وَأَنْتَ إِلَيْهَا فِي الآخِرَةِ كُنْتُ

(١) عوالي اللئالي ١: ٢٧٧/ ح ١٠٦.

أَحْوَجَ؟ وَبَلَىٰ إِنْ شِئْتَ بَلَغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ، تَقْرِي فِيهَا الضَّيْفَ، وَتَصِلُ فِيهَا الرَّحِمَ، وَتَطْلُعُ مِنْهَا الْحُقُوقَ مَطَالِعَهَا، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ بَلَغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ»^(١).
 إذن الدار الوسيعة يمكن أن تكون طريقاً للآخرة إذا جعلها الإنسان في خدمة الأرحام وغيرهم.
 «وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ»:

نعم الآخرة هي الحياة الأكبر، والقرآن الكريم _ كما هو في المفهوم الديني بشكل عام _ يجعل الآخرة هي الهدف الأقصى حينما يقول: «وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» (العنكبوت: ٦٤)، لكن طلب الآخرة مشروط بالسعي لها، ولهذا فإن القرآن الكريم يقول: «وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا» (الإسراء: ١٩)، وليس من المقبول أن يريد الإنسان الآخرة دون أن يسعى لها.

لمن الدار الآخرة؟

القرآن الكريم يقول: «تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» (القصص: ٨٣)، وفي آية أخرى يقول: «أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ» (الرعد: ٢٢).
 ولهذا نجد أن الإمام علي عليه السلام قدّم نموذجاً صالحاً في قصة أم كلثوم حين قدّمت له طعاماً من قرص الشعير وملح ولبن، فرفض عليه السلام أن يأكل من ذلك إلا بعد أن ترفع أحد الإدامين، فقال لها: «يا بنية، ما من رجل طاب مطعمه ومشربه وملبسه إلا طال وقوفه بين يدي الله عز وجل يوم القيامة»^(٢).

(١) نهج البلاغة: ٣٢٤ / ح ٢٠٩.

(٢) بحار الأنوار ٤٢: ٢٧٦.

«وَقِنِي بِرَحْمَتِكَ عَذَابَ النَّارِ»:

هنا بحث واسع في قوله تعالى: «وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا» (مريم: ٧١)، كيف ذلك؟ وما معناه؟ وقد جاء في الحديث النبوي الشريف: أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ فَقَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَلَيْسَ قَدْ وَعَدَنَا رَبُّنَا أَنْ نَرِدَ النَّارَ؟ فَيَقَالُ لَهُمْ: قَدْ وَرَدْتُمُوهَا وَهِيَ خَامِدَةٌ»^(١).

وهناك روايات تشير إلى العبور على الصراط تؤكّد أنّ كلّ الناس يردون النار ويعبرون على الصراط، وهو جسر ممدود على جهنّم، ولكن بعضهم يمرّ عليه كلمع البرق، وبعضهم كمرّ الريح، وبعضهم كحضر الفرس، وبعضهم كالراكب، وبعضهم كشدّ الرجل، وبعضهم كمشيه^(٢).

السؤال المركزي:

هذا الختام للدعاء الشريف يُذكرنا مرّةً أُخرى أنّ السؤال المركزي للإنسان المؤمن هو طلب الآخرة والفوز بالجنة، وهذا هو ما نقرؤه في دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة: «اللَّهُمَّ حَاجَتِي الَّتِي إِنْ أَعْطَيْتَنِيهَا لَمْ يَضُرَّنِي مَا مَنَعْتَنِي، وَإِنْ مَنَعْتَنِيهَا لَمْ يَنْفَعْنِي مَا أَعْطَيْتَنِي، أَسْأَلُكَ فَكَأَنَّكَ رَقِيتِي مِنَ النَّارِ»^(٣).

نسأل الله العتق من النار، والفوز بالجنة، وصلى الله على محمد وآله

الطاهرين.

* * *

(١) تفسير الصافي ٣: ٢٩٠؛ بحار الأنوار ٨: ٢٥٠.

(٢) راجع: بحار الأنوار ٨: ٢٤٩.

(٣) إقبال الأعمال ٢: ٨٧.

مصادر التحقيق

القرآن الكريم.

الاحتجاج: الطبرسي / ت محمد باقر الخرسان / ١٣٨٦هـ / دار النعمان.

الأربعون حديثاً: السيّد روح الله الموسوي الخميني.

الأربعين: محمد طاهر القمّي الشيرازي / ت السيّد مهدي الرجائي / ط ١ /

١٤١٨هـ / مط أمير.

إرشاد القلوب: الحسن بن محمد الديلمي / ط ٢ / ١٤١٥هـ / مط أمير /

انتشارات الشريف الرضي / قم.

الإرشاد: الشيخ المفيد / ت مؤسّسة آل البيت / ط ٢ / ١٤١٤هـ / دار المفيد /

بيروت.

الاستذكار: ابن عبد البرّ / ت سلام محمد عطا ومحمد علي معوض / ط ١ /

٢٠٠٠م / دار الكتب العلمية / بيروت.

الاستيعاب: ابن عبد البرّ / ت البجاوي / ط ١ / ١٤١٢هـ / دار الجيل /

بيروت.

الأصول الستّة عشر: ت ضياء الدين المحمودي / ط ١ / ١٤٢٣هـ / دار

الحديث.

إقبال الأعمال: ابن طاووس / ت جواد القيّومي / ط ١ / ١٤١٤هـ / مكتب

الإعلام الإسلامي.

الأمال: الشيخ الصدوق / ط ١ / ١٤١٧هـ / مؤسّسة البعثة.

- ٢٩٤ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق
- الأمالي: الشيخ الطوسي / ت مؤسّسة البعثة / ط ١ / ١٤١٤هـ / دار الثقافة / قم.
- بحار الأنوار: العلّامة المجلسي / ط ٢ المصحّحة / ١٤٠٣هـ / مؤسّسة الوفاء / بيروت.
- تأويل الآيات الظاهرة: شرف الدين الحسيني / ط ١ / ١٤٠٧هـ / مط أمير / مدرسة الإمام المهدي / قم.
- تحف العقول: ابن شعبة الحرّاني / ت علي أكبر الغفاري / ط ٢ / ١٤٠٤هـ / مؤسّسة النشر الإسلامي / قم.
- تفسير ابن أبي حاتم: ابن أبي حاتم الرازي / ت أسعد محمّد الطيب / دار الفكر / بيروت.
- تفسير الثعلبي: الثعلبي / ت أبي محمّد بن عاشور / ط ١ / ١٤٢٢هـ / دار إحياء التراث العربي / بيروت.
- التفسير الصافي: الفيض الكاشاني / ط ٢ / ١٤١٦هـ / مط مؤسّسة الهادي / مكتبة الصدر / طهران.
- تفسير الطبري: ابن جرير الطبري / ١٤١٥هـ / دار الفكر / بيروت.
- تفسير العيّاشي: العيّاشي / ت هاشم الرسولي المحلّاتي / المكتبة العلمية الإسلاميّة / طهران.
- تفسير القمّي: علي بن إبراهيم القمّي / ت طيّب الجزائري / ط ٣ / ١٤٠٤هـ / مؤسّسة دار الكتاب / قم.
- التفسير الكبير: الفخر الرازي / ط ٣.
- تفسير الميزان: السيّد الطباطبائي / منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلمية / قم.

مصادر التحقيق ٢٩٥

تفسير فرات الكوفي: فرات بن إبراهيم الكوفي / ت محمد الكاظم / ط ١ /
١٤١٠ هـ / مؤسسة طبع ونشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد / طهران.

تفسير مجمع البيان: الطبرسي / ت لجنة من العلماء / ط ١ / ١٤١٥ هـ / مؤسسة
الأعلمي / بيروت.

تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي / ت حسن الخراسان / ط ٣ / ١٣٦٤ ش / مط
خورشيد / دار الكتب الإسلامية / طهران.

تهذيب الكمال: المزي / ت بشار عواد معروف / ط ٤ / ١٤٠٦ هـ / مؤسسة
الرسالة / بيروت.

ثم اهتديت: الدكتور محمد التيجاني / مؤسسة الفجر / لندن.

ثواب الأعمال: الشيخ الصدوق / ت محمد مهدي الخراسان / ط ٢ / ١٣٦٨ ش /
مط أمير / منشورات الشريف الرضي / قم.

الخرائج والجرائح: قطب الدين الراوندي / ط ١ كاملة محققة / ١٤٠٩ هـ /
مؤسسة الإمام المهدي / قم.

الخصال: الشيخ الصدوق / ت علي أكبر الغفاري / ١٤٠٣ هـ / جماعة
المدرسين / قم.

خصائص الأئمة: الشريف الرضي / ت محمد هادي الأمين / ١٤٠٦ هـ / مجمع
البحوث الإسلامية / مشهد.

الدعوات: قطب الدين الراوندي / ط ١ / ١٤٠٧ هـ / مط أمير / مؤسسة الإمام
المهدي / قم.

ديوان الإمام علي عليه السلام: مصطفى زماني / ط ١٣٦٨ ش / مط صدر / قم.

روائع نهج البلاغة: جورج جرداق / ط ٢ / ١٤١٧ هـ / مط باقري / مركز
الغدير للدراسات الإسلامية.

- ٢٩٦ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق
- روضة الواعظين: الفتال النيسابوري / ت محمد مهدي الخرسان / منشورات الشريف الرضي / قم.
- زاد المسير في علم التفسير: ابن الجوزي / ت محمد بن عبد الرحمن / ط ١ / ١٤٠٧هـ / دار الفكر / بيروت.
- السنن الكبرى: البيهقي / دار الفكر / بيروت.
- شرح إحقاق الحق: المرعشي / ت شهاب الدين المرعشي / مكتبة المرعشي / قم.
- شرح أصول الكافي: المازندراني / ت الشعراني / ط ١ / ١٤٢١هـ / دار إحياء التراث العربي / بيروت.
- شرح الأخبار: القاضي النعمان المغربي / ت محمد الجلاي / ط ٢ / ١٤١٤هـ / مؤسّسة النشر الإسلامي / قم.
- شرح كلمات أمير المؤمنين عليه السلام: عبد الوهّاب / ت مير جلال الدين الحسيني الأرموي المحدث / ١٣٩٠هـ / مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرفة.
- شرح نهج البلاغة: ابن ميثم البحراني / ط ١ / ١٣٦٢ش / مركز النشر مكتب الإعلام الإسلامي / إيران / قم.
- شعب الإيمان: أبو بكر البيهقي / ط ١ / ١٤٢٣هـ / مكتبة الرشد.
- صحيح البخاري: البخاري / ١٤٠١هـ / دار الفكر / بيروت.
- صحيح مسلم: مسلم النيسابوري / دار الفكر / بيروت.
- الصحيفة السجّادية: أبطحي / ت محمد باقر الأبطحي / ط ١ / ١٤١١هـ / مط نمونة / مؤسّسة الإمام المهدي، مؤسّسة الأنصاريان / قم.
- الصحيفة السجّادية: ت السيّد محمد جواد الحسيني الجلاي / ط ١ / ١٤٢٢هـ / دليل ما / قم.

مصادر التحقيق ٢٩٧

الصواعق المحرقة: ابن حجر الهيتمي / ط ١ / ١٩٩٧م / مؤسسة الرسالة / بيروت.

عدّة الداعي: ابن فهد الحلّي / ت أحمد الموحّدي القمي / مكتبة وجداني / قم.
علل الشرائع: الشيخ الصدوق / ت محمّد صادق بحر العلوم / ١٣٨٥هـ / منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها / النجف الأشرف.

عمدة القاري: العيني / دار إحياء التراث العربي / بيروت.
عوالي اللئالي: ابن أبي جمهور الأحسائي / ت مجتبى العراقي / ط ١ / ١٤٠٣هـ / مط سيّد الشهداء / قم.

عيون أخبار الرضا عليه السلام: الشيخ الصدوق / ت حسين الأعلمي / ١٤٠٤هـ / مؤسسة الأعلمي / بيروت.

عيون الحُكَم والمواعظ: علي الليثي الواسطي / ت حسين البيرجندي / ط ١ / دار الحديث.

الغارات: إبراهيم بن محمّد الثقفي / ت جلال الدين الحسيني الأرموي المحدث.
الفتوح: أحمد بن أعثم الكوفي / ت علي شيري / ط ١ / ١٤١١هـ / دار الأضواء.
الفرج بعد الشدّة: القاضي التنوخي / ط ٢ / ١٣٦٤ش / منشورات الشريف الرضي / قم.

فضائل أمير المؤمنين عليه السلام: ابن عقدة الكوفي / تجميع عبد الرزاق محمّد حسين فيض الدين.

قرب الإسناد: الحميري القمّي / ط ١ / ١٤١٣هـ / مط مهر / مؤسسة آل البيت / قم.

الكافي: الشيخ الكليني / ت علي أكبر الغفاري / ط ٥ / ١٣٦٣ش / مط حيدري / دار الكتب الإسلاميّة / طهران.

- ٢٩٨ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق
- كامل الزيارات: ابن قولويه/ ت جواد القيومي/ ط ١ / ١٤١٧هـ / مط
مؤسسة النشر الإسلامي / مؤسسة نشر الثقافة.
- كتاب الأربعين: محمد طاهر القمي الشيرازي/ ت مهدي الرجائي/ ط ١ /
١٤١٨هـ / مط أمير.
- كشف الغمة: ابن أبي الفتح الأربلي/ ط ٢ / ١٤٠٥هـ / دار الأضواء/ بيروت.
كفاية الأثر: الخزاز القمي/ ت عبد اللطيف الكوهكمري الخوئي/ ١٤٠١هـ /
مط الخيام/ انتشارات بيدار.
- كنز العمال: المتقي الهندي/ ١٤٠٩هـ / مؤسسة الرسالة/ بيروت.
- مثير الأحزان: ابن نما الحلبي/ ١٣٦٩هـ / المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف.
- المحاسن: البرقي/ ت جلال الدين الحسيني المحدث/ ١٣٧٠هـ / دار الكتب
الإسلامية/ طهران.
- مدينة المعاجز: هاشم البحراني/ ت عزّة الله المولائي الهمداني/ ط ١ /
١٤١٣هـ / مط بهمن/ مؤسسة المعارف الإسلامية/ قم.
- مستدرك سفينة البحار: علي النمازي/ ت حسن بن علي النمازي/ ١٤١٨هـ /
مؤسسة النشر الإسلامي/ قم.
- مستدرك نهج البلاغة: الشيخ هادي آل كاشف الغطاء/ منشورات مكتبة
الأندلس.
- مستدركات علم رجال الحديث: علي النمازي/ ط ١ / ١٤١٢هـ / مط شفق/
طهران.
- مسند أحمد: أحمد بن حنبل/ دار الصادر/ بيروت.
- مشكاة الأنوار: علي الطبرسي/ ت مهدي هوشمند/ ط ١ / ١٤١٨هـ / دار
الحديث.

مصادر التحقيق ٢٩٩

مصباح الشريعة: المنسوب للإمام الصادق عليه السلام / ط ١ / ١٤٠٠هـ / مؤسسة
الأعلمي / بيروت.

مصباح المتهجد: الشيخ الطوسي / ط ١ / ١٤١١هـ / مؤسسة فقه الشيعة/
بيروت.

المصباح: الكفعمي / ط ٣ / ١٤٠٣هـ / مؤسسة الأعلمي / بيروت.

مطالب السؤول: ابن طلحة الشافعي / ت ماجد بن أحمد العطيّة.

معاني الأخبار: الشيخ الصدوق / ت علي أكبر الغفاري / ١٣٧٩هـ / مؤسسة
النشر الإسلامي / قم.

المعجم الأوسط: الطبراني / ١٤١٥هـ / دار الحرمين.

مفاتيح الجنان: الشيخ عباس القمي / ط ٣ / ٢٠٠٦م / مكتبة العزيزي / قم.

مكارم الأخلاق: الشيخ الطبرسي / ط ٦ / ١٣٩٢هـ / منشورات الشريف
الرضي / قم.

الملهوف على قتلى الطفوف: ابن طاووس / ط ١ / ١٤١٧هـ / مط مهر / أنوار
الهدى / قم.

من لا يحضره الفقيه: الشيخ الصدوق / ت علي أكبر الغفاري / ط ٢ / مؤسسة
النشر الإسلامي / قم.

مناقب آل أبي طالب: ابن شهر آشوب / ت لجنة من أساتذة النجف /
١٣٧٦هـ / المكتبة الحيدرية / النجف.

مناقب علي بن أبي طالب: ابن المغازلي / ط ١ / ١٤٢٦هـ / مط سبحان/
انشارات سبط النبي عليه السلام.

منهاج الكرامة: العلامة الحلي / ت عبد الرحيم مبارك / ط ١ / ١٣٧٩ش / مط
الهادي / انتشارات تاسوعاء / مشهد.

٣٠٠ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق

- مهج الدعوات ومنهج العبادات: ابن طاووس / كتابخانه سنائي.
موسوعة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: محمد الريشهري / ط ٢ / ١٤٢٥ هـ /
دار الحديث للطباعة والنشر.
نهج البلاغة: الشريف الرضي / ضبط نصّه الدكتور صبحي صالح / ط ١ /
١٣٨٧ هـ / بيروت.
النوادر: فضل الله الراوندي / ت سعيد رضا علي عسكري / ط ١ / مؤسّسة دار
الحديث الثقافية / قم.
السوافي: الفيض الكاشاني / ت ضياء الدين الحسيني الأصفهاني / ط ١ /
١٤٠٦ هـ / مكتبة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام العامّة / أصفهان.
ينابيع المودّة: القندوزي / ت علي جمال أشرف الحسيني / ط ١ / ١٤١٦ هـ / دار
الأسوة.

* * *

فهرست الموضوعات

٣	مقدمة المؤسسة
٣	الأخلاق بين مدرستين
٣	فوارق المدرستين
٥	الإمام زين العابدين <small>عليه السلام</small> ودعاء مكارم الأخلاق
٧	إيضاح
٩	مقدمة المؤلف
١١	دعاء مكارم الأخلاق
١٧	فاتحة الدعاء
١٧	فضيلة الصلاة عليهم
١٨	فلسفة ذلك
١٩	الصلاة الصحيحة
١٩	لماذا دعاء مكارم الأخلاق؟
٢٠	القرآن والأخلاق
٢١	الفرق بين الإنسان والحيوان
٢٢	أخلاق في كل عمل
٢٣	أصول الكفر
٢٤	ملاحظة
٢٥	المقطع الأوّل

٣٠٢ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق
٢٥ الموجز
٢٥ أقسام الإيمان
٢٦ مراتب الإيمان
٢٨ لمحتك من ديوان النبوة
٢٨ حقيقة الإيمان
٢٩ علامة الإيمان
٢٩ يا بارّ يا وصول
٣٠ لا بدّ من الجدّ والاجتهاد
٣١ الإيمان منحة إلهية
٣٢ اليقين له مراتب
٣٣ يقين الإمام علي عليه السلام
٣٤ بطولات أمير المؤمنين عليه السلام
٣٥ عبادة الإمام علي عليه السلام
٣٦ الخلود بالنية
٣٧ مراقبة النية
٣٨ في معركة الخندق
٣٩ أخفى أربعة في أربعة
٤٠ تصدّق علي عليه السلام بالخاتم
٤١ نفع الإخوان
٤٣ المقطع الثاني
٤٣ الموجز
٤٥ نعمة الولاية

٣٠٣	فهرست الموضوعات
٤٦	العبادة شغل
٤٧	التطرف مرفوض
٤٧	خطر التعلق بالدنيا
٤٧	مراقبة الأعمال
٤٨	أيام العمر
٤٩	التجهز للآخرة
٤٩	خمسة أمور كبرى
٥٠	متى يكون الغنى أمراً حسناً؟
٥٠	قصة ثعلبة
٥١	شروط الغنى المطلوب
٥٣	قصة من نهج البلاغة
٥٤	أذلة على المؤمنين
٥٥	الحذر من الكبر
٥٦	العز غير الكبر:
٥٦	الله هو مصدر كل عز
٥٨	معنى المحق والإحباط
٥٨	خطر الإحباط
٥٩	قصة مشي عيسى عليه السلام على الماء
٦٠	قصة موسى عليه السلام وإبليس
٦١	العبد والعبادة والعبودية
٦٢	لماذا العجب؟
٦٢	العابد والفاسق

٣٠٤ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق
٦٤ حديث عن لقمان
٦٥ وصايا لقمان
٦٦ الفخر الصحيح والفخر الباطل
٦٩ المقطع الثالث
٦٩ الموجز
٧١ يوسف <small>عَلَيْهِ السَّلَام</small> وعزّ الملك
٧١ الذلّة الباطنة لماذا؟
٧٢ قصّة بشر الحافي
٧٣ تذلل الرسول الأكرم <small>صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ</small>
٧٥ أشبع يوماً
٧٥ تذلل أمير المؤمنين <small>عَلَيْهِ السَّلَام</small>
٧٥ يغسل يد الضيف
٧٦ علي في السوق
٧٧ علي ومناجاته
٧٧ الاعتدال والتوازن
٧٩ المقطع الرابع
٧٩ الموجز
٨١ دعاء اللهم اهدني من عندك
٨١ خطر الاستبدال والزيغ والشكّ
٨٢ عائشة وعمّار
٨٣ الاستقامة على الطريق
٨٥ مرتعاً للشيطان

٣٠٥	فهرست الموضوعات
٨٥	أسباب تسلط إبليس
٨٦	مواقعة الذنب
٨٦	ما يطرد الشيطان
٨٩	المقطع الخامس
٨٩	الموجز
٨٩	معالجة الأمراض القلبية
٩٠	معالجة القلب
٩٠	١ _ معرفة أهمية سلامة القلب
٩١	٢ _ معرفة الأمراض القلبية
٩١	٣ _ الاهتمام بالمعالجة
٩١	٤ _ معرفة العلاج وتشخيص البديل
٩٢	٥ _ الاستعانة بالله تعالى
٩٢	مناشئ السلوك الأخلاقي
٩٣	بعض أمراض القلوب
٩٣	إبليس ونوح <small>عليه السلام</small>
٩٥	المحبة في الله
٩٥	أين المتحابون؟
٩٦	كيف نتعامل مع الآخرين؟
٩٩	المقطع السادس
٩٩	الموجز
٩٩	كيف نتعامل مع الظالمين؟
١٠١	الطاعة للمرشدين

٣٠٦ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق
١٠٢ نصيحة جبرئيل
١٠٣ موسى والخضر <small>عليهما السلام</small>
١٠٥ خطر الغرور
١٠٥ حضور المساجد ومجالس الوعظ وانتخاب الصديق
١٠٦ سبعة في ظلّ عرش الله
١٠٧ المقطع السابع
١٠٧ الموجز
١٠٧ كيف نتعامل مع الإخوة المخالفين؟
١٠٨ خيار العباد
١٠٩ التسديد الإلهي
١١٠ مخالفة الهوى
١١٠ المعركة الدائمة مع النفس
١١١ قصّة يحيى <small>عليه السلام</small> وإبليس
١١١ هوى الله تعالى
١١٢ رواية في وجوب النصح
١١٢ رواية في فضل الصلة
١١٢ رواية في فضل البذل والعطاء
١١٣ رواية في حرمة الغيبة
١١٥ المقطع الثامن
١١٥ الموجز
١١٦ الصلاح والتقوى
١١٧ مراحل السلوك

٣٠٧.....	فهرست الموضوعات
١١٨.....	معالم الصلاح والتقوى
١١٩.....	طريقان للسلوك
١٢٠.....	عشرون خصلة في المنهج العام
١٢٠.....	إنما يتقبل الله من المتقين
١٢٢.....	شرح مفردات
١٢٤.....	المحقرات من الذنوب
١٢٤.....	الطاعة والتوحد والرفض
١٢٧.....	المقطع التاسع
١٢٧.....	الموجز
١٢٨.....	العلاقة مع الله تعالى
١٢٨.....	الفقر المطلق
١٢٩.....	أسباب الرزق
١٣١.....	قصة عبد الله بن مسعود
١٣١.....	قصة الفقير مع رسول الله ﷺ
١٣٣.....	معالجة أسباب الكسل
١٣٧.....	كيف ينشأ عمى القلب؟
١٣٨.....	أمور تُقسى القلب
١٣٩.....	المقطع العاشر
١٣٩.....	الموجز
١٣٩.....	الشیطان منشأ الأخلاق السيئة ومصدرها
١٤٠.....	ما هو الشيطان؟
١٤١.....	الحذر من الشيطان

٣٠٨ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق
١٤٢ مواضع قرب الشيطان
١٤٢ نفوذ الشيطان في القلب
١٤٣ أساليب الشيطان
١٤٤ الاستعاذة من الشيطان
١٤٤ الشيطان والنوم عن الصلاة
١٤٥ ذكر الله يطرد الشيطان
١٤٦ عوامل تطرد الشيطان
١٤٦ ثلاثة بدل ثلاثة
١٤٦ التمني والتظني والحسد
١٤٦ رواية في ذم الحسد
١٤٧ رواية في سوء الظن
١٤٧ الذكر والتفكير والتدبير
١٤٨ أهمية تطهير اللسان
١٤٩ روايات في مراقبة اللسان
١٤٩ ذم الشتم والسب
١٤٩ فضل الحمد لله تعالى
١٥٠ فضل الشكر
١٥١ المقطع الحادي عشر
١٥١ الموجز
١٥١ الإحاطة الإلهية
١٥٣ التكليف صورة من صور التكريم
١٥٤ الاستعانة المطلقة بالله تعالى

٣٠٩.....	فهرست الموضوعات
١٥٤.....	البُعد الأخلاقي في التكاليف
١٥٥.....	الظلم ظلمات
١٥٥.....	الجزاء يوم القيامة
١٥٥.....	قصة سعيد بن جبير
١٥٨.....	دعوة المظلوم
١٥٩.....	خطر الطغيان
١٦٠.....	الطغيان وحبّ الدنيا
١٦١.....	حبّ الدنيا والتعلّق بالدنيا
١٦٢.....	وصف المتّقين
١٦٢.....	لا مبرّر للطغيان
١٦٣.....	بلاء أصحاب الجنّة
١٦٤.....	شرح العبارات
١٦٥.....	المقطع الثاني عشر
١٦٥.....	الموجز
١٦٦.....	حاجتنا إلى المغفرة وفلسفة الشعور بالذنب
١٦٩.....	أصل الخطيئة والمعصية
١٧٠.....	التذكّر والانتباه واليقظة
١٧٠.....	منازل السير والسلوك
١٧٢.....	العلاقة الطردية
١٧٣.....	مشكلة قارون
١٧٤.....	عبادتنا هي معصية أيضاً
١٧٥.....	لماذا العقاب؟

٣١٠ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق
١٧٧ النظرة الجدّية للأُمور
١٧٨ نصيحة الإمام الحسين <small>عليه السلام</small>
١٧٨ المغفرة والعفو والتجاوز
١٧٩ الحاجة إلى فضل الله والثقة به
١٧٩ نحن في الجنّة
١٨٠ انحصار الرجاء بفضل الله
١٨٢ الاستغفار والولاية والشفاعة
١٨٣ محاور أربعة للأخلاق
١٨٤ صدق الحديث
١٨٥ النطق بالذكر والنطق بالحقّ
١٨٧ التقوى صفة الشيعة
١٨٨ مقياس لمعرفة سلامة القلب
١٨٨ التقوى هي دعوة الأنبياء
١٨٩ التقوى هي مفتاح كلّ خير
١٩١ ما هي الطريقة المثلى؟
١٩٢ أعينوني بورع واجتهاد
١٩٣ المقطع الثالث عشر
١٩٣ الموجز
١٩٤ من الأدعية الجامعة
١٩٥ الاقتصاد المالي والسلوكي
١٩٦ الاقتصاد في العبادة
١٩٦ أدلّة الرشد

فهرست الموضوعات	٣١١
الدالّ على الخير	١٩٧
الله هو الدليل الأكبر	١٩٨
فضل الدلالة على الله	١٩٨
المسألة ممكنة	١٩٨
﴿هَلْ أَدْلَكُمُ عَلَىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ﴾	١٩٩
زوجة زهير بن القين	١٩٩
خيار العباد	٢٠٠
الولاية شرط الصلاح	٢٠٠
خير البرية	٢٠١
خير الرجال	٢٠١
من هم الفائزون؟	٢٠٢
خصال منجية وخصال مهلكة	٢٠٢
خصال يجب اجتنابها	٢٠٣
صفات أخرى للنفس	٢٠٤
نفوسنا يجب أن تكون محزونة	٢٠٤
النفوس هي التي تُحشَر يوم القيامة	٢٠٥
نار الأعمال والصفات والاعتقادات	٢٠٦
هلاك النفس وضرورة الاعتصام	٢٠٧
نظريات في النفس الإنسانية	٢٠٧
عود على بدء	٢٠٩
المقطع الرابع عشر	٢١١
الموجز	٢١١

٣١٢ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق
٢١٤ المسارعة في الخيرات
٢١٥ قصّة زكريا
٢١٦ الدعاء بإصلاح الذرية
٢١٧ أرض القيامة
٢١٨ من هي الفرقة الناجية؟
٢١٩ قصّة الدكتور التيجاني
٢٢١ المقطع الخامس عشر
٢٢٢ حالتان للكفاية
٢٢٢ حُسن الولاية
٢٢٣ شرط الولاية
٢٢٤ بشرطها وشروطها
٢٢٥ متى يخرج المؤمن من ولاية الله؟
٢٢٥ ثمرة الولاية
٢٢٦ صدق الهداية
٢٢٦ الهداية الشكلية والهداية الحقيقية
٢٢٧ الهداية المؤقتة والهداية الدائمة
٢٢٨ ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾
٢٢٩ الرفاه المحبوب والرفاه المبغوض
٢٣٠ من سعادة المرء خمس
٢٣٢ صلاة أمير المؤمنين <small>عَلَيْهِ السَّلَامُ</small> لقضاء الحاجات
٢٣٢ زيارة عاشوراء ودعاء علقمة
٢٣٥ المقطع السادس عشر

٣١٣	فهرست الموضوعات
٢٣٥	الموجز
٢٣٦	الإسراف في المال
٢٣٦	المال مال الله
٢٣٧	تحديد المصطلح
٢٣٨	مجالات أُخرى للإسراف
٢٣٩	الإسراف في الكلام والنوم والطعام
٢٣٩	الإسراف على النفس
٢٤٠	ثلاثة يشكون إلى الله
٢٤١	قصة صاحب الجنة
٢٤٢	الحجر الغصب
٢٤٢	خوف علي من الغصب
٢٤٣	البركة ماذا تعني؟
٢٤٤	قصة العقد المبارك
٢٤٦	قصة صاحب الدرهمين مع رسول الله ﷺ
٢٤٨	بعض أسباب البركة
٢٤٩	الإنفاق في البر
٢٥١	المقطع السابع عشر
٢٥١	فضل الاكتساب
٢٥٢	العمل والكسب
٢٥٣	نظرية الإسلام في الرزق
٢٥٤	التقوى أحد الأسباب
٢٥٤	الإعانة الإلهية في تحقيق الأهداف

٣١٤ في رحاب دعاء مكارم الأخلاق
٢٥٥ الانقطاع للعبادة
٢٥٥ بعض أحكام الكسب
٢٥٧ المقطع الثامن عشر
٢٥٨ الفرق بين حبّ الجاه وحبّ العلوّ
٢٥٩ أيّها أحبّ في الدين الفقر أم الغنى؟
٢٦٠ عوامل في سعة الرزق
٢٦١ قصّة عنقود العنب
٢٦٣ الجاه الممدوح والجاه المذموم
٢٦٥ علمه بحالي
٢٦٧ المقطع التاسع عشر
٢٦٧ طلب العافية
٢٦٨ السؤال عن أربع
٢٦٨ التأكيد على طلب العافية
٢٦٩ قصّة ثعلبية
٢٧١ قصّة الثلاثة
٢٧٣ قصّة حميد بن قحطبة
٢٧٤ التوازن مطلوب
٢٧٥ الرجاء الكاذب
٢٧٥ قصّة التاجر البغدادي
٢٧٩ قصّة الأصحاب الثلاثة
٢٨١ المقطع العشرون
٢٨٢ ساعتنا الغفلة

٣١٥	فهرست الموضوعات
٢٨٢	رحم الله امرءاً
٢٨٣	من حمل يندم
٢٨٤	لها نصف أجر شهيد
٢٨٤	الطريق إلى المحبة
٢٨٧	المقطع الحادي والعشرون
٢٨٧	فضيلة الصلاة على النبي ﷺ
٢٨٨	ثلاث مرّات
٢٨٨	كيفية الصلاة على النبي وآله
٢٨٩	قصة عبد الله بن الزبير
٢٩٠	اشترى داراً
٢٩١	لمن الدار الآخرة؟
٢٩٢	السؤال المركزي
٢٩٣	مصادر التحقيق
٣٠١	فهرست الموضوعات